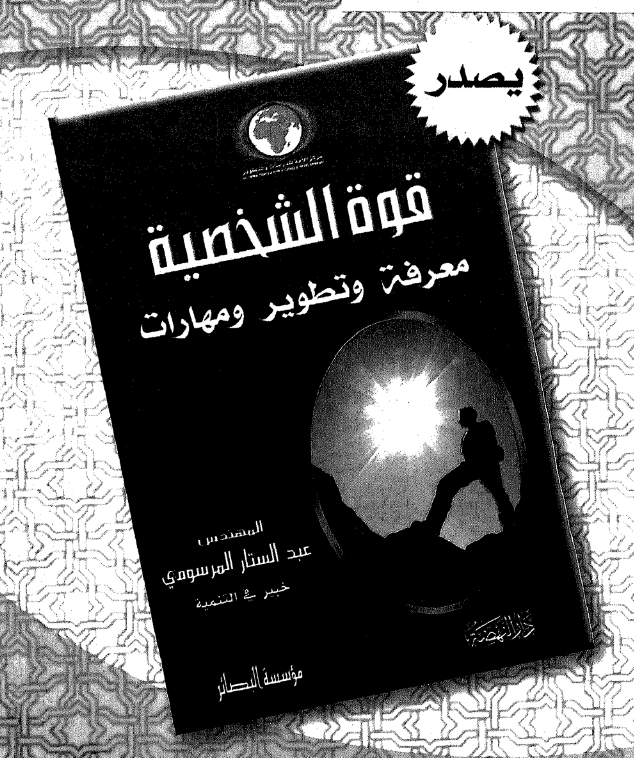


مجلة فصلية معنية بالشأن العراقي تصدر عن مركز الأمة للدراسات والتطوير

العدد الثالث رجب ١٤٣٠هـ / تموز ٢٠٠٩م

راسات والتطوير



هذا الكتاب يضع للقارى سبلاً واضحة المعالم يسير بها إلى مراده فيجد كيف ولماذا يخطط، ومتى وكيف يضع القرار المناسب، وآلية التعامل مع الآخرين بعد أن يحلل شخصياتهم



حضارة

مجلة فصلية معنية بالشأن العراقي تصدر عن مركز الأمة للدراسات والتطوير

العدد الثالث رجب ١٤٣٠هـ / تموز ٢٠٠٩م

نقال: ٠٠٩٦٤٧٨١٠٨٠١٠٢١ | Mobile: 009647810801021

نقال: ٠٠٢٠١٧٤٨٧٦٠١١ | Mobile: 0020174876011

تليفاكس: ٠٠٢٠٢٣٧٦١٩٥٩٦ | Telefax: 0020237619596

البريد الإلكتروني

editor@hadharamagazine net

ضوابط النشر في المجلة

(١) أن تراعي البحوث والدراسات والمقالات المراد نشرها في المجلة الالتزام بالأهداف العامة لمركز الأمة للدراسات والتطوير.

(٢) الالتزام بالمنهج العلمي الأكاديمي في توثيق البحوث والدراسات والمقالات المنشورة توثيقاً علمياً، وذلك بإيراد المصادر والمراجع وفق معلومات النشر المتعارف عليها.

(٣) ألا تكون المواد المرسلة للنشر في المجلة قد نشرت أو أرسلت للنشر في مكان آخر.

(٤) إرسال نصوص البحوث والدراسات والمقالات وغيرها بواسطة البريد الالكتروني إلى مدير تحرير المجلة وعلى عنوانها البريدي المعلن على صفحات المجلة.

(٥) أن لا يزيد حجم الدراسة أو البحث عن خمسة عشر صفحة (A4) كحد أقصى، وأن لا يقل عن عشر صفحات، وأن لا يزيد حجم المقالة عن خمس صفحات ولا يقل عن ثلاثة.

(٦) تنشر المجلة تقارير تغطية المؤتمرات والندوات والحلقات النقاشية ومراجعات الكتب، على أن لا يزيد حجم التقرير عن صفحتين (A4) ولا يقل عن صفحة واحدة، وأن يلتزم كاتبه بإيراد أهم المعلومات.

(٧) لا تدفع المجلة أية مكافآت نقدية عن البحوث والدراسات المنشورة فيها، وتعتمد على تعاون الباحثين والدارسين من أجل تأدية رسالتها في خدمة الأهداف التي أسست من أجلها.

في هذا العدد

مركز الأمة للدراسات والتطوير

وصف المركز

مركز الأمة للدراسات والتطوير مركز متخصص يعمل في مجال إعداد البحوث والدراسات الجادة المختصة بالشأن العراقي في المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والأمنية، ويهتم بالدراسات العامة في الشؤون الثقافية والعلمية والإدارية، كما يعنى بتدريب الكوادر وتطويرها وتأهيلها.

أهداف المركز

(١) العناية بالدراسات والبحوث في الشؤون السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية والأمنية والعلمية.

(٢) دراسة وتحليل المشاكل والقضايا السياسية والاقتصادية والاجتماعية في العراق، ومحاولة وضع تصور أفضل لتشخيصها وكيفية التعامل معها، وآلية معالجتها.

(٣) التعريف بثقافة مقاومة الاحتلال وممانعة مشروعه، وتعزيزها ونشرها.

(٤) المساهمة في تنمية المجتمع العراقي على المستويات السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية والعلمية.

(٥) تدريب الكوادر وتأهيل العاملين في المجالات السياسية والقانونية والإدارية والإعلامية وحقوق الإنسان وتطوير مهاراتهم.

(٦) رفد الجهات والمؤسسات والهيئات ذات الاهتمام المشترك بالدراسات العلمية الرصينة والبحوث الموضوعية الهادفة.

الوسائل والأنشطة

(١) تنظيم وإقامة المؤتمرات والندوات وحلقات النقاش والمحاضرات والدورات التدريبية المتخصصة وورش العمل.

(٢) إعداد وتأليف ونشر الدراسات والأبحاث العلمية التي تتعلق بمجالات اهتمام المركز وأهدافه، بالإضافة إلى إصدار المنشورات العلمية الدورية وغير الدورية.

(٣) التعاون العلمي مع الجامعات والهيئات والمراكز العلمية المتخصصة.

(٤) ترجمة الدراسات والإصدارات المتعلقة باهتمامات وأهداف المركز ذات المستوى العلمي المتميز.

هيكلية المركز

يتألف المركز من الهيئة الاستشارية التي تضم مجموعة من أساتذة الجامعات والمختصين ورجال الثقافة، والإدارة والتي تتكون من مدير المركز ورؤساء الأقسام ومسئولي الوحدات المتخصصة، وأقسام المركز ووحداته وهي قسم الدراسات وقسم التطوير ويتكون المركز من عدة وحدات متخصصة منها وحدة الرصد والتوثيق و وحدة الترجمة و وحدة المجلة.

(حضارة) على مشارف عامها الثاني

رئيس التحرير

بإطلالة هذا العدد تكون (حضارة) قد بلغت العدد الثالث الذي يكمل السنة الأولى من المجلة مع العدد التجريبي الذي صدر في مطلع (تشرين الأول _ أكتوبر/ ٢٠٠٨م)، وبذلك تثبت إدارة تحرير (حضارة) عزمها على مواصلة مسيرتها وتصميمها على تطوير المجلة محتوى وإخراجاً، بعد أن حققت عدة خطوات في هذا الصدد لعل آخرها هو طباعة العدد الثاني من المجلة طبعة ثانية في بغداد تزامن توزيعها مع توزيع المجلة خارج العراق، وهي نقلة مهمة كان لها صداها الطيب داخل العراق، الذي وزعت فيه المجلة في عدة محافظات بواسطة مؤسسة البصائر للطباعة والنشر والتوزيع، كما بلغت المجلة عدداً من العواصم الأوروبية والآسيوية والعربية بفضل جهود عدد من المهتمين بها والساعين للتعريف بما تنشره من دراسات متخصصة.

وفي هذا العدد تتواصل معنا بعض الأقلام العراقية والعربية المهمة التي وجدت في حضارة فرصة مناسبة للتواصل مع القارئ العراقي والعربي، ومن هذه الأقلام الدكتور عبد الكريم العلوجي في بحثه: (الدور الإيراني في العراق بعد الاحتلال)، والأديبة والباحثة هيفاء زنكنة في دراستها: (حقوق المرأة في العراق الجديد، تفكيك الصورة النمطية)، والدكتورة وصال العزاوي

أستاذة العلوم السياسية وعميدة كلية العلوم السياسية في جامعة النهرين سابقاً في دراستها: (حوار الأديان ضرورة.. ولكن)، والأستاذ محمد جمال عرفة الصحفي والمحلل السياسي المصري المعروف في مقاله المهم عن (العراق والأرقام القياسية في الفقر والنهب والأيتام والأرامل).

ويبقى حديث المقاومة عالياً في هذا العدد ببحثين ومقالين.. يتحدث البحث الأول عن: (ثقافة المقاومة بين احتلالين) وهو للباحث في مركز الأمة خالد القيسي، فيما يتناول الباحث حسين الرشيد موضوع: (جيش الاحتلال في العراق بين الفرار والانتحار).. أما المقالين فالأول بعنوان (الاتجاهات الشعرية وأثرها في دعم القضية العراقية) للباحث محمد مساعد آل جعفر، والثاني (المقاومة العراقية، قراءة في شواهد استعادة العافية) للإعلامي المصري أسامة عبد الرحيم، فضلاً عن حقل الوثائق الذي خصص في هذا العدد لهذا الشأن أيضاً.

ويمتاز هذا العدد بدراسة خاصة عن (القضية العراقية من وجهة نظر رئيس الوزراء الماليزي الأسبق مهاتير محمد) أعدها الدكتور أحمد الجنابي. كما لا يغيب في هذا العدد البعد الاقتصادي الذي نجد بشأنه دراسة للباحث في مركز الأمة عبد الستار المرسومي يتناول فيها: (تداعيات ونتائج الأزمة المالية العالمية). أما ملف العدد فقد خصص هذه المرة لموضوع مهم وحيوي وهو موضوع المرأة العراقية وهمومها.. وضمّ هذا الملف فضلاً عن دراسة الباحثة هيفاء زنكنة المتقدمة دراسة عن: (تحقيق الديمقراطية الأمريكية في هموم اللاجئة العراقية) للإعلامية سارة علي.

وفي حقل الدراسات المترجمة تنشر (حضارة) في هذا العدد مقالة مترجمة عن الإنكليزية للمفكر الأمريكي المعروف نعوم تشومسكي نشرت على موقعه الرسمي في أواخر شهر (٢٠٠٩/٤م) بعنوان: (تاريخ التعذيب في الولايات المتحدة الأمريكية) وهي تبحث في كون التعذيب سياسة متبعة في النظام السياسي الأمريكي منذ تشكله، وتأتي هذه الدراسة في إطار الجدل والنقاش المحتدم في أمريكا بشأن وعود الرئيس المنتخب فيما يتعلق بموضوع إنهاء التعذيب في معتقل غوانتنامو.

وأخيراً فهذا هو نتاج (حضارة) في عددها الثالث سائلين الله تعالى دوام التوفيق والتسديد؛ لأجل تقديم النافع من الدراسات والجديد من المشاركات، وكلنا أمل بأن نسمع من المتابعين والمهتمين ملاحظاتهم التي كانت عوناً لنا في الأعداد السابقة وستكون عوناً لنا دائماً إن شاء الله.

الدور الإيراني في العراق بعد الاحتلال

د. عبدالكريم العلوجي[1]

كان الدور الإيراني بالغ النشاط والفعالية على مدار عـام ٢٠٠٥م فمـن ناحية استفادت إيران من أوراق كثيرة أتاحها وجود أحد المقربين منهـا هـو إبراهيم الجعفري على رأس الحكومة العراقية حيث سمح لها هـذا الوجـود بحيازة مصادر للتأثير السياسي والاقتصادي والأمني على الساحة العراقيـة، ومع إن شروع الولايات المتحدة في مراجعة موقفها من الأطـراف الـشيعية خوفاً من تنامي النفوذ الإيراني في العراق، وبفعل إدراكهـا اسـتحالة إنكـار القوى السنية في المعادلة الأمنية والسياسية العراقية كان من شأنه أن يفـضي إلى صدام مصالح بين الولايات المتحدة وإيران إلا أن إدراك الطرفين حـدود القوة في علاقتهما الثنائية، مثّل ضابطاً لتفجير صراع مفتوح بينهما أكثر مـن ذلك، مثّل العراق ساحة محتملة للتفاهم بين الطرفين علـى بعـض الملفـات العالقة بينهما والتي تتجاوز الشأن العراقي إلى طبيعة الدور الإقليمي لإيـران عموماً.

وقد اعترف محمد علي أبطحي نائب الرئيس الإيرانـي الـسابق بالـدور الإيراني في العراق في ختام أعمال مؤتمر الخليج وتحديات المـستقبل الـذي

---

[1] كاتب ومحلل سياسي عراقي.

نظمه مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية بإمارة أبي ظبي بتاريخ ٢٠٠٤/١/١٥م بأن بلاده " قدمت الكثير من العون للأمريكيين في حربيهم ضد أفغانستان والعراق" ومؤكداً أنه لولا التعاون الإيراني لما سقطت كابول وبغداد بهذه السهولة.

وفي سياق التجاذب واللعب على الحبال المشتركة والغزل الخفي بين إيران والولايات المتحدة الأمريكية وتصفية الحسابات المعلقة بينهما ما هدد به علي أكبر هاشمي رفسنجاني قائلاً: "إن لإيران دوراً مهماً وحاسماً في تشكيل مستقبل العراق وإن الولايات المتحدة الآن عالقة بالوحل العراقي، وإنها تعلم علم اليقين إن إيران تملك طابوراً طويلاً من الأدوات التي تستطيع من خلالها التأثير في العراق، فالحرس الثوري الإيراني وضباط الاستخبارات الإيرانية كانوا يعملون في العراق منذ سنوات ولديهم شبكات عميقة ومقتدرة، وصفوة القول إن الإيرانيين لا يبدون مهتمين باستقرار العراق أو من هو الذي سيحكمه ولكن سياسة إيران هذه تعطي إشارات من خلال تعليقات رفسنجاني أو أبطحي أو غيرهما من أن إيران لديها الاستعداد الكامل لعقد صفقات، وقد سعت إيران من خلال تحركاتها داخل العراق إلى إبراز دورها الكبير الذي يمكن أن تلعبه في الساحة العراقية وإظهار مقدرتها على تحريك الأحداث للتواصل إلى فرض قناعاتها على الإدارة الأمريكية بشكل غير مباشر من خلال إحراجها داخل الساحة العراقية، وهو تكتيك مرحلي تسعى من خلاله إيران إلى توظيف تداعيات الأحداث في خدمتها.

تتباين النظرة إلى طبيعة العلاقات التي تربط العراق بإيران فمن جانب السنة في العراق يرون أن إيران عدواً تاريخياً للعرب والعروبة، حيث كان لشعار تصدير الثورة تبعات جسيمة على انزلاق العراق إلى هاوية التخندق والتناحر الطائفي، إن ظروفاً إقليمية ودولية كثيرة ساهمت في زيادة هذا الدور

والنفوذ الإيراني في المنطقة، الأمر الذي مهّد لحضور إيراني أكبر في الصراعات الإقليمية التي تكتنف المنطقة عموماً، ومما لا شك فيه أن دورها في العراق الذي ينبغي ألا ينظر إليه بمعزل عن دورها كقوة إقليمية في المنطقة قد أخذ يثير القلق الدولي والإقليمي.

إيران والعراق

في ظل حرب الولايات المتحدة على الإرهاب حصلت إيران على دور إقليمي يأخذ شكله الأوضح في تداعيات المشهد الدموي في العراق من خلال دعمها لبعض الجماعات المتشددة هناك، فهل أصبح العراق ساحة لمعادلات سياسية عالمية أخرى؟.

بعد انتهاء العلميات العسكرية للحرب التي قادتها الولايات المتحدة على العراق لإسقاط نظام الرئيس العراقي صدام حسين تأكد القادة العسكريون أن المهمة لم تكن لتنتهي بتلك السهولة التي كانوا يتوقعونها فهم أدركوا أنهم دخلوا بأرجلهم إلى خضم تركيبة عرقية معقدة إلى حد بعيد، تصاعدت وتيرة هذه العمليات بصورة كبيرة في الفترة التي أعقبت الإعلان الشكلي عن انتهاء العمليات العسكرية وهيمنت حالة دموية من عدم الاستقرار في العراق وقع ضحيتها الآلاف من الأبرياء بشكل أصبح الاستقرار في العراق لا يعدو كونه مجرد حلم ليس إلا.

وفي خضم هذه الأحداث وفي سياق عملية البحث عن المسؤول الأول عن حالة العراق الدموية اتهم جنرال أمريكي رفيع المستوى لأول مرة إيران بدعم جماعات شيعية متشددة في العراق ويرى الجنرال "مايكل باربيرو" أن طهران تنتهج سياسة "دعم اللااستقرار في العراق" وتغذي العنف المستمر هناك، كما أشار "باربيرو" إلى أنه من غير المستبعد أن تكون إيران مسؤولة عن تمويل

وتسليح جماعات متشددة في "المعسكر الشيعي" في ظل الانقسام والتخندق الطائفي الذي يشهده العراق وقال "باربيرو": إن إيران زودت هذه الجماعات بمعدات تفجير حديثة ساهمت بدورها في مقتل أكثر من (٣٠٠٠) عراقي خلال شهر تموز/ يوليو ٢٠٠٦م وحده، ويبدو أن ارتفاع عدد ضحايا حمام الدم العراقي خلال الأشهر السابقة لهذا التاريخ لم يكن السبب الوحيد في تجديد توجيه هذه الاتهامات، فالمشهد السياسي في المنطقة عموماً مازال مثقلاً بعد بتداعيات الصراع بين إسرائيل وحزب الله اللبناني ومسألة الدور الإيراني في دعم حزب الله، فضلاً عن حالة الغموض التي ماتزال تكتنف مستقبل التعامل مع البرنامج النووي الإيراني، فهذه الانتقادات الأخيرة أتت متزامنة مع مهاجمة الإدارة الأمريكية للحضور الإيراني على كثير من الجبهات الإقليمية في المنطقة.

دور إقليمي كبير وقلق دولي أكبر

يرى أغلب المحللين أن عهد الرئيس الإيراني "أحمدي نجاد" شهد زيادة ملموسة في التطلعات الإيرانية إلى لعب دور أكبر في محيطها الإقليمي وبالتالي زيادة نفوذها في المنطقة، ويبدو أن ظروفاً إقليمية ودولية كثيرة ساهمت في زيادة هذا الدور والنفوذ الإيرانيين في المنطقة، الأمر الذي مهّد لحضور إيراني أكبر في الصراعات الإقليمية التي تكتنف المنطقة عموماً، ومما لا شك فيه أن دورها في العراق الذي ينبغي ألا ينظر إليه بمعزل عن دورها كقوة إقليمية في المنطقة، قد أخذ يثير قلق دولي وإقليمي، وبشأن ذلك ترى دراسة صدرت مؤخراً عن المعهد الملكي البريطاني للدراسات الدولية "أن حرب أمريكا على الإرهاب أتت بالمنفعة الكبيرة على تقوية دور إيران في المنطقة، إذ أزالت هذه الحرب اثنتين من الحكومات الإقليمية المنافسة

للدولة الإسلامية الإيرانية، فبعد أن أسقطت الولايات المتحدة وحلفائهـا نظـام طالبان عام ٢٠٠١م ونظام الرئيس العراقـي السـابق صـدام حسين فـي نيسان/ أبريل ٢٠٠٣م فشلت الإدارة الأمريكية في استبدالهما بهياكل سياسـية مستقرة ومتماسكة، وقد منحت حالة الفراغ الإقليمي هذه إيران الفرصة لا لأن تحتل مركز القوة الوحيدة في المنطقة فحسب، بـل للعـب دور مباشـر فـي العراق وجهاً لوجه مع عدوها اللدود أمريكا.

إيران في المنظور العراقي

تتباين النظرة إلى طبيعة العلاقات التي تربط العراق بإيران فمن جانـب يرى سنة العراق إيران "عدواً تاريخياً للعرب والعروبة" وكان لسياستها فـي تصدير الثورة تبعات جسيمة على انزلاق العراق إلى هاوية التخندق والتناحر الطائفي، فالزعماء السنة يتهمون طهران بالتحريض على إثارة القلاقـل فـي العراق لإضعاف القوة العسكرية الأمريكيـة فـي المنطقـة والتطلـع إلـى الاحتياطيات النفطية في جنوب العراق، وقد لا تتفق هذه النظرة إلى العلاقات الإيرانية ـ العراقية مع المفهوم العروبي الذي انتهجه حزب البعث في تقيـيم طبيعة العلاقة مع إيران فحسب، بل مع نظرة دول الخليج أيضاً التي تخـشى من تنامي الدور الإيراني في الشرق الأوسط، ويبدو أن للتنافس بـين إيـران "الشيعية" والمملكة السعودية "السنية" على الـصعيدين الـسياسي والمـذهبي بصورة خاصة دور في تعميق هذه النظرة، فعلى المستوى الخليجـي أثـارت السياسة الأمريكية الخاطئة في العراق والتي قادت إلى تعاظم الدور الإيرانـي فيه هواجس هذه الدول المتفقة مذهبياً مع سنة العراق، على خلفيـة الميـراث السلبي لكل منها في علاقاتها مع حكومة طهران، كما أن التخوف من انتقـال النفوذ الإيراني المباشر إلى خارج حدود العراق، في ظل إصرار إيران علـى

امتلاك التكنولوجيا النووية دفع الكثير من زعامات هذه الدول للحديث عن الخشية من منطقة نفوذ "شيعية" أو كما سماها العاهل الأردني الملك عبد الله الثاني "منطقة الهلال الشيعي"، ويمكن أن تكون منطقة النفوذ هذه أحد عناصر عدم الاستقرار في هذه الدول التي تقطنها أقليات شيعية ترتبط مذهبياً بإيران.

وتجدر الإشارة هنا إلى أنه وعلى الرغم من الوحدة المذهبية بين شيعة العراق وإيران فإن العلاقة مع إيران تختلف من تيار شيعي إلى آخر، فمن جانب يرى المجلس الأعلى للثورة الإسلامية وحزب الدعوة الإسلامية في إيران صديقاً كونها احتضنت قيادات وزعامات هذين الحزبين في ثمانينيات القرن الماضي، بعد أن وقعوا خلال تلك الفترة تحت طائلة المطاردة والاعتقال من قبل نظام صدام حسين السابق، فكبار المسؤولين في هذين الحزبين اللذين يشكلان أكبر كتلتين شيعيتين في البرلمان العراقي، رفضوا في أكثر من مناسبة الحديث عن الدور الإيراني في العراق، ومن جانب آخر فإن هنالك تيارات شيعية أخرى كالفضيلة والولاء اتهمت إيران علناً بإثارة العنف في العراق ومحاولة زعزعة استقراره، ولذلك فهي تدعو إلى محاربة النفوذ الإيراني في بلاد الرافدين.

السياسة الإيرانية في العراق وأهدافها الاستراتيجية

لم يعد التقارب الأمريكي ـ الإيراني في العراق سراً، فقد أعلن وزير الخارجية الإيراني "كمال خرازي" أن الولايات المتحدة الأمريكية طلبت من طهران مساعدتها في تسوية الأزمة العراقية وقد أرسلت الأخيرة بالفعل وفداً إلى العراق وقام بجهود تهدف إلى التأثير على الشيعة العراقيين باتجاه التهدئة أي في الحقيقة حل الأزمة الأمريكية في العراق، ومنذ الاحتلال الأمريكي للعراق في نيسان ٢٠٠٣م لعبت إيران دوراً انتهازياً في المسألة العراقية،

وسعت بانتظام إلى مقايضة دعمها للمحتلين الأمريكيين بتحسين علاقاتها مع واشنطن.

غير أن السياسة الإيرانية في العراق المحتل لها ثلاثة أهداف استراتيجية تتطابق مع السياسة الأمريكية موضوعياً وتؤسس للتحالف الإيراني - الأمريكي في المنطقة، وهذه الأهداف هي:

١ـ تصنيع الطائفة أي تحويل الشيعة العراقيين من مواطنين إلى طائفة مغلقة، وهو ما يضمن نسبياً تحويلهم إلى امتداد إيراني، وتستخدم إيران في تحقيق هذا الهدف وسائل دينية وإعلامية أي أن وسيلتها الأهم تتمثل بالوجود الأمني الكثيف في جنوب العراق تحت يافطة (المجلس الأعلى للثورة الإسلامية) فيلق بدر، ويشارك قادة هذه الهيئة التابعة للمخابرات الإيرانية في مجلس الحكم سابقاً والحكومات العراقية السابقة، بزعامة إبراهيم الجعفري والحالية بزعامة نوري المالكي والهيئات السياسية الأمنية الأخرى التي أنشأها المحتلون الأمريكيون بينما تقوم ميليشيا بدر بعمليات إرهابية منظمة ضد المواطنين العراقيين الشيعة، مستخدمة كل الوسائل بما فيها القتل والاعتقال وإرهاب المدنيين وترويع ومطاردة الوطنيين العراقيين من التقدميين والقوميين الشيعة، بحيث تتم تصفية كل الخارجين عن مشروع تصنيع الطائفة وتغدق طهران الأموال بكثافة لخدمة هذا المشروع.

٢ـ ضمان عدم نهوض الدولة الوطنية العراقية وهي التي تشكل تهديداً استراتيجياً للنفوذ الإقليمي الفارسي، وتعرقل الأطماع الفارسية في أرض الرافدين، ومما لا شك فيه أن تصنيع الطائفة وتدعيم المشروع السياسي الأمريكي في العراق يصبان في طاحونة تدمير الدولة الوطنية العراقية.

٣ـ ضمان النفوذ الإيراني في بغداد، بحيث يكون لطهران رجالها المؤثرون في الهياكل السياسية العراقية، ولذلك كانت إيران هي الدولة الإسلامية الوحيدة

التي اعترفت رسمياً بـ (مجلس الحكم الانتقالي) الذي أسسه الغزاة، وسقط سياسياً في انتفاضة ربيع بغداد، ولا يريد الإيرانيون من العراق فقط تحقيق أهداف سياسية وأمنية وطائفية فهم يريدون أيضاً المشاركة في نهب العراق. ومايزال العراقيون يذكرون بدهشة كيف أن "عبد العزيز الحكيم" وهو رجل طهران في العراق دعا خلال رئاسته لمجلس الحكم إلى أن يدفع الشعب العراقي مائة مليار دولار تعويضات حرب لإيران.

أهداف إيران الاستراتيجية في العراق

١ـ احتواء شيعة العراق من خلال الأحزاب الموالية لها واستخدامهم كورقة مقايضة في أي استحقاق إقليمي ودولي لتهدئة الوضع أو إثارته في العراق.

٢ـ دعم المرجعية الشيعية والحوزة في النجف تمهيداً للسيطرة على قراراتها ومحاولة تحجيم دورها كي تبقى مرجعية قم هي المرجعية الأولى لشيعة العالم.

٣ـ إيران لديها مشروع نووي طموح ولديها حلم بإعادة الامبراطورية الفارسية والصفوية ولن تتخلى عنها بسهولة؛ لذلك تسعى إيران إلى أن تتخذ من العراق ورقة ضغط سياسة تساوم بها في الساحة الدولية.

٤ـ منع شيعة العراق من توحيد كلمتهم داخل العراق أو بسط سيطرتهم على أبناء الطائفة الشيعية بشكل يهدد السيطرة الإيرانية عليهم.

٥ـ إملاء المقررات الإيرانية على الأحزاب الموالية لها بصورة تؤثر على مجريات الأحداث في الساحة العراقية.

٦ـ خلق تغييرات ديموغرافية على الأرض العراقية بغية تحويل جنوب العراق (خاصة بعد الانسحاب الأمريكي) إلى مقاطعة إيرانية أو إقليم عراقي

تحت الوصاية الإيرانية من خلال تشكيل تجمعات إيرانية في تلك المناطق وتطهيرها من أهل السنة بالاعتقال أو الاغتيال أو التهجير.

٧ـ محاولة اقتراب النظام الإيراني من الإدارة الأمريكية ومحاولة طمأنتها لإكمال المشروع النووي الإيراني ولن يتم ذلك إلا على أرض العراق.

٨ـ السيطرة على المزارات والعتبات للاستفادة من الأموال والخمس المودوعة فيها.

٩ـ تسعى إيران إلى إقناع الأمريكيين بالدور الإيراني (السياسي والأمني في العراق) وهذا ما يشار إليه من توجيه الرئيس الأمريكي سفيره في العراق بالتفاوض مع إيران من أجل ترتيب الوضع في العراق.

١٠ ـ خلق سيطرة إيرانية كافية على أرض العراق تحت مظلة الاحتلال الأمريكي والبريطاني بأدوات دينية المظهر وعلى النموذج الإيراني مما يضمن لإيران الحيلولة دون قيام عراق يهدد إيران.

١١ـ بسط النفوذ الاقتصادي الإيراني في العراق من خلال ما يلي:

أ- تنشيط طبقة قوية من التجار الإيرانيين العائدين إلى العراق وبالأخص بمدينة كربلاء والنجف ومحاولة السيطرة على السوق العراقي.

ب- فتح فروع لبنوك إيرانية تحت عباءة عراقية في مدن عديدة مثل الكوت والبصرة والديوانية.

ج- خلال السنوات الأخيرة وبسبب المقاطعة الدولية للعراق أصبحت حقول النفط العراقية غزيرة بالنفط لذلك تسعى إيران إلى السيطرة على النفط العراقي وذلك من خلال مد ثلاثة أنابيب لنقل النفط، وقد ذكر وزير النفط الإيراني (بيجان زنكنة): "أن العراق سيصدر النفط الخام إلى إيران"، وأضاف زنكنة أيضاً: "إن إيران ستمد أنبوبين لنقل الخام من البصرة إلى المصفاة الإيرانية.

١٢ ـ إنشاء وسائل الإعلام للتمهيد الفكري للمشروع الإيراني، واغتيال العناصر والرموز الشيعية التي تشكل خطراً على المشروع الإيراني في العراق كما حدث لـ "عبدالمجيد الخوني".

لقد أثبتت التطورات الأخيرة في العراق فشل المشروع الأمريكي لتصنيع الطائفية فظهرت بالمقابل وحدة العرب العراقيين تحت راية المقاومة الوطنية وخلال بضعة أيام من انتفاضة الشعب العراقي سقطت الترتيبات الأمنية والسياسية التي ظن المحتلون الأمريكيون أنهم أرسوها خلال سنوات من الاحتلال الصعب.

وهكذا لم يكن أمام إدارة بوش الصغير سوى اللجوء إلى الشريك الإيراني لانقاذ الموقف، فهل ستنجح طهران في مساعيها لوقف الانتفاضة العراقية وإعادة الشيعة إلى بيت الطاعة الأمريكي؟.

تتلخص الإجابة فيما يلي:

١ـ الكتلة الرئيسية من الشيعة العراقيين هي كتلة عربية أصيلة، وتنظر إلى إيران من منظور قومي لا ديني، وقد ثبت ذلك تاريخياً من خلال استبسال هؤلاء في القتال ضد ملالي إيران أثناء الحرب العراقية ـ الإيرانية.

٢ـ من الناحية العقائدية فإن شيعة العراق لا يؤمنون بولاية الفقيه مثلما هو حال التشيع الفارسي، وهذا فارق نوعي سياسي، إذ لا يمكن مع ذلك استنساخ التجربة السياسية الإيرانية في العراق أو إخضاع العراق لولاية الفقيه الإيراني.

٣ـ التشيع في أساسه (مثل التسنن) عربي عراقي وللشيعة العراقيين بل للعراقيين من كل المذاهب والطوائف، مصلحة وطنية في أولوية مرجعية النجف على مرجعية قم.

٤ــ نفوذ إيران بين الشيعة العراقيين محصور بالمجلس الأعلى للثورة الإسلامية وإلى حد ما في جناح حزب الدعوة وعبر وسائل أمنية ومالية ولهم بالطبع صلات مع مرجعية النجف، المستقلة ولكنها ربما تلتقي مع الإيرانيين في السعي إلى صفقة مع الأمريكيين، وبالمقابل فإن تيار الصدر مستقل عن إيران وهو تيار عربي عراقي نشأ داخل العراق ورفض دائماً إقامة صلات إقليمية أو دولية ضد العراق، كذلك فبين الشيعة قوى دينية ديمقراطية ووطنية ويسارية مؤثرة.

والأهم من كل ذلك هو أن انتفاضة الحركة الصدرية هي في النهاية تعبير فئات شعبية مستضعفة ولها مصلحة مباشرة في جلاء المحتلين وإسقاط ترتيباتهم السياسية، والعراق كما أثبتت هو خزان وطني وثوري لن تستطيع المساعي الإيرانية أو سواها لجمه.

الدور الإيراني في العراق بعد الاحتلال

منذ قديم الزمان والعراق يواجه تحديات وأطماع كثيرة من الأعداء وشهد صولات وجولات ونزاعات وحروباً دامية، هؤلاء الأعداء هم على نوعين:

العدو الأول: وهو على نمط الاستعمار البريطاني ويكون عادة عدواً مكشوفاً يستهدف الموقع الجغرافي والاستراتيجي والثروة النفطية وكذلك الموقع السياسي في المنطقة، فهذا هو الاستعمار التقليدي والذي تجد في عام ٢٠٠٣م عندما غزت القوات الأمريكية ــ البريطانية الغاشمة العراق وتم انتهاك سيادته واستقلاله في ممارسة خطيرة حدثت في القرن الحادي والعشرين وفي عالم متحضر يفترض أن احتلال الدول العظمى للصغرى قد انتهى.

والعدو الثاني: هو الأشد عدواة فإنه يستغل الدين والمذهب للوصول إلى أهدافه السياسية في داخل العراق وكانت على مر التأريخ إيران (أو دولة

فارس) هي اللاعب الأساسي في إشغال الساحة العراقية بالفتن والمشاكل المتواصلة.

حقيقة الدور الإيراني في العراق بعد الاحتلال

أثار التصريح الذي نشرته السياسة الكويتية بتاريخ ٢٠٠٦/٣/٣م عن السيد "عبد الله جول" وزير الخارجية التركي تحت عنوان (تركيا تحذر من مخطط إيراني للسيطرة على العراق وتصدير الثورة إلى الخليج) ومن قبله تصريحات وزير الخارجية السعودي سعود الفيصل والمسؤولين الأردنيين عن الخطر الذي يتهدد هوية العراق ومستقبل المنطقة من الطرف الإيراني تساؤلات كثيرة لاسيما أن تلك التصريحات كانت موجهة للأمريكان ومتهمة لهم بأنهم يسعون لتسليم العراق إلى إيران، ولتوضيح الصورة والإجابة على تلك التساؤلات نطرح المحاور الآتية:

المحور الأول: ــ أمريكا وإيران خلاف أم وفاق؟

لا شك أن الذي يتابع مسيرة (الثورة الإسلامية) على يد الخميني والحرب الإعلامية مع الولايات المتحدة الأمريكية وقضية الرهائن الأمريكان الذين احتجزوا من قبل (الطلاب السائرون على خط الإمام) الذي يتابع كل هذا لا شك أنه سيصل إلى أن هناك خلافات جوهرية بين الطرفين ليس من السهولة التقليل من شأنها، إلا أن بعض المراقبين سجل في الاتجاه المعاكس مؤشرات أخرى قد تكون من الناحية العملية أقوى في الدلالة ومن هذه المؤشرات:

١ــ سكوت الإعلام الأمريكي المطبق حول قضية الجزر الثلاث المتنازع عليها بين إيران وبين دولة تصنّف على أنها قريبة من الولايات المتحدة رغم

المطالبات المتكررة لدولة الإمارات العربية من خلال مجلس التعاون الخليجي لاسترداد هذه الجزر!.

٢ــ سكوت الأمريكان عن الوضع المأساوي الذي تعيشه الأقليات الإيرانية مثل السنة والأكراد والعرب والبلوش في ظل (الحكومة الإسلامية) بينما نذكر كيف استغلت هذه المسألة ضد العراق.

٣ــ تعامل الأمريكان مع المعارضة الإيرانية المسلحة (مجاهدي خلق) التي كان لها معسكرات معروفة داخل العراق وبعد دخول الأمريكان اتجهت القوات الأمريكية إلى هذه المعسكرات وحاصرتها وأجبرتها على نزع سلاحها مع أن هذه الميلشيات علمانية التوجه بخلاف الحكومة الإيرانية.

٤ــ تخليص إيران من الجارتين اللدودتين (طالبان) في الشرق و(صدام حسين) في الغرب، نعم ربما تكون هذه فائدة غير مقصودة من قبل الأمريكان ولكن يبقى السؤال: هل كان صدام وطالبان أخطر على المشروع الأمريكي من إيران (الحكومة الإسلامية) ولماذا؟.

٥ــ تعامل الأمريكان مع الأذرع الإيرانية في العراق بعد الاحتلال، حيث لا يخفى أن جل الأحزاب والمنظمات والمليشيات التي تعاونت مع الاحتلال وكانت رأس الرمح في غزو العراق كانت كلها مؤسسة ومدربة في إيران مثل المجلس الأعلى للثورة الإسلامية (عبدالعزيز الحكيم) وجناحه المسلح (فيلق بدر) وحزب الدعوة (إبراهيم الجعفري) وهؤلاء هم عصب النظام العراقي الجديد بعد الاحتلال، وحتى على مستوى المرجعيات الدينية قام الأمريكان بمساعدة الإيرانيين في تهميش كل المراجع الشيعية العراقية مثل: آية الله العظمي فاضل المالكي وآية الله أحمد البغدادي وآية الله جواد الخالصي، وغيرهم كثير وتمّ التعامل حصراً مع آية الله السيستاني، وهو إيراني الجنسية فارسي الأصل لا يمتلك أي وثيقة عراقية، وقد أعلن رفضه

للجنسية العراقية التي منحتها إياه الجمعية الوطنية الحالية التي يسيطر عليها الاتجاه الشيعي الإيراني!، واليوم تعلن الولايات المتحدة وإيران الموافقة على إجراء مفاوضات مباشرة بخصوص العراق استجابة لدعوة المجلس الأعلى وهذا اعتراف صريح بأن إيران هي الفاعل الأقوى في المشهد العراقي، ونسجل هنا اعتراض التيار الصدري الذي يمثل القاعدة الأعرض للتشيع العروبي العراقي على هذه المبادرة كما هو حال هيئة علماء المسلمين وكل القوى العراقية الوطنية.

٦ــ وربما يتشكل على كل هذه المؤشرات الأزمة الأخيرة حول المفاعل النووي، ويمكن الجواب: بأن الأمريكيين يفكرون بالاستفادة من إيران ضمن سقف محدد لا يتعارض على الأقل مع سقف الكيان الصهيوني، وربما لو كان أي نظام عربي آخر يفكر بما تفكر به إيران سيواجه بقوة أشد حتى لو لم يكن إسلامياً، مثل صدام والقذافي.

المحور الثاني: العراق وإيران

لا شك أن حرب الثماني سنوات بين عراق صدام وإيران الخميني، أذكت تاريخاً طويلاً من الصراعات المدبرة تعود إلى أيام الفتح الإسلامي التي لازال الإيرانيون يجاهرون بكراهيتهم لقادة هذا الفتح كما ذكر كتاب "كشف الأسرار للخميني" الذي يتهم فيه عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) بالزندقة، ومن المراقبين من يرجع بهذا الصراع إلى تاريخ نبوخذ نصر الملك العراقي الذي تمكن من أسر أمراء اليهود، وكورش الملك الإيراني مسيح اليهود ومحررهم من العراقيين.

لم يخف الإيرانيون رضاهم بما حصل للعراق على يد الأمريكان ومنهم من أعلن أن العراق ما كان له أن يسقط بيد الأمريكان لولا مساعدة الإيرانيين، فماذا تريد إيران من العراق اليوم؟.

يمكن بهذا الصدد تسجيل الملاحظات الميدانية الآتية:

١ـ تسعى إيران بقوة لتكريس مبدأ الفيدرالية في العراق تحقيقاً لمصلحتها الإقليمية في عراق مفتت ضعيف، والأحزاب الشيعية المرتبطة بإيران هي التي أصرت على هذا المبدأ على الرغم من أنهم يدعون تمثيل الأغلبية الشيعية في العراق، والمتعارف عليه أن الأقليات هي التي تتوجس من الحكومة المركزية القوية ولذلك تلجأ إلى الفيدرالية لحماية ذاتها وخصوصيتها، وعلى هذا فحينما يطالب الأكراد بالفيدرالية تكون مطالبتهم مفهومة، أما أن تطالب الأكثرية بهذا فمعنى ذلك أن هذه الأكثرية إما أنها أكثرية وهمية، أو أنها تعمل لصالح أطراف أخرى.

٢ـ تسعى إيران بقوة ومن خلال التنظيمات الموالية لها أيضاً لتهجير العوائل السنية من بغداد، ومن منطقة المدائن التي فيها "إيوان كسرى" بشكل خاص الذي يذكر بأيام الاحتلال الفارسي للعراق قبل الإسلام، كما أن الحكومة العراقية الحالية لم تخف رغبتها في تغيير محيط بغداد "ذي الأغلبية السنية"؛ حيث صرح موفق الربيعي مستشار الأمن القومي بأن بغداد لا يصح أن تبقى محاطة بالإرهابيين وموفق هذا هو كما يقال "كريم شاهبور" (إيراني الأصول) ولتحقيق هذه الغايات قامت وزارة الداخلية والمليشيات المرتبطة بها بحملات قتل وتعذيب وتشويه للجثث في هذه المناطق ولم يعد الأمر خافياً بعد اكتشاف السجون السرية وفرق الموت، واعترافات مدير مشرحة بغداد الذي أعلن عن وصول أكثر من سبعة آلاف جثة عليها آثار التعذيب وهرب إلى خارج العراق، وكان من المضحك أن تجيب الحكومة رسمياً: بأن هؤلاء الذين

يقومون بهذه الجرائم هم رجال يرتدون ملابس وزارة الداخلية ويستخدمون سيارات وزارة الداخلية لكنهم غير منتسبين فعلاً لهذه الوزارة، تجدر الإشارة إلى أن وزير الداخلية هذا هو "بيان جبر صولاغ " المعروف بأنه أحد قيادي فيلق بدر الذي أشرفت على تأسيسه وتجهيزه المخابرات الإيرانية واعترف بالاشتراك مع القوات الإيرانية في قتالها للعراقيين إبان حرب الثماني سنوات واليوم يفاخر بأنه يعمل جنباً إلى جنب مع القوات الأمريكية في ضرب المقاومة العراقية والمعارك الكبرى التي دارت في الفلوجة والنجف وسامراء.. إلخ شاهدة على ذلك.

٣ـ موقف إيران من المقاومة العراقية: كان يفترض بإيران أن تستثمر المقاومة العراقية لصالحها في صراعها المعلن مع الولايات المتحدة الأمريكية إلا أن الذي يجري على الأرض كان بخلاف هذا تماماً حيث إن الذي يقوم باعتقال أفراد المقاومة أو المشتبه بعلاقته مع المقاومة هم الأذرع الإيرانية المعروفة وحتى خطباء المساجد الذين يحثون الناس على الصمود يتم اعتقالهم وقتلهم بطريقة بشعة، وهناك احصائيات كثيرة في هذا وبعض الذين أفرج عنهم صرحوا أن بعض ضباط التحقيق كانوا يتكلمون الفارسية، وقد يقال إن هذا بدافع طائفي، ولكن الحقيقة أن موقف إيران هذا لم يختلف كثيراً عن موقفها من مقاومة الصدر في النجف وبغداد والبصرة.

حيث اشتركت القوات الموالية لإيران مع القوات الأمريكية في محاصرة الصدر، وبقيت إيران تمارس الضغط على مقتدى الصدر حتى أعلن أخيراً عن انضمامه للمشروع السياسي تحت قائمة الائتلاف التي يقودها "عبدالعزيز الحكيم"، وبهذا يكون موقف إيران من المقاومة لا يقل خطورة عن موقف الأمريكان أنفسهم، إلا أن هناك فارقاً واحداً يضاعف من خطورة إيران ألا وهو أن الاحتلال الأمريكي مدان عربياً وإسلامياً وحتى عالمياً، أما إيران

فإنها تقوم بكل ما تقوم به وهي في وضع مريح جداً حيث إنها أمنت أية ردة فعل عربية أو حتى سنية، وذلك للأسباب الآتية:

١ـ إن الحرب الإعلامية بين إيران وأمريكا والتهديدات التي يطلقها الرئيس الإيراني أحمدي نجاد ضد الكيان الصهيوني جعل من الصعب إدانة الإيرانيين لأن إدانتهم تعني الاصطفاف مع الامبريالية الأمريكية، وبهذا يتم التغاضي بل وعدم الرغبة أصلاً في بحث حقيقة الدور الإيراني في العراق والمنطقة.

٢ـ إن الحركات الإسلامية والواجهات العلمية لا تريد أن تظهر بالمظهر الطائفي وقد ظهر هذا جلياً في الأحداث الأخيرة حيث سارعت تلك الحركات والواجهات بإدانة تفجير مرقد الإمامين علي الهادي والحسن العسكري في سامراء بينما تغاضوا عن هدم مائتي مسجد من مساجد السنة وحرق المصاحف التي تناقلت صورها الكثير من وسائل الإعلام.

٣ـ إن إيران تساعد بعض الحركات المقاومة في فلسطين ولبنان وإن كنا لا ندري حجم هذه المساعدات، لكن من الواضح أن هناك لقاءات رسمية متكررة، ومن هذه الناحية قد يفهم موقف هذه الحركات لكن المفكرين والسياسيين في طول العالم الإسلامي وعرضه عليهم أن يسألوا الإيرانيين عن سر دعمهم لحركات المقاومة في لبنان وفلسطين ومحاربتها للمقاومين في العراق بل وتعظيمها وتمجيدها بالذين تحالفوا مع المحتل الأجنبي حتى صرنا نسمع من الإيرانيين وحتى من بعض اللبنانيين مصطلح "شهيد المحراب" على محمد باقر الحكيم وهو الذي لعب دوراً خطيراً في تسليم العراق للمشروع الصهيوني الأمريكي.

إن هذا التساؤل لن يؤثر على مستقبل الحركات المدعومة من إيران بل ستجد إيران أفضل رد على هذه التساؤلات هو دعمها المباشر لهذه الحركات التي اكتسبت شرعية عامة في الأوساط العربية والإسلامية وبنفس الوقت

تحقق هذه التساؤلات هدفها في الضغط على إيران لتخفيف حملتها ضد العرب السنة والمقاومة بصورة خاصة.

وإذا كان البعض يفضل السكوت مراعاة لمصلحة تلك الحركات من مواجهة العدو المشترك (المشروع الصهيوني الأمريكي) فإن تقارير المقاومة العراقية تؤكد أنه لولا الدور الإيراني المتحالف مع الأمريكان لتمكنت المقاومة العراقية من كسر هذا المشروع مبكراً، ولأعلنت أمريكا عن فشلها في العراق، وهذا بلا شك سيترك تداعيات مفصلية في مستقبل تلك الحركات المقاومة بل والمنطقة والعالم كله.

تعاظم النفوذ الإيراني في العراق

تعاظم الدور الإيراني في العراق، يسير في أكثر من اتجاه، إذ أن الأجندة الإيرانية حافلة بالمشاريع المشاغبة، والتي تصب في مجملها في اتجاه البرنامج النووي، والمتتبعون لسياسة إيران الخارجية لابد أن يلاحظوا أن أهم أسباب تعاظم نفوذها في العراق يأتي بالأساس من دعمها المعلن للأحزاب الشيعية العراقية، وهذا بحد ذاته هدف تأمل إيران في جني ثماره مستقبلاً، ودعمها غير المعلن للجماعات المسلحة التي تفجر وتفخخ السيارات والأجساد بالمدنيين، إذن ثمة فجوة أو ازدواجية في التعاطي الإيراني مع الشأن العراقي، وعلى المتخوفين من تزايد النفوذ الإيراني التفكير بجد في ردم هذه الفجوة خاصة إن ما يقال عن ضلوع الإيرانيين في العنف الطائفي المتبادل في العراق أصبح هناك ما يؤكده على أرض الواقع من معلومات يتداولها العراقيون فيما بينهم، والمعلومات الاستخباراتية الأمريكية، إضافة إلى اعترافات بعض الإرهابيين الذين اعتقلوا في إيران وتمت مساومتهم على العمل في العراق لصالح إيران مقابل إطلاقهم وتخصيص أموال لهم.

من جهة أخرى استطاعت إيران أن تكوّن شبكة لاستخباراتها في العراق، وتوسيع قاعدتها من العملاء للتحكم بالشأن العراقي والعمل على إفشال أو عرقلة المشروع الأمريكي، هناك اتجاه آخر تتبعه إيران لزيادة نفوذها في العراق تساعدها في ذلك دون قصد بعض الدول العربية التي تعلن باستمرار عن تخوفها غير المبرر من ولاء شيعة العراق لإيران، والتشكيك بوطنيتهم وحتى بعروبتهم مما يساهم في دفع غالبية الشيعة إلى الحضن الإيراني وهذا ما تعمل إيران على استثماره جيداً من أجل استقطاب أكثر للشيعة إليها، وتساهم في تضخيم هذا القلق العربي بعض الأحزاب الشيعية التي تعمل ضمن أجندة إيرانية من خلال تصريحات ذات طابع طائفي لبعض قادتها، وتقديم مشاريع يشم منها رائحة انفصالية تزيد من المخاوف لدى بعض الدول المجاورة، إن هذه المشاريع والأفكار التي تتقدم بها هذه الأحزاب لا تمثل رأي الشارع العراقي وعلى الأخص الشيعي منه، ولا يخفى على المتتبع للشأن العراقي إن العنف الدائر في العراق يتم توظيفه من قبل هذه الأحزاب من خلال طرح نفسها كحامي للجماهير، وعلى هذه الجماهير أن تحتشد خلفها.

يبقى على الدول العربية التي تبدي تخوفها أيضاً أن تبدي استعداداً أكبر في الساحة للحد من دوامة العنف الذي أتلف العراق، كما عليها أن تمد جسوراً من الثقة مع الشيعة العراقيين، لأن التشكيك بولائهم للعراق وبعروبتهم يدفعهم أكثر إلى الانسلاخ عن المحيط العربي الذي هو امتدادهم الطبيعي، وأن يتم الفصل بين الأحزاب الشيعية وبين الشيعة كمكون أساسي من مكونات النسيج العراقي.

ثمة مسار آخر أكثر تطوراً يتبعه السياسيون الإيرانيون مؤخراً يتمثل في عرض خبراتهم في محال التقنية النووية على الدول العربية وهذا المسار له

هدفان، **الأول:** هو محاولة لاستقطاب بعض الدول العربية إليها، للخروج من العزلة الدولية التي تعانيها السياسة الإيرانية على الرغم من معرفة إيران المسبقة بعدم تجاوب هذه الدول معها، وأيضاً محاولة إثبات حسن نية في امكانية التعاون الإقليمي، **الهدف الثاني:** هو الإعلان عن ورقة جديدة تضاف إلى أوراقها في الصراع مع أمريكا لزيادة إرباكها في العراق، كما أن هذه الورقة ستصبح متداولة في الكونغرس الأمريكي لتوسيع الفجوة وتعميق الصراع بين الجمهوريين وبين الديمقراطيين وزيادة على ذلك أنها تبدو منتصرة أمام شعبها.

إذاً كيف يمكن وضع حد للتدخل الإيراني في العراق؟

تدرك أمريكا جيداً أن إيران في سباق مع الزمن، في انجاز مشروعها النووي، وإن كل ما تقوم به في العراق ما هو إلا محاولة لكسب الوقت، ومما لا شك فيه أنها تنجح في ذلك المسعى إلى حد كبير، وهو ما يجعل أمريكا في وضع حرج، ليس أمام أمريكا الآن سوى خيارين، من أجل إخماد دوامة العنف في العراق، والتفرغ إلى مشروعها في إعمار العراق كما تعلن دائماً:

الخيار الأول: هو ترك إيران تنفذ برنامجها النووي، وهو ما تريده إيران كهدف تعتبره مصيري، لكف يدها عن التدخل في العراق، وذلك أمر من الصعب على أمريكا الإقرار به.

الخيار الثاني: هو أن تطلق اليد العراقية في ضرب الجماعات المسلحة في العراق، بالطريقة التي تراها مناسبة مع توفير الدعم والإسناد اللازم لذلك، ومراقبة الحدود العراقية بشكل دقيق أو حتى إغلاقها، وطرد كل تمثيل دبلوماسي أو غير دبلوماسي لإيران من العراق، سيسهم ذلك في الحد من تسرب الإرهابيين والسلاح والذخيرة إلى العراق.

وأحسب أن الخيار الثاني مازال في المتناول وله مبرراته في الشارع العراقي خصوصاً أن ذلك ما يفكر فيه الكثير من العراقيين، وكان قد سبقهم إلى ذلك بعض ساستهم.

وأخيراً

فإذا كانت نتيجة هذه المواقف للجارة الكبرى إيران ستكون باتجاه تسليم العراق للمشروع الصهيوني الأمريكي أو انتزاع العراق من حضنه العربي لصالح الامبراطورية الإيرانية الكبرى أو تقاسم الكعكة، فلأمريكا النفط ولإيران الهوية فإن الخاسر الأكبر هو الأمة العربية والإسلامية.

إن المطلوب من الأمة اليوم هو أن لا تدس رأسها في الرمال بدوافع عاطفية أو مصلحية ضيقة، بل عليها أن تبحث عن الحقيقة كما هي لاتخاذ الموقف الصحيح، وربما تكون هذه المواقف أوراق ضغط مناسبة لإجبار الإيرانيين على التراجع والاصطلاح مع المشروع الكبير للأمة في حين أن السكوت واتخاذ المواقف الخجولة والمترددة قد يغري إيران بالاستمرار في طريقها هذا بحيث يصعب عليها فيما بعد مجرد التفكير بالتراجع أو التعديل.

حوار الأديان... ضرورة ولكن!

د. وصال نجيب العزاوي[1]

رغم إقامة مؤتمرات عديدة تحت مسمى (حوار الأديان) في السنوات الأخيرة بهدف الوصول إلى نتائج ملموسة وتحقيق تواصل حضاري وتعايش سلمي بين الغرب والعالم الإسلامي.. فإن هذا الحوار لم يحقق الأهداف المرجوة منه.

وهذا ما ظهر واضحاً بعد أحداث ١١ أيلول ٢٠٠١م وضرب أفغانستان والتربص بدول إسلامية أخرى والحملات المعادية التي تتصاعد ضد الإسلام في الغرب.

وظهرت دعوات تطالب بضرورة تطوير الخطاب الديني باعتباره مطلباً إسلامياً بهدف تحسين صورة الإسلام فى الغرب بشرط أن يكون التطوير والتحسين من داخل العالم الإسلامي، بالمقابل طالبوا الغربيين بمواقف أكثر

[1] عميدة كلية العلوم السياسية/ جامعة النهرين سابقاً.

موضوعية وإنصافاً فى التعامل مع الإسلام إذا كانوا بالفعل جادين فى تحقيق حوار بنّاء مع العالم الإسلامي.

بينما يرى علماء الإسلام أن فشل حوار الأديان وعدم نجاحه في تغيير الصورة المتوارثة عن الإسلام في الغرب هو نتيجة طبيعية لعدم جدية الحوار وعدم الاعتماد على المنهج العلمي، واستغلال الجانب الغربي هذا الحوار لتحقيق أغراض سياسية، فضلاً عن أن من يشاركون من الجانب الإسلامي ليسوا على المستوى المطلوب من الإلمام بالثقافة وباللغة الأجنبية وبطبيعة الطرف الآخر وثقافته.. علاوة على وجود منظمات غربية صهيونية تحاول دائماً إفشال حوار الأديان.

وتحاول هذه الورقة المتواضعة أن تجيب على التساؤل التالي: ماذا يعنى الحوار وما جدواه؟... وكيف السبيل للتواصل؟.

أولاً: في معنى الحوار

ننظر في كلمة (حوار) ونستعين بالمعاجم في تحديد معناها، فنجد إنها من (الحَوَر) وهو (الرجوع عن الشيء، وإلى الشيء)، و(حار حِواراً) إلى الشيء (رجع عنه وإليه)، وما رجع إلى المرء حين يكلم آخر هو (حَوار) (بفتح الحاء وكسرها) و(محاورة وحوير ومحورة) أي (جواب)، وأحار عليه جوابه أي رده.. ويقال (سمعت حويرهما وحوارهما) والمحاورة هي المجاوبة والتجاور هو التجاوب.. وهم يتحاورون أي يتراجعون في الكلام، والمحاورة هي مراجعة المنطق والكلام في المخاطبة.

(الحوار) إذن (عملية) تتم بين اثنين أو أكثر.. وهى تتضمن حين تجرى بين اثنين (طرحاً) من أحدهما بتمثله الآخر و(يجيب عليه، فيحدث (تجاوب) يولد عند كل منهما (مراجعة) لما طرحه من كلام ومنطق حكم هذا الكلام)..

وقد تـثمر هذه المراجعة طرحاً ثانياً يتبعه تجاوب ومراجعة فتكون (مـرادة في الكلام)، فهذه المرادة هي المحاورة والحوار عنـد الأصـبهاني صـاحب (المفردات في غريب القرآن).. وقد ورد في القرآن الكريم الفعل المـضارع (يحاوره) مرتين في سورة الكهف في قـصة (صـاحب الجنتـين)، قـال تعالى:﴿ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴾[1]، و(تحاوركما) في سورة المجادلة، قـال تعـالى:﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾[2].

تتعدد أطراف (عملية) الحوار حين يجرى بين أكثر مـن اثنـين فيتلقـى (الطرح) أكثر من (جواب) وتتسع دائرة (التجاوب) و(المراجعة) و(المـرادة) وتثمر طروحاً أخرى تصل بهذه الأطراف إلى أجوبة أخرى.. وقد تنتهي بهم إلى الاتفاق أو إلى اطمئنان كل منهم لما توصل إليه.

إذن الحوار هو (حديث) يتضمن (طرح) أفكـار والطـرح لغـة الإلقـاء بعيداً.. وطرح عليه مسألة يعني ألقاها، ومنها اشـتقت (الأطروحـة) وهـي المسألة التي تطرح، و(المطارحة) وعملية الحوار تشهد مطارحة أفكار، وهي تتضمن (محادثة)، لأن الحديث هو كل كلام يبلغ الإنسان من جهة الـسمع أو الوحي في اليقظة أو المنام[3].

ونشير أخيراً إلى ما تتميز به كلمة (حوار) من جرس موسـيقي يـوحي بوجود مراجعة وتفاعـل إيجابي.

---

(1) سورة الكهف/ الآية (٣٧).

(2) سورة المجادلة/ الآية (١).

(3) د. أحمد صدقي الدجاني، الحوار.. الحوار ما أحوجنا إليه!، مجلة العربي، العدد (٣١٣) كـانون الأول ١٩٨٤م، ص٩٣ــ٩٤٠.

ثانياً: حوار الأديان: مطلب إسلامي[1]

إن الحوار بين الأفراد أو المجموعات أو الأمم على مسائل دينية أو فكرية أو فلسفية يمثل ظاهرة قد يكون عمرها من عمر الإنسانية.. وإن الإسلام منذ بداية ظهوره يرحب بالحوار حيث كان الرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم) يحاور المشركين والمنافقين في مكة، واليهود والمسيحيين في مرحلة العهد المدني.. والرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم) انطلاقاً من الحوار كان له حوار مكتوب في شكل الرسائل التي أرسل بها إلى الملوك ورؤساء العالم على عصره يعرفهم فيها بنفسه باعتباره نبياً ومرسلاً.

والقرآن الكريم فيه من أمثلة كثيرة على الحوار بين الأنبياء وأقوامهم كما إن الحوار من الألفاظ القرآنية الموجودة في كثير من الآيات، مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾[2]، وفي مثل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾[3].

إذن الحوار ليس غريباً على الإسلام منذ بداية نزول الرسالة، وهو وسيلة من وسائل التعريف بالإسلام ونشر الدعوة.. وفي العصور التالية من عصر النبوة، ففي عصر الدولة الأموية والعباسية كان الحوار يعتبر وسيلة أيضاً لمخاطبة الآخر والاعتراف به وتقويم ما عنده.. وفي العصر الحديث ظهرت الدعوة إلى الحوار بطريقة أوسع سواء في شبه القارة الهندية أثناء الاحتلال

---

[1] ينظر لمزيد من التفاصيل ندوة (لماذا فشلت مؤتمرات حوار الأديان في تغيير مواقف الغرب من الإسلام)، صحيفة الخليج (الإماراتية) العدد (٨٣١٤)، ٢٠٠٢/٢/٢٢م، صـ١٤.

[2] سورة آل عمران/ الآية (٦٤).

[3] سورة آل عمران/ الآية (٦٥).

البريطاني أو في مصر خلال فترة الاحتلال وما تلاها، وظهرت حوارات على المستوى الرسمي في كل من مصر وليبيا والسودان والسعودية.

ثالثاً:ضوابط مطلوبة

تضمن القرآن الكريم سورتان كاملتان تجسدان طبيعة الحوار بين الإسلام والأديان الأخرى من حيث الأهداف والمقاصد ومن حيث المنهج والأسلوب.. فالأديان في نظر الإسلام أصلها واحد لقوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾[1].

فرسالات السماء كلها تدعو إلى التوحيد وتكريم الرسل واحترام الأخلاق الفاضلة والنهي عن الرذائل.. لذلك إذا كان حوار الأديان في جانب (العقيدة فلا حوار) لأن الحق واضح ونصوص القرآن واضحة، وإذا كان في جانب العبادات فهي مختلفة.. وإذا كان في جانب الأخلاق فهي معروفة لكل عاقل ولا تحتاج إلى حوار مثل الصدق والأمانة والوفاء وغيرها.. لكن نتيجة هذا الحوار وما يترتب عليه من قبول أو رفض لا يتوقف بالضرورة على طبيعة البرهان ولا أسلوب الحوار بقدر ما يتوقف على الطرف الآخر، وهل هو قابل للحق باحث عنه، قاصد إليه.. أم هو معاند مكابر، رافض للآخر مسبقاً، مقتنع بما تحت يديه من أنه الحق الذي لا مرية فيه وأن الآخر على ضلال وبهتان؟، وهذا هو مفصل الخطاب في هذه القضية.

والسؤال المطروح هنا: هل كل طرف يعترف بالآخر؟ أم أن المسلمين فقط هم الذين يقدرون للآخر قدره، وبالتالي يقدمون ما عندهم من حقائق

---

[1] سورى الشورى/ الآية (١٣).

يقينية في أسلوب علمي؟.. لكن الطرف الآخر يتبنى مسبقاً موقف الرفض، وموقف الاستعلاء والعناد، فيكون بالتالي رافضاً لأي حق يقدم إليه، متعالياً على المحاور، وهذا من أخطر ما يسد أبواب الاقتناع.

إن الحوار بين الأديان الذي تمّ في القرن العشرين – وقد يأخذ مسميات مختلفة – لم يكن به الطرف المسلم يهدف إقناع الطرف الآخر (الغرب) أن يترك دينه ويعتنق الإسلام.. وإنما فقط ليبين له أن الإسلام لا يرفض الآخر ولا يُكرهه على تغيير عقيدته، ويقدم له الحقيقة الإسلامية الناصعة التي جسّدها القرآن الكريم في الآيتين التاليتين، قال تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ﴾[1]، وقال تعالى أيضاً مخاطباً غير المسلمين عموماً: ﴿لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ﴾[2]، فإن هاتين الحقيقتين توضحان للآخر أن مطلب الحوار هو حسن الجوار وحسن التعامل، وأن يعترف كل منا بالآخر، لا أن يتعالى عليه بما يملك من أدوات العصر ومستحدثاته ويجعل من تفوقه العلمي والتقني دليلاً على صدق ما معه، وكذب ما مع الآخر، وهذا بعيد عن المنهج العلمي.

رابعاً: صراع أم حوار

بعد ظهور فكرة صِدام أو صراع الحضارات[3] خلال العقدين الأخيرين اتجه العالم الإسلامي والعربي تحديداً والمصلحون في أوربا إلى المناداة بحوار الأديان وليس صراع الأديان وأنواع الثقافات المختلفة التي تسود

---

[1] سورة البقرة/ الآية (٢٥٦).

[2] سورة الكافرون/ الآية (٦).

[3] ينظر عن هذا المفهوم :صموئيل هنتنيغتون، صِدام الحضارات، بيروت، مركز الدراسات الاستراتيجية والبحوث والتوثيق، ١٩٩٥م.

العالم، فبرز ما يسمى بحوار الحضارات وحوار الأديان وحوار الثقافات باختلاف وجهات النظر في تحديد مفهوم الثقافة والحضارة، فمنهم من يجعلها واحدة، باعتبار أن الثقافة هي الجانب الفكري والحضارة هي الجانب العملي الكلي، فنشطت حركة الحوار في أوربا وأمريكا والعالم الإسلامي والعربي بحيث لا يكاد يخلو يوم من مقال أو ندوة أو مؤتمر يعقد للحوار سواء على المستوى الرسمي أو الشعبي أو المستوى العلمي الأكاديمي في الجامعات[1].. وقد عقدت عدة لجان للحوار بالمؤسسات الرسمية أو السياسية منها الأزهر والمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية والجامعة العربية، وقد تزايد الحديث عن التواصل الحضاري وحوار الحضارات بعد أحداث ١١/ أيلول ورغم هذه الحوارات لم نلاحظ أي تأثير يذكر على القرار السياسي لصناع القرار في أمريكا والغرب، ولم تستطع هذه الحوارات على كثرتها أن تعدل من وضع الصورة عن الإسلام في الغرب أو تقلل من حدة الإعلام الغربي وشراسته ضد المسلمين.. فما زالت حملة التشويه قوية وما زال الإسلام بالنسبة للغرب يقف وراء القضبان ويقاضى، وغالباً ما تصدر ضده الأحكام بدون إنصاف أو حتى بدون تفكير في طبيعة الحكم.

والسؤال المطروح: لماذا فشلت مؤتمرات حوار الأديان في تغيير مواقف الغرب من الإسلام؟ وهل نتوقف عند هذا الحد؟... الإجابة: أن المسلم ينبغي ألا يتوقف عن الحوار، فالدعوة في الأساس بلاغ وتوصيل رسالة.

والحوار من الوسائل الفعالة في توصيل رسالة الإسلام، وهناك فراغ فكري في أمريكا والغرب ينبغي على المسلمين المؤهلين دينياً وفكرياً أن

---

[1] ينظر حول ذلك: فخري لبيب (محرر)، صراع الحضارات أم حوار الثقافات: أوراق ومداخلات المؤتمر القومي الذي نظمته منظمة تضامن الشعوب الآسيوية والأفريقية، القاهرة: منظمة تضامن الشعوب الآسيوية والأفريقية، ١٩٩٧م.

يملؤه، فلا يجب أن نكف عن الحوار مهما كانت نتائجه لأن الإسلام يـرفض اليأس من إصلاح النفس البشرية.

أما أسباب عدم التوصل إلى نتائج مطمئنة ومشجعة في مسألة حوار الأديان فإنها تتمثل في:

١- إن ثوابت السياسة الغربية والأمريكية لا تزال قلقة تجاه الإسلام، وبعيدة إلى حد كبير عن الإنصاف في التعامل مع المسلمين وفى النظر إلى قضاياهم السياسية العادلة.

٢- تسميم الرأي العام الغربي بسبب التسلط الإعلامي غير المنصف أو العدائي المسيطر على عقول الغربيين.

٣- وجود منظمات لها تاريخ طويل وخبرات عميقة وتمويلات هائلة داخل المجتمعات الغربية تلون القرار والإعلام الغربي باللون الذي تريده، ونعني المنظمات الصهيونية تحديداً.

٤- عدم كفاية ما نقوم به نحن المسلمين من جهود في صدد هذا الإعلام وتوضيح صورة الإسلام.

٥- ليس عندنا مشروع قومي إسلامي يناسب تلك الحملات الشرسة والأجهزة المدعومة بأحدث أدوات التكنولوجيا وبالتمويل.

٦- إن ما جرى خلال السنوات الأخيرة من لقاءات حوار الأديان لا تمثل القواعد الأساسية التي اتبعها رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في مسألة الحوار.. هذه القواعد يتصل أولها بالعقيدة وثانيها يتصل بالتعاون.. فيما يتصل بالعقيدة ومحاولة الوصول إلى الحق بدأ على يد الرسول (صلى الله عليه وسلم) حينما ناقش وفد نصارى نجران ونزل فيها: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ

اللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾[1]، كما ذكر القرآن حوارات اليهود والوثنية وكل أصحاب العقائد، واستمر المسلمون في هذه الحوارات، وألفّ العلماء كتباً كثيرة في ذلك، أشهرها قدماً (الفصل في الملل والأهواء والنحل) للإمام ابن حزم.. أما فيما يتعلق بالجانب الثاني وهو التعاون من أجل نصرة المظلوم والوقوف في وجه الظالم ورد العدوان وإعطاء كل ذي حق حقه فهذا أيضاً بدأ على يد الرسول (صلى الله عليه وسلم) عندما حضر حلف الفضول قبل البعثة في دار عبد الله بن جدعان فاجتمع الناس من أجل نصرة المظلوم وتحدث الرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم) عن ذلك فيما بعد فقال "لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفاً ما أحب أن لي به حمر النعم ولو دعيت إليه في الإسلام لأجبت"[2]، فتلك رسالتنا وبضاعتنا، ولكن ما يجري حالياً لا يمثل أي جانب من هذين الجانبين فهو لا يبحث في العقائد ولا ينصر المظلوم، بل أصبحت اجتماعات للعرض والإعلام فقط.. بل إنها أصبحت مكيدة للإسلام والمسلمين ويتخذها الطرف الآخر وسيلة للتغلغل في الأوساط الإسلامية وطرح أفكاره والسيطرة بأساليبه الخبيثة، ولم يستفد المسلمون شيئاً من هذا الحوار إطلاقاً، حتى في القضايا الإسلامية المطروحة على الساحة العالمية لم نسمع فيها كلمة حق من جانب هؤلاء المحاورين.

ونذكر على سبيل المثال أن (بابا الفاتيكان) سبق وأن اعتذر لليهود عن المذابح التي أقامها هتلر والغرب أثناء الحرب العالمية الثانية، في نفس الوقت رفض هذا البابا الاعتذار للمسلمين عن الحروب الصليبية.

---

[1] سورة آل عمران/ الآية (٥٩).

[2] رواه البخاري في "الأدب المفرد" (٥٦٧) و ابن حبان (٢٠٦٢).

خامساً:ما العمل؟ وما جدوى الحوار؟

إن الحوار بين المسلمين وبين الغرب لم ولن يثمر نتائج طيبة طالما أن مقومات هذا الحوار غائبة، والتي تتمثل في المشاركة في الحوار والظروف التي يخضع لها كل حوار، فضلاً عن الجو العدائي المتواصل في الغرب والذي تغذيه وسائل الإعلام الغربية بصورة مستمرة.. وقد قرأنا لكبار المسؤولين الأوربيين والأمريكيين من يحرض على الإسلام والمسلمين ويحيي نعرات الحروب الصليبية القديمة.. إذن ما العمل؟.

١- الحقيقة التي يجب أن ندركها جيداً هي إن تحسين صورة الإسلام في الغرب يبدأ من داخل العالم الإسلامي وهذا أمر لا خلاف عليه، ويجب أن نعترف بشجاعة بأن المفاهيم الخاطئة التي لا تزال عالقة بأذهان بعض المسلمين تستغل استغلالاً سيئاً من جانب الغرب وتتخذ وسيلة لتشويه صورة الإسلام وصد الغربيين عنه أو دفعهم لاتخاذ مواقف عدائية تجاهه.

لكن هذا لا يعفي الغرب بكل مؤسساته الإعلامية والسياسية والثقافية والعلمية والدينية من المسؤولية، حيث لا يجوز أن نتخذ من سلوكيات بعض الأفراد أو الجماعات وسيلة لتشويه صورة دين سماوي خاتم، فالحكم على الإسلام يكون من خلال تشريعاته وتعاليمه الثابتة في كتاب الله وسنة رسوله الكريم (صلى الله عليه وسلم).. من هنا فإن الغرب مطالب بإثبات حسن النية في التعامل مع الإسلام، وهذا لن يتحقق إلا من خلال جهود ملموسة لتصحيح المعلومات والمفاهيم الخاطئة عن الإسلام والتي يتوارثها الغربيون جيلاً بعد جيل، وتعد عقبة حقيقية في تحقيق تفاهم حقيقي بين الغرب والعالم الإسلامي.

٢- يجب أن يغير الغرب استراتيجيته في التعامل مع الإسلام وأن يتخلى عن معتقداته السياسية الخاطئة والتي تصور له الإسلام على إنه العدو البديل

للشيوعية، فالإسلام دين وسطية واعتدال ورحمة وتسامح وهو دين يدعو إلى التعاون والتواصل مع الآخرين.

٣- إن الإرهاب الذي يخشاه الغرب ويخشاه المسلمون أيضاً لاعلاقة له بالإسلام من قريب ولا بعيد إلا في أذهان المتعصبين والعنصريين الغربيين، لذلك يجب أن يتوقف الإعلام الغربي عن ترديد اصطلاح (الإرهاب الإسلامي).. والحقيقة تقال أن ما يحدث في العراق وفلسطين وأفغانستان من عدوان وقتل للأبرياء هو الإرهاب بكل ما تحمله الكلمة من معنى.. وهو مرفوض ومدان من كل الشرائع السماوية.

٤- وقبل ذلك كله، ضرورة مراجعة وتطوير الخطاب الديني، فتطويره من أبرز مطالب علماء ومفكري الأمة منذ سنوات طويلة.. فالأمر ليس مرتبطاً بأحداث الحادي عشر من أيلول في أمريكا وتداعياتها التي ضاعفت من حدة التوتر في علاقة الغرب بالعالم الإسلامي، فتحسين الخطاب الديني (إسلامي أو مسيحي) مطلب داخلي قبل أن يكون مطلباً خارجياً؛ لأن إزالة التوتر والتعصب مطلوب من المسيحيين كما هو مطلوب من المسلمين... وأخيراً وليس آخراً نقول إن بحث وسائل تطوير الخطاب الإسلامي لا تعني بأي حال من الأحوال إضفاء الشرعية على مواقف أو سلوكيات مخالفة، ولا تعني إطلاقاً التخلي عن الثوابت الإسلامية التي تفرض على المسلمين القيام بواجب الدعوة إلى الإسلام فى كل الظروف والأحوال وبذل النفس والمال دفاعاً عن الدين والوطن والكرامة وكما حددها لنا رب العزة والمنصوص عليها في قوله سبحانه: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ﴾[1].

---

[1] سورة النحل/ الآية (١٢٥).

قراءة في القضية العراقية المعاصرة

من وجهة نظر رئيس الوزراء الماليزي الأسبق محاضير محمد

د.أحمد الجنابي[1]

البطاقة الشخصية لمحاضير محمد

من مواليد عام ١٩٢٥م، انضم إلى منظمة الملايو الوطنية المتحدة عام ١٩٤٦م، وقام بدراسة الشؤون الدولية بجامعة هارفارد بالولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٦٧م، ودرس الطب وتخرج طبيباً في عام ١٩٧٤م، ودرس –أيضاً– الصحافة بالمراسلة، بدأ حياته المهنية كضابط طبيب بسلاح الخدمات الطبية، وبقي يمارس عمله في عيادته الخاصة في الفترة بين عام ١٩٥٧م وحتى عام ١٩٦٢م، ليشغل بعد ذلك منصب رئيس مجلس التعليم العالي الأول ثم رئيس مجلس الجامعة الوطنية، وحول العمل السياسي فقد بدأ محاضير مشواره بمنصب مندوب ماليزيا بالأمم المتحدة ١٩٦٣م، ثم عمل بعد ذلك عضو برلمان عن منطقته في الفترة بين عام ١٩٦٤، وحتى عام ١٩٦٩م، ليشغل منصب عضو المجلس الأعلى لتنظيم اتحاد الملايو الوطني إلا أنه طُرد من التنظيم لخرق مبادئ الحزب؛ ولكنه عاد للحياة السياسية بقوة حيث أصبح عضواً في مجلس الشيوخ في عام ١٩٧٣م، ثم انتخب محاضير

---

[1] باحث عراقي أكاديمي في جامعة ملايا – ماليزيا.

عضواً بالبرلمان مرة أخرى في عام ١٩٧٤م، وأعيد انتخابه في عام ١٩٧٨م، وشغل منصب وزير التربية والتعليم بالإضافة إلى منصبه كنائب رئيس تنظيم اتحاد الملايو الوطني، ثم شغل منصب نائب رئيس الوزراء ووزير التجارة والصناعة خلال الفترة (١٩٧٨- ١٩٨١م)، وينجح محاضير في الفوز بمنصب رئيس تنظيم اتحاد الملايو الوطني ليشغل منصب رئيس وزراء ماليزيا الرابع في المدة من ١٩٨١م – ٢٠٠٣م، وخلالها وضع خطة لبلاده وسار عليها لتصبح بحلول عام ٢٠٢٠م بلداً على درجة عالية من التقدم، يعد محاضير محمد رئيس وزراء ماليزيا السابق من أعظم القادة السياسيين والاقتصاديين في آسيا، استطاع تغيير وجه ماليزيا وتمكن من أن ينهض بها تنموياً ويجعلها في مصاف الدول الاقتصادية المتقدمة، حيث تمكن من الانتقال بها من مجرد دولة زراعية تعتمد على تصدير السلع البسيطة إلى دولة صناعية متقدمة، فأصبح الفكر التنموي للزعيم الماليزي محاضير محمد مثلاً يحتذي به العديد من القادة والسياسيين والاقتصاديين في جميع أنحاء العالم، جاء في وصفه: (الرجل العاقل في زمن الجنون، ناجح بلا حدود، قصة المعجزة الماليزية، النمر الآسيوي، رجل الفكر والإنجاز).

مواقفه من القضية العراقية المعاصرة

حضيت قضية العراق المعاصرة في الفكر المحاضيري باهتمام بالغ، فقد واكب هذه القضية سياسياً وبشكل دائم، وهذا الاهتمام إن دلّ على شيء فإنما يدل على عالميته البشرية ورؤيته الإسلامية الشمولية، وطيب علاقاته بهذا البلد العربي المسلم وأهله، ولم يغب عن باله من أن هذه القضية بالذات قضية مصيرية ولها علاقات بالوضع السياسي والاقتصادي في المنطقة خصوصاً والعالم الإسلامي عموماً، فتبرع مدافعاً عن العراق ومحامياً له في مواجهة

التحديات الخارجية التي تعصف به، ولم ينفك ذكر العراق من على لسانه في المحافل الدولية والإقليمية والتصريحات الرسمية بشأنه، وتقديم الحلول والرؤى المساعدة والمساندة لهذا البلد للخروج من أزماته، وهذا كله يحسب لهذا الرجل في وقت سكتت فيه أفواه وألجمت أصوات حول هذا البلد وقضاياه.

ومما يميز موقفه موضوع الديمومة فيه، فهو على مدى سنوات طويلة في اللهجة الشديدة نفسها في انتقاد الحرب وما سبقها من حصار وما تبعها من ويلات، ولذلك وصفه بعض المحللين بأنه: (كان الضمير العالمي المعبر عن القضية العراقية)[1]، ولكي نستوعب هذا الموضوع لابد من تقسيمه على محطات بحسب الأحداث في قضية العراق المعاصرة لنقرأ المواقف على ضوئها، وبالتالي تتضح لدينا الرؤية الكاملة لهذا الموضوع تحديداً.

أولاً: مواقفه قبل الحرب على العراق

موقفه من الحصار قبل الحرب

كان الدكتور محاضير من المتابعين لتداعيات الحرب على العراق فرأى أنّ هذه الحرب المسبوقة بحصار ظالم غير متكافأة، ووصف الأمم المتحدة بـ(العمى) عما يحدث في العراق في استمرار قوة عظمى واحدة في صراع طويل ضد هذا البلد، وإطلاق القذائف الصاروخية على أهداف بعيدة داخل العراق لكي تركع القيادة العراقية دون مراعاة لمعاناة الشعب العراقي

---

[1] الدكتور محاضير بن محمد بعيون عربية وإسلامية، عبد الرحيم عبد الواحد، ماليزيا، ط/ الأولى ٢٠٠٣م: ص ١٣٥.

المحاصر[1]، فاستنكر العقوبات الاقتصادية والحصار المفروض على (شـعب) العراق والقيود على المدنيين والأطفال والكبار والمرضـى والنـساء طـوال سنوات من المعاناة بحجة أن قائد الشعب غير محبوب لدى الغـرب، فركـزّ حديثه على أذية هذا الشعب وأنه هو المستهدف واستدل على ذلك متعجباً بأن الحملة العسكرية كان بمقدورها أن تأسر زعيم العـراق وتعتقلـه لكنهـا لـم تفعل[2]!.

توقعاته للحرب وموقفه منها

كان الدكتور محاضير من المتوقعين لهذه الحرب قبل وقوعها حيث جـاء في كلمته التي ألقاها بالجلسة الغير عادية للقمة الإسلامية في الدوحة بتـاريخ ٥/ مارس- آذار/ ٢٠٠٣م فقال: (إنَّ الهجوم على العـراق واقـع لا محالـة بموافقة أو دون موافقة الأمم المتحدة ما لم تحدث معجـزة)[3]، ودعـا القـادة العرب والمسلمين قائلاً: (علينا نحن قادة منظمة المؤتمر الإسلامي أن نـساعد على حدوث هذه المعجزة بوقوفنا ضد الحرب على العراق)[4].

مناقشته لمبررات الحرب

ناقش محاضير مبررات الغزو الأمريكي لهذا البلد، فإذا كانت الحجة اجتيـاح العراق للكويت فهو لا يتفق مع مبررات العراق وقال: (ربما يكـون للعـراق

---

(1) موسوعة الدكتور محاضير بن محمد - رئيس وزراء ماليزيـا الـسابق-، دار الفكـر، كوالالمبـور، ط/الأولى، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م: ٨/ ١٣٨.

(2) المصدر نفسه: ١/ ٨٦.

(3) المصدر نفسه: ١٠/ ٩.

(4) المصدر نفسه.

إدعاء تاريخي، لكن بالتأكيد على العراق أن يقبل بالكويت دولة مستقلة)[1]، وفي الوقت نفسه لا يتفق – أيضاً- مع مبرر تدخل أمريكا وحلفائها في العراق بسبب هذه الحجة، وضرب مثلاً في اتخاذ الغرب لنفسه ألف عذر وعذر في عدم تدخله في قضية الصرب عندما قتلوا المسلمين، ولم يقفوا ضدهم، ولم يتخذوا اجراءات بحقهم، فكذلك عليهم التعامل مع هذه القضية من باب العدالة الدولية إزاء مواقفهم؛ إلا أنه حلل هذا التدخل بأنه: (حماية للنفط وليس حماية للكويتيين)[2]، ووصف تصرف الغرب بأنه: (تدخل في شؤون بلد مستقل)[3].

واذا كانت الحجة في الحرب على العراق هي نشاطات العراق (الإجرامية) – بحسب تعبيرهم –، فقد كشف محاضير في تساؤله عن سبب عدم نشر استقالة ضباط الأمم المتحدة المكلفين بمراقبة نشاطات العراق وعدم تغطيتها إعلامياً بالشكل المطلوب لأولئك النفر الذين أدانوا البربرية ضد ذلك البلد[4]؟.

وإذا كانت الحجة أحداث الحادي عشر من سبتمبر فرأى أن هذا معيار مزدوج للغرب فإذا ذكروا لنا من مات أو تضرر في نيويورك فربط لهم بين من مات جوعاً في العراق أو من نقص الرعاية الطبية[5].

واعتبر موضوع أسلحة الدمار الشامل أكذوبة أمريكية من أجل تبرير شن حرب على العراق، ومع الافتقار لدليل والاستناد إلى شبهات كان عليهم أن

---

[1] موسوعة الدكتور محاضير بن محمد – رئيس وزراء ماليزيا السابق-، دار الفكر، كوالالمبور، ط/الأولى، ١٤٢٤هـ – ٢٠٠٤م: ١ / ٨٦.

[2] المصدر نفسه: ١ / ٣١٦.

[3] المصدر نفسه: ٣ / ٣٥.

[4] المصدر نفسه: ١ / ٣١٦

[5] المصدر نفسه: ١٠/ ٣١.

يعطوا الفرصة للدكتور هانز بليكس[1] للقيام بتحقيق شامل، ودعا الشعب العراقي إلى تحرك قانوني ضد الولايات المتحدة عبر الأمم المتحدة أو أي منظمة دولية لمحاكمتهم عن أضرارهم بسبب هذه الأكذوبة[2].

واشتد نكير محاضير الحرب على العراق لأنها جاءت من أناس يتحدثون دوماً عن حقوق الإنسان هذه من وجهة نظر إنسانية، ومن وجهة نظر دينية اعتبر محاضير أن سياسة أمريكا في حربها على العراق إنما تعد حرباً على المسلمين[3].

وأكد موضوع الحرب على المسلمين في استهداف العراق باستدلاله على موضوع أسلحة الدمار الشامل الآنفة الذكر، فرأى أن السياسة الغربية تكيل بمكيالين في هذا الموضوع فالاتهام موجه إلى كوريا الشمالية والعراق، فاستغرب من الضغط الدولي والتحرك العسكري على العراق فقط!، مع إن كوريا وبتصريحات صدرت من بيونج يانج أنها تمتلك أسلحة دمار شامل؛ لكن لم تكن ردود الأفعال حولها مثلما الذي جرى في العراق؛ بل لم يتعد الأمر سوى تحذيرات لها، فلماذا العراق هكذا إذن؟[4].

وكل هذه المبررات للغزو وغيرها والحجج التي ساقتها الولايات المتحدة الأمريكية وحلفائها لضرب العراق كانت من الهشاشة بمكان عند محاضير محمد حتى أنه توصل إلى قناعة مفادها بقوله: (لقد أثبتت - أمريكا وبريطانيا- أنهم مستعدون لاختراع مزاعم كاذبة من أجل شن الحرب وقتل الأطفال والشيوخ والمرضى التي في نظرهم أنها مجرد أضرار جانبية...

---

(1) الرئيس السابق لمفتشي الأسلحة التابعين للأمم المتحدة.

(2) سفير عربيات في: ٤ / ١٠ / ٢٠٠٣م.

(3) انظر: الدكتور محاضير بن محمد بعيون عربية وإسلامية : ١٣٧.

(4) انظر: المصدر نفسه.

فاليوم يجتاحون بلداً لأنهم يرون أنه غير ديمقراطي، وهل فرض الديمقراطية بالغزو أمر ديمقراطي[1]؟.

رؤيته لما بعد الحرب

كانت نظرته صائبة جداً في رؤيته أن الحرب على العراق من المحتمل أن تزيد الموقف في الشرق الأوسط سوءاً، وكذلك مساهمة هذه القضية في مشكلات الإرهاب في العالم [2]، ومن رؤية محاضيرية اقتصادية رأى أن هذه الحرب ستفرز آثاراً سلبية على الاقتصاد العالمي – وهذا ما حدث فعلاً – وأن هذه الحرب ستزيد من غضب المسلمين وستضاعف من أعداد المتطوعين في المنظمات التي يسمونها (إرهابية)، ورأى أن وقوع الحرب يعد تكريساً لشريعة الغاب وتجاوز المواثيق الدولية كافة، وستوفر هذه الحرب الفرص لدول أخرى في أن تتبع النموذج الأمريكي؛ الأمر الذي سيفقد العالم بسببه الأمان، وهذه الحرب في نظر محاضير ستضعف ثقة العالم الإسلامي بالأمم المتحدة بعد عجزهم عن حماية العراق ومنع الحرب عليه[3].

ثانياً: مواقفه بعد الحرب على العراق

رأيه في السياسة الأمريكية في العراق

عن التدخلات السياسية لأمريكا وبريطانيا في العراق انتقد محاضير هذه التصرفات وقال: (لو كانت هاتان الدولتان تؤمنان حقاً بالديمقراطية لسمحتا للعراقيين بتشكيل حكومتهم بأي طريقة تتراءى لهم)[4] مؤكداً إذا استلزم التدخل في الشأن العراقي الداخلي فيجب أن يكون ذلك عن طريق الأمم

---

[1] انظر: الدكتور محاضير بن محمد بعيون عربية وإسلامية: ١٤٣.

[2] موسوعة الدكتور محاضير: ١٠ / ١١.

[3] انظر: الدكتور محاضير بن محمد بعيون عربية وإسلامية: ١٤٤.

[4] موقع أنباء الإخباري، الاثنين: ١٨/ آب- أغسطس/ ٢٠٠٣م.

المتحدة ، ولهذا قال : (لن نشارك في أي شيء يجري في العراق دون أن تجيزه الأمم المتحدة)[1] بدليل أن بلده ماليزيا لن تبحث إرسال قوات في أي مهمة لحفظ السلام بالعراق ما لم تقر الأمم المتحدة مثل هذه الخطوة[2].

ونظر إلى الانتخابات والحكومة المنبثقة عنها في ظل الاحتلال بأنها لن تلقى قبول الشعب العراقي، لأنها قوة مؤيدة للأمريكيين، واتهم الأمريكيين بعدم فهم الشعب العراقي، واستبعد من أجل ذلك استقرار الأوضاع بعد الانتخابات، بل وتوقع زيادة الأمر سوءاً[3].

ولم يرَ في إرسال المزيد من الجنود الأمريكيين حلاً للمشكلة العراقية وقال عنهم: (سيذهبون إلى العراق وسيقتل العديد منهم ويعودون في أكفان إلى ديارهم، وحين يرى الأمريكيون هذه الأكفان، سيفهمون ما معنى الحرب)[4].

موقفه من المقاومة العراقية

أشاد الدكتور محاضير محمد بالمقاومة في العراق، معتبراً أن عودة الكثير من الجنود في أكفان إلى الولايات المتحدة: (سيساعد الأمريكيين على تغيير رأيهم بشأن الحرب)، وقال بمناسبة إطلاق محكمة جرائم حرب – بديلة– عن محكمة لاهاي[5]:(امضوا قدماً في مقاومتكم، واحرصوا على أن يدفع الأمريكيون غالياً ثمن مغامرتهم)[6].

---

[1] موقع أنباء الإخباري، الإثنين: ١٨/ آب– أغسطس/ ٢٠٠٣م.

[2] المصدر نفسه.

[3] المصدر نفسه.

[4] المصدر نفسه.

[5] موقف محاضير من إنشاء المحكمة غير الرسمية لجرائم الحرب للتركيز على الضحايا في العراق وغيره من البلدان؛ لأنه يعد المحكمة الدولية الموجودة في لاهاي هي هيئة منحازة، وأوضح أن المحكمة لن يكون

وتوقع استمرار أعمال المقاومة في العراق ضد قوات الاحتلال الأمريكي وعدم استقرار الوضع في هذا البلد بالرغم من المشاريع السياسية مثل الانتخابات والدستور وغيرهما واستشهد على ذلك بمدينة (الفلوجة) وضربها مثلاً فقال: (إن القوات الأمريكية أرادت أن تظهر عبر الهجوم على الفلوجة أنها قادرة على الحل بالقوة العسكرية وأن "المتمردين" غادروا الفلوجة قبل اقتحام القوات الأمريكية للمدينة لمواصلة العمل في أماكن أخرى وأنهم قد يعودون مجدداً إلى الفلوجة)[٢].

وتوجه برسالة إلى المقاومة العراقية جاء فيها: (أنا أهنىء المقاومة العراقية، تابعوا نضالكم فقد سبق أن نجحتم – مشيراً إلى أن المسؤولين الإسبان والإيطاليين الذين ساندوا الحرب على العراق سقطوا في الانتخابات– وأن بوش وبلير خسرا شعبيتهما) وهذا نجاح سياسي في رأيه، وتابع قائلاً: (المقاومة العراقية أثبتت أنه من غير السهل أبداً اجتياح العراق والسيطرة على الوضع... وإذا كانت الولايات المتحدة تعتقد أنها ستسيطر على العراق وتستخدمه كقاعدة لتهديد الدول في محيط الخليج... وعدم بيع النفط إلى الصين، فإن المقاومة العراقية أثبتت أن الأمريكيين على خطأ)[٣].

وقد دافعت ماليزيا عن رئيس وزرائها السابق محاضير بعد رسالته وموقفه من المقاومة في العراق من باب حقه في التعبير عن آرائه، جاء ذلك

لديها أي سلطة قانونية ولا تلقى دعم أي حكومة، مؤكداً أن ممارسات مرتكبي الجرائم ستكتب في سجلات التاريخ.

[١] برنامج: بلا حدود، قناة الجزيرة القطرية، الأربعاء: ٢٧ شوال١٤٢٥هـ الموافق: ٩ ديسمبر ٢٠٠٤م.

[٢] المصدر نفسه.

[٣] برنامج: بلا حدود، قناة الجزيرة القطرية، الأربعاء: ٢٧ شوال١٤٢٥هـ الموافق: ٩ ديسمبر ٢٠٠٤م.

على لسان وزير الخارجية الماليزي سيد حميد البار الذي قال إن ماليزيا: (بلد حرّ وديموقراطي ومن الجيد جداً أن نرى كيف تمارس الحرية)[1].

ثالثاً: مواقفه حول تداعيات الحرب على العراق

مقاطعة الشركات التي ساهمت في الحرب

انتقد محاضير موقف بلده وخطوة حكومته بالسماح لشركة "هاليبرتون"[2] بالعمل في ماليزيا قائلاً: (إن ماليزيا ليست بحاجة لأموال مضرجة بالدماء)[3]، وتساءل ما إذا فقد الماليزيون الصفات الإنسانية ليسمحوا لمجرمي الحرب هؤلاء بالقدوم والازدهار على حساب اقتصاد البلاد، وكشف محاضير عن خبايا هذه الشركة التي قامت بجمع مليارات الدولارات بشكل أرباح من حرب العراق[4]، واستدل على ذلك بحسابات اقتصادية حيث ذكر أن قيمة سهم "هاليبرتون" قفزت من عشرة دولارات قبل الحرب على العراق إلى قرابة (٤٦) دولاراً بعد أن ضمنت الشركة عدة عقود في العراق ناهزت قيمتها (٢٠) مليار دولار[5].

دعا الدكتور محاضير من قبلُ دول العالم إلى وقف استخدام الدولار الأمريكي في التبادل التجاري وذلك للضغط على حكومة واشنطن، وقدم البديل باليورو أو الدينار الذهب الذي هو واحد من مشاريعه الاقتصادية[6].

---

(1) مفكرة الإسلام: الخميس، ٢٠ محرم ١٤٢٨هـ الموافق: ٨-٢-٢٠٠٧م.

(2) شركة الخدمات النفطية العملاقة، ترأسها في فترة من الفترات نائب الرئيس الأمريكي ديك تشيني.

(3) وكالة الأخبار الإسلامية – نبأ.

(4) انظر: المصدر نفسه.

(5) انظر: المصدر نفسه.

(6) انظر: (الجزيرة) http://www.aljazeeratalk.net

دعوته إلى تغريم أمريكا عما فعلته في العراق

حثّ محاضير العراقيين على جعل الولايات المتحدة تدفع ثمناً باهظاً جداً؛ وذلك غرامة لها بسبب احتلال العراق، جاء ذلك في إعلانه عن: (محكمة تجريم الحرب)[1] غير الرسمية التي ستجري محاكمات استناداً إلى شكاوى يرفعها ضحايا الحروب ضد قادة عالميين أبرزهم الرئيس الأمريكي جورج بوش ورئيس الوزراء البريطاني توني بلير.

وتوقع أن يكون معظم أصحاب الشكاوى ضحايا النزاعات في فلسطين والعراق وأفغانستان، وستكون مهمة المحكمة في المرحلة الأولى دراسة الشكاوى التي ستتلقاها من لجنة خاصة يترأسها محاضير نفسه[2].

وقال محاضير في كلمة أمام أكثر من (١٠٠٠) ناشط ضد الحرب جاءوا من مختلف أنحاء العالم في العاصمة الماليزية كوالالمبور: (نحن في اللجنة ننظر إلى هذه الشكاوى باعتبارها مآسي إنسانية، ليست محصورة بعرق أو دين أو عقيدة معينة، ونأمل أن نحقق شيئاً من خلال تخفيف معاناة أولئك العديدين الذين تألموا في العراق وفلسطين وأفغانستان وأماكن أخرى)[3].

مقارنته بين بوش وبلير وبين صدام حسين:

قارن الدكتور محاضير بين شخصيات متنازعة وهي بوش وبلير من جهة وبين صدام حسين من جهة أخرى فرأى في موازناته: (إن الرئيس الأمريكي جورج بوش ورئيس الوزراء البريطاني توني بلير مجرمي حرب وعلى أيديهما دم عراقي أكثر من الدم على يدي صدام حسين)، وشنّ محاضير

---

(١) انظر: موقع الإسلام اليوم، الخميس:٢١ محرم ١٤٢٨هـ الموافق ٨ فبراير ٢٠٠٧م.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه.

هجوماً على بوش وبلير في مؤسسة السلام الماليزية التي أسسها، وقال: (إن بوش يتعين عليه أن يواجه نفس العدالة الزائفة التي واجهها صدام).

رسالته إلى الرئيس الأمريكي الجديد (أوباما):

وجه الدكتور محاضير رسالة مفتوحة إلى الرئيس الأمريكي الجديد أوباما، حدد فيها مطالبه التي هي عبارة عن أولويات العمل في الإدارة الأمريكية وهي كالآتي[1]:

أولاً: توقفوا عن قتل الشعوب، الولايات المتحدة ومن أجل تحقيق أهدافها مولعة جداً بقتل الشعوب، أنتم تسمونها حرب؛ لكن حروبكم اليوم ليست بين جيوش مدربة تقاتل وتقتل بعضها؛ لكنها قتل للشعوب المدنية البريئة وبمئات الآلاف، بلدان بأكملها سيتم تدميرها، الحرب أصلاً هي طريقة رجال الكهوف للتعامل مع مشكلة، ولهذا أوقف تسليح جيوشكم والتخطيط لحروب مستقبلية.

ثانياً: أوقف الدعم العشوائي للقتلة الإسرائيليين بأموالكم وأسلحتكم، فالطائرات والقنابل التي تقتل الناس في غزة هي منكم.

ثالثاً: أوقف فرض العقوبات ضد الدول، في حين هي لا تقدر أن تفعل المثل ضد بلدكم، عقوباتكم على العراق قتلت نصف مليون طفل بحرمانهم من الغذاء والدواء أو بولادتهم مشوهين، ماذا حققتم من خلال هذه القسوة ؟، لا شيء غير كراهية الضحايا، وأصحاب التفكير السليم لكم.

رابعاً: أوقف علماءكم وباحثيكم من اختراع أسلحة جديدة أكثر شيطانية لقتل المزيد من البشر بكفاءة أكبر.

---

[1] انظر: نص الرسالة في هذا الرابط:
www.globalresearch.ca/index.php?context=va&aid=11584

خامساً: أوقف صناعييكم الحربيين من تصنيع هذه الأسلحة وبيعها لجيوش العالم، فالمال الذي تربحونه منها ملوث بالدم، وهذا ضد تعاليم المسيحية.

سادساً: توقفوا عن نشر الديمقراطية إلى جميع أقطار العالم، الديمقراطية ربما تصلح للولايات المتحدة؛ لكنها ليست صالحة دائماً مع جميع الشعوب، ولا تقتلوا الناس لأنهم غير ديمقراطيين، فحملتكم الصليبية لنشر الديمقراطية بين الشعوب قتلت منهم ما لم تفعله حكوماتهم الاستبدادية التي أطحتم بها، ورغم هذا فأنتم لم تنجحوا في نشر الديمقراطية.

سابعاً: أوقف الكازينوهات التي تسمونها (مؤسسات مالية) وتوقفوا عن فتح صناديق الاحتياط ومشتقاتها وتداول العملات، وأوقفوا البنوك عن إقراض المليارات من العملة التي لا غطاء لها، ونظموا وأشرفوا على البنوك واسجنوا الأوغاد الذين يجنون الأرباح من استغلال النظام المصرفي.

ثامناً: وقع على بروتوكول كيوتو[1] وبقية الاتفاقيات الدولية.

تاسعاً: أظهر الاحترام للأمم المتحدة، وختمها بقوله: (لو تمكنت من فعل القليل مما اقترحته عليك، فسيتذكرك العالم كقائد عظيم، عندها ستعود الولايات المتحدة من جديد الأمة التي تحظى بأكبر الإعجاب في العالم، كما تتمكن سفاراتكم من خفض أسيجتها والأسلاك الشائكة المكهربة المحيطة بها، اسمح لي أن أتمنى لكم سنة جديدة سعيدة ورئاسة عظيمة)[2].

---

(1) اتفاق كيوتو يمثل عولمة الشأن البيئي العالمي، وخلق الآليات اللازمة لتنفيذه، ويمثل هذا البروتوكول أيضاً الخطوة التنفيذية الأولى لاتفاقية الأمم المتحدة الإطارية بشأن تغير المناخ، وعلى العكس من ذلك ترى الولايات المتحدة الأمريكية أن الاتفاق ظالم لها، وغير محقق لمصالحها، دعا الرئيس الأمريكي جورج بوش – الابن – إلى معارضة تصديق الولايات المتحدة على الاتفاق، فالإدارة الأمريكية تعارض البروتوكول – دفاعاً عن مصالح رجال الأعمال–.

(2) انظر: المصدر السابق.

ثقافة المقاومة عند الشعب العراقي بين احتلالين

خالد القيسي[١]

الثقافة هي روح الأمة وعنوان هويتها، وهي من الركائز الأساس في بناء الأمم ونهوضها، فلكل أمة ثقافةٌ تستمدّ منها عناصرها ومقوماتها وخصائصها، وتصطبغ بصبغتها، فتنسب إليها، وكل مجتمع له ثقافتُه التي يتسم بها، ولكل ثقافة مميزاتها وخصائصها.

واستعملت الثقافة في العصر الحديث للدلالة على الرقيّ الفكري والأدبي والاجتماعي للأفراد والجماعات، والثقافة ليست مجموعةً من الأفكار فحسب، ولكنها نظريةٌ في السلوك بما يرسم طريق الحياة إجمالاً، وبما يتمثّل فيه الطابع العام الذي ينطبع عليه شعبٌ من الشعوب، وهي الوجوه المميّزة لمقوّمات الأمة التي تُميّزُ بها عن غيرها من الجماعات بما تقوم به من العقائد والقيم واللغة والمبادئ، والسلوك والمقدّسات والقوانين والتجارب، وفي الجملة

[١] باحث في مركز الأمة للدراسات والتطوير.

فإن الثقافة هي الكلُّ المركّب الذي يتضمن المعارف والعقائد والفنون والأخلاق والقوانين والعادات.

وبما أن المقاومة حق مشروع ومطلوب للدفاع عن الوطن وهو مباح بشتى الوسائل التي تتوافق مع الثوابت الشرعية والوطنية وحسب ما تمليه الظروف إما بالسياسة.وإما بالقوة فمن لا وطن له لا حياة له، غير أن هذه لها شروطها وأحكامها حتى لا تصبح فوضى يستغلها أصحاب المصالح لصالحهم فتضيع الحقوق ويقع الظلم وتصبح كلمة المقاومة إرهاباً، لذلك علينا أن نعلم ما معنى كلمة المقاومة ومتى تكون.

والمقاومة تولد عند ظهور حالات الظلم والاضطهاد والاحتلال ونهب خيرات الشعوب واستغلالها من قبل الاستعمار وتختلف أشكال المقاومة باختلاف نوع الغزو والاستعمار، فعندما يكون الغزو فكرياً يهدد تراث الأمة وتاريخها ولغتها ليجردها من كل ما يميزها عن غيرها من الأمم يهب رجال الفكر والأدب ليذودوا عن ثقافة أمتهم وتاريخها وأدبها ولغتها وفي هذه الحالة تكون أدوات المقاومة القلم والفكر وعندما يكون الغزو عسكرياً فإن الأمم تهب للدفاع عن أوطانها بكل ما تملك من الرجال والأموال لتدفع عن نفسها الذل والهوان ولا تلقي السلاح حتى ترحل آخر قدم لجنود الاحتلال وطأت تراب الوطن.

وأصبحت كل أمة تفتخر بفترة من فترات تاريخها وهي تلك الفترة التي انتفض فيها أبناؤها وحملوا السلاح ليدافعوا عن وطنهم وأمتهم ليجبروا المحتل على الخروج صاغراً تاركاً لهم حرية الحياة على تربة الوطن.

وبعد نهاية فترة الاستعمار الذي أعقب الحرب العالمية الأولى واندلاع حركات المقاومة في كافة الأقطار العربية لنيل الاستقلال، كان للعراق دور كبير في ترسيخ مفهوم مقاومة الاحتلال تمثلت في انطلاق الشرارة الأولى

لثورة العشرين التي أشعلت الأرض تحت أقدام الإنكليز الغزاة لتبدأ من السماوة ويمتد لهيبها إلى كل أنحاء العراق.

ومن خلال المطالعة التاريخية للشعب العراقي بين الاحتلالين البريطاني والأمريكي نرى أوجهاً كثيرة للمقارنة من أهمها: أن الشعب العراقي انتفض مبكراً لمقاومة الاحتلال فكانت ثورة العشرين هي أول ثورة في المشرق العربي بعد الحرب العالمية الأولى عبّرت عن أصالة الشعب ولحمته وتماسكه ووطنيته ورفضه لمبدأ الاستسلام والخنوع للأجنبي، وأجبرت البريطانيين عن التخلي عن الحكم المباشر واستبداله بحكومة وطنية، إلا أن هناك فرقاً كبيراً بينهما، إذ كان يتعامل فيه البريطانيون مع أشخاص مثل الملك فيصل الأول ورفاقه من القادة العراقيين ذوي المؤهلات العالية والانتماء الكبير فإن الإدارة الأميركية اليوم تفاوض نفسها.

وفي الوقت الذي يعجز فيه الاحتلال عن كسر إرادة الشعوب بآلته العسكرية فإنه يعمد إلى استخدام أسلوب آخر ربما يكون أشد فتكاً وهو إشاعة روح الانهزام والاستسلام بين الشعب من خلال وسائل متعددة منها أسلوب إقناع الشعب بأنه جاء محرراً لا يبتغي إلا إرساء قواعد الديمقراطية وحقوق الإنسان وإنهاء الدكتاتوريات التي قيدت الأيادي وكمّمت الأفواه وضمان حقوق الأقليات وحمايتها من الاضطهاد مستخدماً وسائل الإعلام والأقلام المأجورة التي تبشر بهذا المشروع وكأن الاحتلال هو المخلص الوحيد.

وعندما أدرك الاحتلال أن الشعب العراقي اليوم أكثر وعياً وأشد صلابة انتقل إلى مرحلة أخرى وهي أسلوب الضغط على الحاضنة كما فعل سلفهم البريطانيون عندما أحرقوا المحاصيل الزراعية للمدن التي اشتركت في الثورة وتوجيه حملات عسكرية شديدة القسوة ضد المدنيين الذين يشكلون الظهير الحقيقي للمقاوم وإعفاء الشيوخ الذين لم يشتركوا في الثورة من الضرائب،

واليوم يعاود الاحتلال استخدام الأسلوب نفسه من تدمير للمدن والبنية التحتية للخدمات ودور العبادة وقتل الأطفال والشيوخ والنساء واعتقال الرجال وإيداعهم في المعتقلات لفترات غير محدودة.

إن المقاومة اليوم هي عبارة عن منظومة تتكون من الجهد العسكري والشرعي والدعوي والإعلامي والمادي والمعنوي، فضلاً عن العلاقات الخارجية التي تسعى لكسب التأييد الخارجي وتوفير مساحة أكبر للتحرك تتكامل فيما بينها لتصنع أنموذجاً رائعاً للمقاومة التي ستكون في يوم ما سفراً خالداً يفتخر فيه الأبناء والأحفاد فضلاً عن الأمة كلها كما نفخر اليوم بأولئك الرجال العظماء من أبطال ثورة العشرين.

وبعد انتهاء العام السادس للاحتلال فإن المقاومة حققت إعجازاً عظيماً في حجم الخسائر التي كبدتها لقوات الاحتلال، واستخدمت استراتيجية الرعب بكل تفاصيلها وأصبح يخيل للجندي الأمريكي وهو يمشي على الأرض أن كل ذرة تراب من أرض العراق قنبلة ستنفجر عليه، وفي المقابل فإن المقاومة اليوم بحاجة إلى سلاح معنوي يساند سلاح المقاوم على الأرض ويديم زخم المعركة ويجعل البطل الذي يقاتل الاحتلال يشعر إن الأمة كلها وراءه بما تملك وإن مصير الأمة ومستقبلها وتاريخها مرهون بثباته على الأرض وبمطاولته وصبره وجلده، إن السلاح الساند الذي نحتاجه اليوم أكثر من قبل هو إشاعة روح المقاومة أو ثقافة المقاومة بين أبناء الوطن.

ولذا يمكننا تعريف ثقافة المقاومة بأنها مجموعة العوامل الدينية والمعنوية التي تزرع الثبات في النفوس وتدفعها للبذل والعطاء وتقديم النفوس والأموال من أجل مقاومة الاحتلال واستمرارها حتى يخرج آخر جندي من جنود الاحتلال وتنبذ مبدأ الانهزام والاستسلام والمهادنة.

التاريخ يعيد نفسه على أرض الرافدين ولكن لا ندري ما الـذي أعمـى عيون الغزاة وطمس على بصيرتهم وذهب بهم بعيداً عن تاريخ العراق، ألـم يخبرهم حلفاؤهم البريطانيون عن أبطال العراق وهم يقارعون جنود الاحتلال البريطاني بالفالة والمكوار حين حولوا العراق إلى جحيم مستعر ونار متقـدة تحت أقدامهم لم يخلصهم منها إلا اللجوء إلى حامياتهم، إن الذي يستقرأ تاريخ العراق يرى إنه شعب لا يقبل الضيم ولا ينام على الذل وإن مقاومة المحتـل هي زاده عندما تطأ أقدام جنود الغزاة أرض الوطن، وفي هذه الأوراق سنقلّب بعضاً من صفحات تاريخ العراق المشرقة التي سـطّر فيهـا الأجـداد أروع الملاحم والبطولات ستظل على مدى التأريخ سفراً خالداً يستلهم منه الأحفـاد كل معاني البطولة والإباء والعزة والكرامة ويتعلموا منه رفض الأجنبي الذي جاء ينهب خيرات البلاد ويقتل ويشرد العباد.

ثورة العشرين

وهي الثورة الأولى في المشرق العربي بعد الحـرب العالميـة الأولـى وومضة مضيئة في تاريخ العراق الحديث وسفر من أسفار شـعب الرافـدين التي تعبر عن عظمته ووطنيته ولحمته، انطلقت شرارتها الأولى عندما اعتقل البريطانيون الشيخ شعلان أبو الجون شيخ عشيرة الظوالم، قام الثـوار علـى أثرها باقتحام السجن وإطلاق سراحه واندلاع الشرارة الأولى للثورة ليـشترك بعدها عشيرة الفتلة وتنتقل الثورة إلى مدينة العمارة والناصرية ثم إلى النجف وكربلاء.

أما ملحمة ثورة العشرين في أبي غريب، فقد اندلعت إثر مواجهـة بـين الشيخ ضاري المحمود شيخ عشيرة زوبع وبين أحد كبار ضـباط الاحـتلال البريطاني هو الكولونيل لجمان، حين وجه الشيخ ضاري المحمود له ضـربة

سيف أطاحت بعنقه ليقطع الثوار بعدها خطوط الإمداد التي تأتي من الغرب، استطاعوا فيها تكبيد جيش الاحتلال خسائر كبيرة في الأرواح والمعدات وقطع خطوط الإمداد وتدمير بعض خطوط سكك الحديد التي يستخدمها الاحتلال لنقل الجنود والعتاد لتعزيز قواته في المناطق التي اندلعت فيها الثورة والاستيلاء على الكثير من الأسلحة والذخيرة التي ساعدت الثوار في إطالة أمد القتال وفي الكوفة استطاع الثوار أن يغنموا مدفعاً أغرقوا فيه إحدى السفن البريطانية.

تبين ثورة العشرين وعي الشعب العراقي من خلال تكاتف عشائر العراق والتفافها حول شيوخها الذين كانوا قادة للثورة ما أكسبها بعداً وطنياً كبيراً اشتركت فيه كافة مكونات الشعب العراقي، وبعد أسابيع من اندلاع الثورة سيطر الثوار على أغلب المدن وانسحب جنود الاحتلال إلى حامياتهم ليحتموا بها من ضربات الثوار التي كبدتهم خسائر كبيرة وزرعت فيهم الرعب والخوف مما اضطر البريطانيين إلى استقدام قوات أخرى من الهند عن طريق البصرة والأردن لكي يعززوا موقفهم لجأ البريطانيون بعدها إلى القيام بحملات عسكرية قاسية والتضييق على الناس بحرق محاصيلهم الزراعية وهدم بيوتهم لإجبارهم على الاستسلام وإلقاء السلاح، وبعد انتهاء الثورة عقد الاحتلال مؤتمراً في الأردن اتخذ على أثره قراراً تخلى بموجبه عن الإدارة الفعلية للعراق إلى حكومة من العراقيين.

دور العلماء في ثورة العشرين

كان لعلماء الدين دور بارز في حشد الناس وتشجيعهم للانضمام إلى الثوار الذين بدأوا الثورة في جنوب العراق وشماله وقد شارك عدد كبير من علماء العراق من شماله إلى جنوبه في مد وقود هذه الثورة في خطب الجمعة

والتجمعات الدينية، وكانت من أشهرها في الجنوب الخطبة التي ألقاها الشيخ محمد الخالصي في كربلاء، وهذه مقتطفات منها:

(أستعيذ بالله أن أقول ما قالته بريطانيا بأن العراق يحتاج إلى قيّم وولي ووليه وقيمه بريطانيا، هكذا أرادت بكم تلك الدولة القاسية التي لا ترى غيرها في العالم، وتحسب صنوف البشر عبيداً أرقاء أذلاء لا يملكون لأنفسهم تجاه بريطانيا نفعاً ولا ضراً ولا موتاً ولا حياة.

وأنتم واقفون بين بريطانيا وخالقها، خالقها يصفكم بصفة الأعلون، والمخلوق يصفكم بصفة الأدنون، فإن قبلتم صفة المخلوقين ذللتم وخزيتم وأصابتكم الدناءة واشتريتم بعد ذلك مرضاة المخلوق بسخط الخالق، وإن قبلتم صفة الخالق ذل لكم المخلوق، وإن من كان لله كان الله له، وعشتم أعزاء أعلون في بلادكم ولا يصيبكم حزن ولا وهن، وشرط ذلك خلوص الإيمان، كما شرط الله عليكم عدم الرضوخ إلى نزعات الشيطان الذي يخوف أولياءه {إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءهُ فَلاَ تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ} يعرج بكم إلى أوج السعادة ومنتهى درجات العزة، ومتابعة الشيطان تهوي بكم إلى الحضيض وأسفل دركات الذل، إن تابعتم بريطانيا وعشتم أذلاء في بلادكم).

اشتد الحماس بالحاضرين وكثر البكاء بينهم وعلت الضجة و قطع رؤساء العشائر رباط عقالهم بسيوفهم إيذانا بأنهم مستميتون في سبيل الدفاع عن العراق، ثم انفض الاجتماع والرؤساء مستعدون جميعاً للحرب عازمون على الموت في سبيل حفظ حقوق العراق.

دور الشعراء والأدباء في ثورة العشرين

كان للشعراء دور كبير في إلهاب حماسة الناس ودفعهم للالتحاق بالثوار، وكان الشعر وقوداً أجج الحماس ضد الاحتلال البريطاني الذي هيمن على

مقدرات الوطن وبذل الشعراء جهوداً كبيرة لتهييج الرأي العام ضد الاحتلال من خلال المساجد وأيام المناسبات.

ومن الملاحظ أن مدينة بغداد كانت قد تزعمت حركة الثورة بداية لكنها لم تستطع أن تقوم بعمل عسكري لأنها كانت تحت السيطرة البريطانية مباشرة، إلا أن الثورة استمرت في مناطق أخرى، واتفق الشعراء على الهدف في المطالبة بإنهاء حكم الإنكليز والمطالبة بحكومة استقلال، وحرضوا على ذلك فهذا محمد حبيب العبيدي يقول:

لم تكن يا ابن لندنٍ علوياً

هاشمياً ولم تكن قرشياً

لا ولا مسلماً ولا عربياً

من بني قومنا ولا شرقياً

فلماذا تكون فينا وصياً

إن رضينا بالأجنبي وصياً

إنما نحن في الحروب رجال

وكماة يوم الوغى أبطال

يا لقومي فلتنتج الأعمال

يا بني العرب خابت الآمال

ولقد كان أشهر شعراء الثورة العراقية محمد مهدي البصير بحماسته ضد الإنكليز محرضاً الشعب قائلاً له:

أفيطلبون لك الرعاية ضلة

ما كان أقصرهم وما أصحاكا

ولو أنصفوك لحرروك لأنهم

ربحوا قضيتهم بظل لواكا

والشاعر القشطيني بقصيدته التي يدعو إلى الموت في سبيل الأوطان:

يا أيها العربي قم

واقدح زنادك ينقدح

وافتح طريقك بالظبى

فبغيرها لا ينصلح

وخذ الحقوق جميعها

أو مت عزيزاً واسترح

وانبرى الشاعر محمد الباقر الحلي يحذر من الركون إلى وعود الإنكليز وضرب أمثلة مما قاموا به في مصر والهند:

يريدون منكم بالوعود مكيدة

ويبغون إن حانت لهم فرصة غدراً

فلا يخدعنكم لينهم وتذكروا

أضاليلهم في الهند والكذب في مصرا

ومن مات دون الحق والحق واضح

إذا لم ينل فخراً فقد ربح العذرا

وعلى الفور قام الشيخ محمد العبطان وسل سيفه وقال: إنا قطعنا على أنفسنا عهداً، إما الموت أو الاستقلال التام.

وخلد الشاعر محمد الجواهري معركة الرارنجية التي انتصر فيها الثوار وأحرقوا فيها قطارين للبريطانيين

وللفرات نهضة

مشهودة لا تجحد

بفتية على المنى

أو المنايا احتشدوا

وللقطار وقعة

منها تفر الكبد

ما تركوا حتى الحديد

سلسلوا وقيدوا

دور المقاهي في بث روح المقاومة

استمرت المقاومة الوطنية للعراقيين ومظاهراتهم ضد الهيمنة البريطانية والحكومات المرتبطة بالاستعمار الأجنبي طوال عقود العشرينات والثلاثينات والأربعينات حتى قيام الثورة عام ١٩٥٨م، وكان شارع الرشيد ومقاهي منطقة (الحيدر خانة) تحديداً، البؤرة التي تنطلق منها تجمعات المثقفين والسياسيين ومظاهراتهم المعارضة للاستعمار البريطاني.

ولعل من أبرز الشخصيات الثقافية التي غذت الحماس الوطني وألهبته مع بدء ثورة العشرين في ٣٠ حزيران ١٩٢٠م الشاعر والخطيب المعروف محمد مهدي البصير، وفي الثلاثينات شهد شارع "الحيدرخانة" نفسه ومقهى "عارف آغا" عدداً من الاحتفالات التي كان يحييها الشاعر معروف الرصافي، لتتحول إلى مظاهرات تخرج من المقهى لتنضم إلى الحشود، يشترك فيها عدد من أبرز الوجوه الوطنية والثقافية في العراق.

وشبيه بهذه الاحتفالات ما كان يقوم به شاعر العراق محمد مهدي الجواهري وهو خارج من "مقهى حسن عجمي" أو مقهى "البرلمان"، ليلقي قصائده العصماء التي تجر وراءها مظاهرات تبدأ ولا تنتهي، إن هذه المقاهي هي نفسها التي شهدت انطلاقة التظاهرة الكبيرة منها عام ١٩٤٨م لتسقط حكومة صالح جبر، ملغية المعاهدة البغيضة المعروفة بمعاهدة "جبر بيفن" المبرمة بين العراق وبريطانيا.

ثورة رشيد عالي الكيلاني

تمثل هذه الثورة دلالة واضحة على وطنية الشعب العراقي ومقاومته لكل مظاهر التبعية للاستعمار، وتختلف عن سابقتها ثورة العشرين التي كانت عبارة عن ثورة شعبية عارمة قامت بها عشائر العراق وامتدت من جنوب العراق إلى وسطه وشماله في كونها ثورة اشترك فيها كل فئات الشعب العراقي من برلمانيين أدت ثورتهم إلى إحداث تغيير دستوري وإسقاط حكومة كانت تابعة لبريطانيا وتعيين وصي جديد للعرش وضباط أحرار ساندوا التغيير الوزاري لصالح الثورة وصحفيي وشعراء العراق إضافة إلى عشائره في البصرة والفلوجة وبغداد.

كان السبب الرئيس لقيام الثورة استجابة حكومة نوري سعيد والوصي لمطالب بريطانيا في الحرب العالمية الثانية والتي تتعدى التزامات العراق الموقع عليها في معاهدة ١٩٣٠م، إذ طلبت بريطانيا من الحكومة العراقية إعلان الحرب على دول المحور وتقديم تسهيلات عسكرية للجيش البريطاني وقطع العلاقات الدبلوماسية مع ألمانيا وإيطاليا واعتقال الرعايا والدبلوماسيين لكلا الدولتين وتجميد الأموال العائدة لهما في العراق، قوبلت هذه المطالب برفض شديد من القوى الوطنية في البرلمان والجيش العراقي المتمثلة برشيد عالي الكيلاني الذي كان يشغل منصب رئيس الديوان الملكي ورئيس أركان الجيش حسن فوزي والمربع الذهبي المتمثل بالضباط الأربعة صلاح الدين الصباغ وفهمي سعيد وكامل شبيب ومحمود سليمان، أدى ازدياد الغضب الشعبي وتفاقم الأزمة السياسية إلى استقالة حكومة نوري سعيد ولجوء الوصي عبد الإله إلى إسناد مهمة تشكيل وزارة جديدة إلى السيد رشيد عالي الكيلاني سميت بحكومة الإنقاذ الوطني.

ومع تطور العمليات العسكرية في أوروبا والهزائم التي مني بها الحلفاء عامي ١٩٤٠م و١٩٤١م واحتلال ألمانيا لفرنسا ودخول إيطاليا الحرب مع ألمانيا، تعالت الصيحات المطالبة بإنهاء الوجود البريطاني في العراق وإلغاء معاهدة ١٩٣٠م، وتوالت الضغوط السياسية على حكومة الكيلاني المنادية بضرورة التحالف الاستراتيجي مع دول المحور لتحقيق تلك المطالب، إلا أن الكيلاني من جهته كان مدركاً لخطورة القوات البريطانية التي لا يستهان بها في العراق على الرغم من الهزائم التي منوا بها في جبهات أوروبا، فكان لزاماً عليه اتباع سياسة عدم انحياز مدروسة والتي دعا لها، في الوقت الذي وجد نفسه محاطاً بمؤيدين متطوعين من المتعاطفين مع المحور أهمهم مجموعة المربع الذهبي والتي كانت تحوز على تعاطف القوات المسلحة، من قادة وآمرين وقطعات مختلفة، وشيئاً فشيئاً تعاظمت مطالب القوى الوطنية التي رأت في الكيلاني الملاذ لتخليصها من الهيمنة البريطانية فدفعته لاتخاذ مواقف أكثر حزماً بالوقوف ضد المطالب البريطانية التي حددتها المعاهدة في أوقات الحرب.

حاولت بريطانيا جس نبض الحكومة وذلك بمطالبتها الحكومة العراقية إعلان الحرب على دول المحور وتقديم تسهيلات باستخدام القطارات والمطارات العراقية لتسهيل مهمات القوات البريطانية، قوبلت هذه الطلبات برفض الحكومة العراقية التي حاولت استغلال ضعف الموقف البريطاني للتخلص من التبعية لبريطانيا، طالبت بريطانيا بعدها وضباطها الموجودون في القواعد العسكرية باستقالة حكومة رشيد عالي الكيلاني وتدخل الوصي لحل المشكلة وطالب باستقالة الحكومة وتشكيل حكومة جديدة برئاسة حليفه نوري سعيد، شكلت هذه المطالب تحدياً سافراً للكيلاني بحيث تعد استجابة الكيلاني لهذه المطالب استسلاماً لبريطانيا.

دور الجيش العراقي في الثورة

كان للجيش العراقي دوراً وطنياً كبيراً في مساندة الثورة من البداية بمؤازرته للقوى الوطنية في البرلمان وقيامه بمحاصرة القوات البريطانية في قاعدة الحبانية لصد أي هجوم تقوم به على بغداد من أجل إعادة احتلال بغداد وإعادة تنصيب حكومة نوري سعيد التي لجأت إلى الأردن وتنصيب الوصي عبد الإله الذي فرّ إلى القاعدة البريطانية في البصرة قبل الثورة، خاض الجيش العراقي معارك باسلة في منطقة الحبانية والفلوجة ولكن التفوق الكبير للجيش البريطاني ووصول قوات إضافية من الأردن أديا إلى تعزيز الموقف لصالح القوات البريطانية ما أدى إلى نهاية الحرب لصالح بريطانيا.

الدور الشعبي لمساندة الثورة

لم تكد تبدأ حكومة الدفاع الوطني حتى أجمع العراقيون على تأييدها، وقد تمثل ذلك التأييد ببرقيات التهنئة المرسلة من قبلهم تعبيراً عن موقفهم المؤيد لها، وكانت الحماسة شديدة لتأييدها بين أوساط الطبقة المثقفة وخاصة بين منتسبي المعارف من موظفين ومدرسين وطلاب لأنهم كانوا على درجة عالية من الوعي وأدركوا وطنية هذه الحكومة والغاية من قيامها، وقد تجسد هذا التأييد بخروج فتوة المدارس باستعراض منظم وساروا في الشوارع الرئيسة معبرين عن فرحتهم بقيام الحكومة الجديدة، وكانت النساء الواقفات على شرفات المنازل يقبلن ذلك بالزغاريد والهتاف، كذلك أعلنت معظم العشائر في العراق عن موقفها الصريح في تأييد حكومة الدفاع الوطني، ولما أعلنت بريطانيا الحرب على العراق في الثاني من آذار/ مارس استعدت تلك العشائر للمشاركة في الدفاع والتصدي للبريطانيين خاصة بعد الفتاوى التي أطلقها علماء الدين للجهاد.

دور المرأة العراقية في ثورة آذار/ مارس

لقد كانت البصرة والفلوجة ساحة المعركة المتوقعة بين الجيش العراقي والقوات البريطانية، لذلك كان لأهالي هاتين المنطقتين وقفة مشرفة في تقديم كل أنواع العون والمساعدة للجيش العراقي، أما في الفلوجة فقد شاركت العشائر في القتال جنباً إلى جنب مع الجيش العراقي فيما تقوم النساء متطوعات بإعداد الطعام للجيش بعد اندلاع الحرب واضطرار الجيش للانسحاب إلى الخلف، كما كان للمرأة البصرية دور متميز في دعم حكومة الدفاع الوطني، فقد قدمت بعض النسوة الدعم المادي والمعنوي للثورة، ولعل أبرز من عبّر عن موقف المرأة المثقفة في ذلك الوقت السيدة "نبيهة اسماعيل" التي كانت مديرة لمتوسطة البصرة للبنات حيث ألقت خطبة في ١ آذار/ مارس عام ١٩٤١م بمناسبة تحية العلم العراقي عنوانها (واجب المرأة العراقية اتجاه الوطن العزيز)، وكانت بمثابة نداء ثوري موجه إلى المرأة العراقية يدعوها لتلبية صوت الوطن، ولعل أبرز ما ورد في خطبتها قولها: "لقد حفزني حب الوطن المتغلغل في نفسي وروحي القومية والشيمة العربية التي جبلنا عليها أن أنادي أخواتي وبناتي بأنه قد آن الأوان ودنت الساعة الرهيبة التي ستظهر فيها بطولتنا، فالواجب يحتّم على الفتاة العراقية أن تقف جنب أخيها في ساحات الوغى كما وقفت جداتها بين مشتجر الفناء وتحت ظلال السيوف".

وبعد أن استعرضت البطولات الفذة التي قدمتها بعض النسوة العربيات اللائي يفخر بتدوينها تاريخنا العربي الإسلامي وقالت: " أخواتي وبناتي، لكل الشعوب الأبية مواقف عرفت بها وأثرت عنها فكانت مهبط الشرف من حياتها ومعقد الفخر من سيرتها، وليس موقف أمثال هذه الشعوب أملأ للقلب وأملك للنفس وآثر في التأريخ من موقف شعبنا العراقي النبيل الذي برهنّا فيه

وسنبرهن لأصحاب السياسة الغاشمة والأمم الخائنة لعهودها ولمن وراءهم ومن يواليهم بأننا سنقف في وجههم شباناً وكهولاً ونساءً فنردهم على أعقابهم.

دور الشعراء في ثورة آذار/ مارس

كان لشعراء العراق الدور البارز في تعبئة الشعب للوقوف مع الثورة ومطالبة القوى الوطنية في الحكومة والجيش العراقي بمزيد من الثبات والصمود من أجل نيل الاستقلال والتخلص من التبعية لبريطانيا، ومن أبرز شعراء الثورة السيد عزيز علي والشاعر أحمد صافي النجفي ومعروف الرصافي الذي خلد معركة الفلوجة بقصيدة وهذا جزء منها:

أيها الإنكليز لن نتناسى
بغيكم في مساكن الفلوجة

ذاك بغي لن يشفي الله إلا
بالمواضي جريحه وشجيجه

هو خطب أبكى العراقيين
والشام وركن البنية المحجوجة

حلها جيشكم يريد انتقاماً
وهو مغر بالساكنين علوجه

فاستهانت بالمسلمين سفاهاً
واتخذتم من اليهود وليجة

وطن عشت فيه غير سعيد
يعش حراً يأبى على الدهر عوجه

أتمنى فيه السعادة لكن
ليس لي فيه ناقة منتوجه

كل يوم بعزّه أتغنىّ جاعلاً

ذكـــر عـــزّه أهزوجـــــــــه

ما حياة الإنسان بالذل إلا

مـــرة عنـــد حَسْوِهـــا ممجوجه

فثناءً للرافديـــن وشكـــراً

وسلامـــاً عليـــك يـــا فلوجـــة

الغزو الأمريكي للعراق في عام ٢٠٠٣م

بالرغم من فداحة الخطب وهول المصيبة التي أحاطت بالعراقيين من كل حدب وصوب وهم يرون دبابات الاحتلال تجوب شـــوارع بغـــداد عاصـــمة الرشيد وأسراب طائراتهم وهي تستبيح سماء العراق، فإن أبناء الرافـــدين لـــم يقفوا مكتوفي الأيدي وهم يرون التاريخ اســـتدار إلـــى الـــوراء دورة كاملـــة ليذكرهم بالقائد البريطاني مود الذي خاطبهم بأنه جـــاء فاتحـــاً فعـــادت بهـــم ذاكرتهم إلى أولئك الأجداد العظام الذين قـــاتلوا المـــدفع البريطـــاني بالفالـــة والمكوار لتبقى أهزوجتهم "الطوب أحسن لو مكواري" مخزونة فـــي ذاكـــرة التاريخ يسترجعونها متى ما دار التاريخ دورته وعادت جيوش الغـــزاة لتطـــأ أرض الرافدين من جديد.

الشعب العراقي إبان الاحتلال

عند بداية الغزو وتصعيد العمليات العسكرية التي كان الهدف منها احتلال العراق وتدمير البنية التحتية للدولة العراقية، لم يكن الغزو يـــستهدف تغييـــر حكومة أو إزالة نظام حكم بل كان هدفه احتلال العراق وتجزئته إلى دويلات على أساس طائفي أو عرقي، ومع بداية الغزو نرى أن شعب الرافدين ســـلك

سلوكاً عظيماً ينم عن أصالته ووعيه الوطني يتمثل في الأعمال التي قام بها العراقيون أثناء المعركة والتي كان من أهمها:

مع تصعيد العمليات العسكرية واشتداد قسوتها حدثت هجرة جماعية من بغداد إلى بقية المحافظات القريبة منها حتى خلت بغداد من معظم سكانها، استقبلهم أخوتهم في المحافظات المجاورة وفتحوا لهم أبوابهم وأسكنوهم معهم وتقاسموا معهم الحياة طيلة تلك الفترة حتى تمّ إعلان توقف العمليات العسكرية وبداية رجوع سكان بغداد إليها، حتى أن علماء الدين تعجبوا من لحمة العراقيين وتراحمهم فيما بينهم وطيبة قلوبهم فأطلقوا عبارة جميلة "لقد أرجعتم فينا كرم الأنصار وأخوتهم للمهاجرين".

مع غياب مؤسسات الدولة فإن كل منطقة عقدت مؤتمراً من علماء الدين ووجهاء العشائر وبعض المسؤولين لتكوين لجنة تتولى مهمة إدارة المدينة والمحافظة على الدوائر التابعة إليها وحفظ الأمن وحقوق الناس فيها.

كثرة المظاهرات التي انطلقت تجوب شوارع العراق مطالبة الاحتلال بالرحيل عن أرض العراق ومعبرة عن اللحمة الوطنية للشعب العراقي، انطلق البعض منها من مسجد أبي حنيفة النعمان بعد صلاة الجمعة يقودها علماء الدين من السنة والشيعة معبرين للاحتلال بأن أبناء العراق لا يمكن تفريقهم على أساس الدين والعرق يردودن الأهزوجة التي تعبر عن وحدة أرض وشعب العراق "أخوان سنة وشيعة هذا البلد ما نبيعه".

هيئة علماء المسلمين

بعد أيام من احتلال بغداد اجتمع نفر من علماء العراق ومفكريه للنظر في المستجدات الخطيرة التي طرأت على البلاد، ومن ثم اتخذوا قراراً بتأسيس هيئة شرعية عرفت فيما بعد بهيئة علماء المسلمين، واستجابة للضرورة

الواقعية تفرع عن الهيئة فروعاً أخرى في أغلب مدن العراق، ولكل فرع مكاتب تعمل على خدمة الناس في المجال الذي تبنته الهيئة كما أنها ساعدت في المجالات الأخرى التي رأت فيها مصلحة للبلد وأهله، وكان من أهم الأعمال التي قامت بها الهيئة معالجة الخلل الذي طال منظومة المساجد بسبب انهيار المؤسسات التي كانت تديرها والعمل على تهدئة الأوضاع الداخلية بين مكونات الشعب العراقي والحيلولة دون وقوع فتنة طائفية أو عرقية أو دينية.

الاستعداد للمقاومة مع بداية المعركة ودخول القوات الأمريكية بغداد

مع انطلاق أول صاروخ على أرض بغداد الحبيبة، بدأت تحركات أسود الرافدين يجوبون أرض العراق يجمعون الأسلحة المختلفة وتخزينها استعداداً منهم لبداية المعركة التي لم تكن في حسبان الاحتلال، فتحولت صحراء العراق وبساتينه ومزارعه إلى مخازن للسلاح والعتاد متحدين بذلك الاحتلال وقواته ووعيده ومعتقلاته، ورغم كل إجراءات الاحتلال من اعتقال وهدم البيوت وتجريف البساتين لمن يشتبه به تقديم المساعدة للمجاهدين، إلا أن شعب العراق ازداد ثباتاً وشموخاً وسجل التاريخ كلمات خالدة لبعض العراقيين وهو يرى بيته يهدم وعائلته تقتل جراء القصف الوحشي الأمريكي فلا يزيد على قول كلمة "كلنا فداء للدين والوطن".

بداية العمليات العسكرية ضد الاحتلال

لم يشهد التاريخ مثيلاً للمقاومة العراقية في سرعة نشوئها بعد الاحتلال وحجم الخسائر التي كبدتها لقواته بعد أربعة أشهر من دخول القوات الأمريكية أرض بغداد، انطلقت صولات المجاهدين وعلت صيحات الله أكبر

من حناجرهم مدوية في سماء العراق معلنة بداية المنازلة مع قوات الاحتلال، وما أن نُفذت أول عملية ضد الاحتلال حتى توالت البطولات تترا في أرض الرافدين، واستحالت الأرض لهيباً تحت أقدامهم وتحول العراق جحيماً تلظى من حولهم، لقد أذهل مجاهدو العراق العالم كله بنوعية العمليات التي نفذوها والتي تمكنوا من خلالها من إسقاط طائرات الاحتلال وتدمير دباباته وعجلاته، في بداية العمليات استطاع المجاهدون من إسقاط طائرة مروحية في الفلوجة ثم إسقاط طائرة (C-130) غربي الفلوجة وإسقاط طائرة أخرى في منطقة الضلوعية، وتعد معركة الفلوجة الأولى هي ملحمة الجهاد في العراق حيث تورط الاحتلال في عميلة عسكرية داخل الفلوجة ثأراً لبعض منتسبي الشركات الأمنية ثم تحولت ردود الفعل على هذه العملية إلى ثورة شعبية اشترك فيها كل المجاهدين وعشائر العراق تم فيها إسقاط ما يقارب من عشرين طائرة وقطع خطوط الإمداد عن القوات الأمريكية بحيث تعذر عليهم إيصال المؤن والغذاء لقواتهم في القواعد والمعسكرات فضلاً عن القوات التي تتواجد على مشارف الفلوجة، مما اضطر الاحتلال إلى إيقاف القتال ودخوله في مفاوضات مع مدينة الفلوجة وقبوله بدفع تعويضات للأضرار التي سببها القصف الأمريكي للمدينة.

هذا فضلاً عن قيام أغلب مدن العراق القريبة من الفلوجة بإرسال قافلات من السيارات محملة بالمواد الغذائية والأدوية وبقائهم أياماً على مداخل الفلوجة من أجل إدخالها إلى المقاومين في الداخل، فضلاً عن المظاهرات التي انطلقت في كثير من المدن العراقية منددة بالعملية العسكرية التي تقوم بها قوات الاحتلال في المدينة ومعبرة عن حق العراقيين في الدفاع عن وطنهم.

العراقيون والمعتقلات الأمريكية

مع بداية الاحتلال قامت القوات الأمريكية بإنشاء معتقلات عدة أودعت فيها من ترى فيه أي خطورة على قواتها أو من يشتبه به بالقيام بأعمال ضد قوات الاحتلال، ورغم كل الظروف الصعبة التي عاشها المعتقلون والظروف الصحية والإنسانية الصعبة التي عاشها المعتقلون والانتهاكات الكبيرة التي قامت بها قوات الاحتلال لحقوق الإنسان في داخل المعتقلات وتعرضهم لحالات من التعذيب الجسدي والاعتداءات اللاأخلاقية، إلا أن ذلك لم يثن العراقيون من مقاومة الاحتلال، استطاع العراقيون داخل السجون من تحويلها إلى مدارس الغاية منها إعداد المجاهدين وتعليمهم القرآن والفنون القتالية واستخدام الأسلحة وتبادل الخبرات والمعلومات، وشهدت المعتقلات الكثير من الفعاليات التي تدل على عظمة شعب الرافدين ووعيه الوطني وتمسكه بإسلامه وعروبته إضافة إلى عقد الأمسيات والندوات التي يتخللها محاضرات وإلقاء القصائد والمواعظ التي تهون على المعتقلين ما هم فيه من الضيق وتعدهم وتشجعهم على مواصلة المقاومة والجهاد عند الخروج من المعتقل، وشهدت المعتقلات الكثير من العراقيين الذين تم اعتقالهم للمرة الثانية والثالثة ولم يثنهم الاعتقال وظروفه الصعبة عن مواصلة المسيرة.

تداعيات ونتائج الأزمة المالية العالمية والمنظور الإسلامي لها..

عبد الستار أحمد[1]

إن ما جرى ويجري على الساحة الاقتصادية العالمية من تداعيات منطقية وواقعية هي في حقيقتها نتيجة لأزمة مالية من العيار الثقيل لم تستثنِ أيّاً من دول العالم وتستحق بجدارة أن توصف بكونها كارثة القرن الجديد، وإن هذا الحدث يستحق أن يكون حدث الساعة وحدث الإعلام المرئي والمسموع والمقروء وبلا منازع، وإن نتائج هذه الأزمة لم تكن بحسابات الورقة والقلم فحسب بل يشعر المتتبع أن هناك يداً تمتلك القوة المطلقة أوصلت هذه الأزمة لهذه الدرجة، ومن الملفت للنظر أن تتصدر وسائل الإعلام وبكل أنواعها أحداث أو أخبار لا تقارن أهميتها بأهمية الأزمة المالية العالمية التي هي بمثابة المصيبة التي ستأخذ بيد العالم المتقدم والمتأخر على حد سواء إلى الهاوية.

---

[1] رئيس قسم التطوير في مركز الأمة للدراسات والتطوير.

وما يلفت النظر ذلك التكتم الإعلامي الشديد من قبـل القـوى العالميـة المسيطرة على معظم وسائل الإعلام العالمية على هذا الحدث الجلل، وبطبيعة الحال فإن هذا التكتم لم يكن عفوياً بل كان مبيتاً ومع سبق الإصرار، والأمـر لم يكن بالجديد فقد سبق وأن تكتمت تلك المؤسسات علـى مـا حـصل مـن ضربات تعد قاصمة للاقتصاد الأمريكي وبالتحديد بعد عام ٢٠٠٠م وصعوداً، ففي الفترة من ١١/ أيلول ٢٠٠١م وحتى ١١/ أيلول ٢٠٠٢م انهارت وأفلست مجموعة كبيرة من الشركات الأمريكية، قدرت بـ (٦٠) ألف شركة وقد تـمّ تسريح ما لا يقل (١٤٠) ألف عامل أمريكي في تلك الفتـرة (وفقـاً لتقريـر صحيفة " وول ستريت جورنال"..

هذا بالإضافة إلى حالات الإفلاس[١] على المـستوى الشخـصي والتـي سجلت في نفس الفترة رقماً قياسياً للإفلاس بلغ (٣٩١) ألـف حالـة إفـلاس وبخسائر تصل إلى (٨،٦) تريليون دولار وذلك وفقاً لمعطيات لاتحاد أسـواق المال الدولي.. وهنا نبين بعض ما جـرى مـن كـوارث حلـت بالاقتـصاد

---

[١] الإفلاس: هو أن تعلن المؤسسة أنها غير قادرة على الوفاء بالتزاماتها أمام الدائنين، وحينها تقوم الشركة بتصفية كل أملاكها وحساباتها البنكية لتسدد أكبر قدر ممكن من هذه الالتزامات ثم تخرج من سوق العمـل، وعادة يحدث الإفلاس نتيجة قيام الشركات بالاقتراض لعدم توافر السيولة الكافية مع الأخذ فـي الحـسبان إمكانية تسديد هذه الالتزامات في موعدها المحدد عندما تبدأ مرحلة جني عائد المبيعات، ولكن يحدث تغيير في الخطة أو لا يكون العائد المتوقع كافياً بحيث يغطي الالتزامات، فتضطر الشركة إلـى تـصفية بعـض أملاكها لتسديد الالتزامات، فان لم تكف قيمة الأملاك حجم الالتزام مع الآخرين، تعلن الـشركة إفلاسـها، وأحياناً قد يحدث الإفلاس نتيجة التزوير في حسابات الشركة لإخفاء الخسائر، حيث تـسجل الـشركة فـي حساباتها أرباحاً وهمية لتخفي حقيقة أنها تخسر، وذلك حتى لا تسقط أسهمها في البورصة وبالتالي تنخفض قيمة الشركة، ولكن ذلك يؤدي في النهاية إلى فقدان الشركة لرأس مالها شيئاً فشيئاً بدون أن يظهر ذلك على السطح، ثم يحدث فجأة الإفلاس السريع، حيث تجد الشركة نفسها مدينة بالكثير من المـال لحملـة الأسـهم وتكون غير قادرة على تسديده فـتـفلس.

الأمريكي بعد عام ٢٠٠٠م ولغاية الإعلان الرسمي عن الأزمة المالية العالمية المتفشية هذه الأيام:

في عام ٢٠٠١م سجلت شركة "يو أس أيرويز" طلباً لإشهار الإفلاس علماً أن أصولها تقدر بنحو (٧،٨١) مليار دولار مقابل ديون بلغت قيمتها (٧،٨٣) مليار دولار.. وهذه الشركة هي سابع شركة طيران أمريكية، كما أنها تشغل المكانة رقم (١٤) في قائمة كبرى شركات الطيران العالمية وتخدم أكثر من (٢٠٠) موقع داخل الولايات المتحدة وتنظم رحلات جوية للمكسيك وكندا ودول منطقة الكاريبي واعترف مسؤول الشركة بأن خسائرها بلغت ملياراً ونصف مليار دولار في عام ٢٠٠١م..

في كانون الثاني عام ٢٠٠٢م أعلن إفلاس الشركة العملاقة الأمريكية المتحكمة في الطاقة (إنرون) والتي تربعت على عرشها في ولاية تكساس لتدير دفة النفط وما يتبع النفط من طاقة كهربائية هي عصب الصناعة الأمريكية بل الاقتصاد الأمريكي بشكل عام.. و"إنرون" هذه دأبت على تمويل الحملات الانتخابية الرئاسية والبرلمانية بصورة غير متوازنة بين الجمهوريين والديمقراطيين.

إن انهيار "إنرون" دمرت معها إمبراطورية رأسمالية ضخمة تراكمت عبر سبعين عاماً أودعها الأثرياء أموالهم جيلاً بعد جيل، ثقة منهم في مستقبل الطاقة ومستقبل الريادة الأمريكية في حقول نفط العالم، ولم تكن "إنرون" الوحيدة في هذا المصاب بل كانت معها شركات أمريكية عملاقة مثل "جلوبال كروسينج" و"زيروكس" و"أدلفيا كوميونيكيشن" و"باليجرين سيستمز" و"وورلد كوم"..

شهد عام ٢٠٠٢م توقف الكثير من شركات الطيران عن العمل، فقد توقفت شركة طيران أمريكية هي "ميد واي إير لاينز" عن العمل وسرحت

جميع موظفيها والتي تعد ثالث أكبر شركة طيران في العالم، وتوقع جوردون بيتون رئيس شركة كونتيننتال أن يفقد ما بين مائة ومئتي ألف موظف بشركات الطيران حول العالم وظائفهم بسبب الكارثة في ذلك الوقت وقد كانت خسائر قطاع النقل الجوي في الولايات المتحدة سبعة عشر مليار دولار في ٢٠٠١م..

في عام ٢٠٠٥م بلغت الديون الوطنية الأمريكية بحدود ثمانية تريليونات ومائة وثمانين ملياراً من الدولارات وقد أشهر أكثر من مليوني أمريكي ثري إفلاسهم في نفس العام..

وعلى الرغم من هذه الحوادث الجسام وغيرها حاولت الولايات المتحدة الأمريكية إظهار أن الموضوع لا يتعدى مشاكل اقتصادية اعتيادية، إلا أن الأمر لم يكن كذلك على الإطلاق ولم يكن بإمكان أصحاب القرار التكتم على ما يجري من انهيار اقتصادي إلى ما لا نهاية، فقد أزف وقت الفضائح والإعلان عما يجري فقد تعقدت الأمور وبلغت مراحل متقدمة من السوء وظهرت ما يعرف بالأزمة الاقتصادية العالمية عام ٢٠٠٨م التي ظهرت تداعياتها بشكل صريح وواضح في الولايات المتحدة الأمريكية ثم بريطانيا ثم أوروبا ثم انتقلت لبقية بلدان العالم، وهنا اضطر بعض قادة العالم بل وتجرأ بعضهم في انتقاد الولايات المتحدة الأمريكية، فقد قال رئيس الوزراء البريطاني غوردون براون: "الاستهتار داخل الولايات المتحدة بالنظام المالي هو الذي أدى إلى أزمة الائتمان المالي التي يعاني منها العالم"، فقد انهارت أو أفلست شركات ومؤسسات في كل أنحاء العالم، في أمريكا وأوربا وأفريقيا وآسيا ومن تلك الشركات أو المؤسسات:

- بنك الأعمال الأميركي "بير ستيرنز" الذي يعاني من نقص السيولة، اشتراه بنك "جي بي مورغان تشيز" بمساعدة السلطات الفدرالية، وإن تدخل السلطات

الفدرالية في هذا الباب وحده يكفي لإعطاء إشارة إلى حجم الكارثة لأن ذلك يتناقض مع أصل الفكر الرأسمالي..

● المجموعة الأميركية "واشنطن ميوتشوال"، سادس بنك أميركي من حيث الأصول، أعلنت إفلاسها أيلول ٢٠٠٨م، وقد أغلقتها السلطات الأميركية ونظمت التحويل الفوري لودائعها إلى منافسها "جي. بي. مورغان تشيز" مقابل (١،٩) مليار دولار..

● تأميم المجموعة الأميركية العملاقة في مجال التأمين "أي آي جي" في أيلول ٢٠٠٨م لتفادي إفلاسها..

● اشترى "سيتي غروب" مصرف "واكوفيا" رابع بنك أميركي من حيث الأصول..

● بنك الأعمال الأميركي "ليمان براذرز" وضع في ٢٠٠٩م تحت حماية قانون الإفلاس قبل تصفيته، واشترى البنك البريطاني "باركليز" نشاطاته الأميركية، في حين اشترى البنك الياباني "نومورا هولدينغ" النشاطات في أوروبا وآسيا والشرق الأوسط..

● وضعت وزارة الخزانة الأميركية "فاني ماك" و "فريدي ماك"، وهما هيئتان لإعادة تمويل التسليفات العقارية، تحت وصاية الدولة في ايلول ٢٠٠٨م.

● مشروع "سيتي سنتر في ولاية لاس فيغاس" البالغ حجم استثماراته (٨ مليارات دولار)، والذي تملكه "أم جي أم ميراج" و"دبي العالمية"، يطلب النصح بشأن إشهار الإفلاس..

● "الواشنطن بوست" من أشهر الصحف الأمريكية وهي جريدة أمريكية تصدر من العاصمة الأمريكية "واشنطن دي سي" تم تأسيسها عام ١٨٧٧م، أعلنت في آذار عام ٢٠٠٩م لأول مرة منذ إصدارها بتخفيض رواتب موظفيها وتسريح عدد كبير من الموظفين بسبب مشاكل في تسويقها وعزوف

أعداد كبيرة من المشتركين عن الشراء إضافة لمشاكل مالية عالقة مع البنوك بسبب الأزمة المالية.

- أعلنت شركة "جون لانغ هومز" الأمريكية المملوكة بالكامل لشركة "إعمار" الإماراتية إفلاسها مطلع ٢٠٠٩م، وتقدمت بطلب إلى الحكومة الأمريكية لحمايتها من الدائنين، بعد تراجع حاد في مبيعات الوحدات العقارية.
- أعلنت شركة "سيركت سيتي" إفلاسها في مطلع ٢٠٠٩م وشركة "سيركت سيتي" متخصصة ببيع المواد الألكترونية ولديها (٨٥٠) مجمع ضخم في كل أنحاء أمريكا ويبلغ حجم محلاتها مجتمعة أكبر من مساحة دولة صغيرة..
- البنك البريطاني "نورذرن روك" أول مصرف للتسليف العقاري في بريطانيا تؤممه الحكومة البريطانية في شباط ٢٠٠٨م.
- البنك البريطاني "اليانس آند لايسستر": أعلن في تموز ٢٠٠٨م أن بنك "سانتاندر" الإسباني يشتريه بقيمة (١,٣٣) مليار جنيه (١,٦٦ مليار يورو) فقط مع زيادة رأسماله بواقع مليار جنيه ما يعني إفلاس الأول.
- اشترى بنك "لويد تي أس بي" منافسه البريطاني "أتش بي أو أس"، رابع بنك في بريطانيا من حيث الرسملة في أيلول ٢٠٠٨م، كما تم تأميم البنك البريطاني "برادفورد أند بينغلي" وتصفيته في أيلول ٢٠٠٩م، وهو المؤسسة المالية البريطانية الرابعة التي تفقد استقلاليتها منذ بداية أزمة التسليف الدولية.
- أعلن البنك البريطاني "رويال بنك أوف سكوتلاند" الخميس عن تحقيق خسارة صافية بمبلغ (٣٤ مليار دولار) خلال عام ٢٠٠٨م، وهي أكبر خسارة في تاريخ البنوك والشركات البريطانية، كما أعلن البنك وهو ثاني أكبر البنوك البريطانية من حيث الحجم، إنه سيضع مبلغ (٤٦٢ مليار دولار) من الديون المعدومة والمشكوك في تحصيلها في صندوق خاص تضمنه الحكومة البريطانية، وحذر العاملين فيه من إمكانية الاستغناء عن عدد كبير

من الوظائف، وأوضح أنه سيقلص أنشطته التي تمتد إلى ٣٥ دولة، لتتركز أساساً على السوق المحلي، وكان "رويال بنك أوف اسكوتلاند" على وشك الانهيار خلال عام ٢٠٠٨م، واضطرت الحكومة البريطانية للتدخل لإنقاذه بشراء نحو ٧٠% من أسهمه.

- انهارت المجموعة المصرفية والتأمين البلجيكية الهولندية "فورتيس" في أيلول ٢٠٠٨م، حيث أعلن بنك "فورتيس" أن صافي خسائر فرعه بهولندا خلال عام ٢٠٠٨م بلغت (١٨,٩ مليار يورو أي ما يعادل ٢٤,٩٦ مليار دولار)، لكن السلطات في بلجيكا ولوكسمبورغ وهولندا قررت ضخ ما مجموعه (١١,٢مليار يورو) لتمويل "فورتيس" مقابل حصص في رأسمال المؤسسة.
- في آيسلندا، أعلنت الحكومة في أيلول ٢٠٠٩م شراء (٧٥%) من رأسمال "غليتنير"، ثالث بنك في البلاد الذي يعاني من نقص السيولة، بقيمة (٦٠٠ مليون يورو).
- أفلت البنك الألماني الخاص "هيبو ريل إستيت" المتخصص في الشأن العقاري، من الإفلاس في أيلول ٢٠٠٨م بفضل فتح خط ائتمان بقيمة (٣٥ مليار يورو) بكفالة الدولة بصورة رئيسة.
- عانت شركات سيارات عالمية مختلفة وشهيرة جداً من تداعيات مالية كبيرة بسبب الأزمة اضطرتها إلى إعلان إفلاسها أو تأجيل ذلك لوقت قريب ومنها شركات "جنرال موتورز" و"كرايسلر" و"بونتياك" و"فورد" واضطرت الخزينة الأمريكية من دعم بعضها بتقديم مليارات الدولارات كقروض ميسرة لها مع منحها فرصة لوقت محدد كما حصل مع "جنرال موتورز" التي منحت حتى الأول من حزيران ٢٠٠٩م لاستكمال خطة لإعادة تنظيم نفسها أو إنها تقوم باستعدادات مكثفة ودؤوبة لإعلان الإفلاس ولكن هذا الإجراء أدى إلى نتائج

سلبية، حيث هبطت أسهم هذه الشركة بشكل كبير بسبب ذلك فتعقدت المشكلة أكثر، علماً إن "جنرال موتورز" سجلت خسائر قدرها (٣١ مليار دولار) عام ٢٠٠٨م وسرحت (٢١ ألف) موظف وخسرت (٦ مليارات) دولار خلال الربع الأول من عام ٢٠٠٩م، ورغم كل تلك الإجراءات الاحترازية أعلنت الشركة إفلاسها رسمياً في حزيران ٢٠٠٩م، كما أقرت أوروبا في مجال دعم صناعة السيارات قروضاً بقيمة (١،٢ مليار) دولار لدعم شركات صناعة السيارات المضطربة في أوروبا في ظل مخاوف من احتمالات إشهار إفلاس شركة "جنرال موتورز" بسبب عدم تحقيق تقدم في إعادة هيكلة الشركة المتعثرة.. وأما شركة "كرايسلر" الأمريكية لصناعة السيارات فقد أعلنت إفلاسها وقدمت الحكومة الأمريكية لها قرضاً بقيمة ثماني مليارات دولار هي المحاولة الأخيرة لإعادة هيكلتها، وقد توصلت "كرايسلر" وشركة "فيات" الإيطالية لصناعة السيارات إلى اتفاقية للاندماج بينهما بحيث تمتلك فيات (٢٠%) من أسهم "كرايسلر" ويمكن رفعها إلى (٣٥%) لاحقاً، وفي نفس السياق فإن شركة "فيات" الإيطالية الشهيرة لصناعة السيارات تركت في عام ٢٠٠٩م الباب مفتوحاً أمام إغلاق مصانع تابعة للشركة لظروف مالية قاسية تمر بها الشركة بسبب الأزمة المالية، وقال رئيس الشركة إنه لا يستبعد إمكان غلق مصانع في إيطاليا، ويعمل لدى شركة "فيات" (٧٨ ألف) شخص، وقد اضطرها تراجع المبيعات إلى تقليص رواتب الموظفين، أما شركة "تويوتا" اليابانية الشهيرة التي تعتبر أكبر منتج للسيارات في اليابان فقد أعلنت في آيار ٢٠٠٩م إنها سجلت أول خسارة سنوية في تاريخها حيث منيت في صافية بقيمة (٤،٤ مليارات) دولار..

• الشركات المفلسة في فرنسا خلال (١٢ شهراً) من إعلان الأزمــة الماليــة العالمية (٥٣,٦٤٠ شركة) وهو أعلى مستوى في عشرة أعوام وأسرع وتيرة منذ عام ٢٠٠٢م.

• أعلنت حوالي (١,٠١٠) شركات يابانية إفلاسها قبل نهاية عام ٢٠٠٨م وقد اضطر هذه الشركات للقيام بهذه الخطوة لأسباب عدة علــى رأســها تأثرهــا بالأزمة الاقتصادية.

• في نيسان عام ٢٠٠٩م أعلنــت اثنتــان مــن كبــرى شــركات صــناعة الإلكترونيات في العالم "توشيبا" و"سوني أريكسون"، عن خفض الآلاف مــن قواهما العاملة بتأثير الأزمة الاقتصادية الطاحنة التي أدت لانكماش حاد فــي سوق العمل بكافة أنحاء العالم.

نتائج الأزمة المالية

أما هذه التداعيات الكبيرة المتمثلة في أكبر عمليات الإفــلاس والخــسائر الهائلة لكبرى مؤسسات العالم الاقتصادي الرأسمالية فإن هناك كوارث ماليــة واقتصادية لا تطال مالكي هذه الشركات والمؤسسات فحسب وإنما قد طالــت وللأسف الجماهير الكادحة وحين نراجع لبعض ما حصل من آثارهــا فإننــا نجد:

• قال الرئيس الأمريكي المنتخب أوباما في أول ظهور صحفي رسمي وفــي أول خطاب أن لديه (١٠ ملايين) عاطل عن العمل، وهي تركت الأزمة لعام ٢٠٠٨م إضافة إلى ذلك فإن مليوني أمريكي فقدوا وظائفهم فــي أول ثلاثــة أشهر من عام ٢٠٠٩م، وقد أظهرت بيانات حكوميــة أمريكيــة أن أربــاب الأعمال الأمريكيين خفضوا (٦٦٣ ألف) وظيفة خلال شهر واحد هــو شــهر آذار ٢٠٠٩م فقط، كما أكد المدير العام لمؤسسة "إنتر ميديا" في أيار ٢٠٠٩م

أن هناك حالياً (٢٨ مليون) عاطل بالولايات المتحدة منهم (١٣،٢ مليون عاطل) رسمياً إضافة إلى (١٤،٦ مليوناً) لا يدخلون في حساب العاطلين "لأسباب سياسية" لكنهم عاطلون بالفعل، وفي ذلك دليل واضح على أن الأزمة ماضية بقوة بالتأثير على الاقتصاد الأمريكي والعالمي دون هوادة كمسرى النار في الهشيم..

• خلال مرحلة ما قبل انهيار المصارف الأمريكية، حذّر المراقبون مراراً من أنّ الأسوأ من أزمة الائتمان لم يأت بعد، وبالفعل فقد ظهر ذلك مع تراجعات حادّة في بورصات العالم أدّت إلى خسائر قياسيّة، أمّا المرحلة الحاليّة، فتفترض بحث الخسائر الحقيقيّة التي ستولّدها الأزمة، وعلى رأسها ارتفاع معدّلات البطالة فمن المتوقع أن تصل معدلات البطالة إلى (٢١٠ ملايين عاطل) من العمل على مستوى العالم خلال عام ٢٠٠٩م..

• حذر رئيس البنك الدولي في نيسان ٢٠٠٩م من تعرض أكثر من (٩٠ مليون) إنسان في العالم للفقر هذا العام بسبب الأزمة العالمية، وإن أكثر من ثلثهم بشرق أوروبا وآسيا الوسطى، متوقعاً أن يصل عدد الجياع إلى مليار جائع على مستوى العالم..

• في مطلع ٢٠٠٩م تشير الإحصائيات الرسمية أن في بريطانيا بلغ عدد العاطلين عن العمل في المملكة المتحدة (٢،٠٣ مليون) شخص، أي ما نسبته (٦،٥%)..

• قال مكتب الموازنة بالكونغرس الأمريكي إن عجز الموازنة وخلال العام الحالي ٢٠٠٩م سيشهد قفزة عالية وقد يرتفع على إثرها إلى ما بين (١،٦٧ تريليون و١،٨٥ تريليون دولار) وهو أعلى عجز في تاريخ الولايات المتحدة.. ما يعني ذلك المزيد من الضرائب على المواطنين والقصور في الخدمات بشكل عام وتوقف المشاريع التنموية..

• خسر العالم (٥٠ تريليون) دولار من قيمة أصـولـه الماليـة خـلال عـام ٢٠٠٨م، من بينها (٩،٦ تريليونات) دولار في آسيا وحدها بـسبب الأزمـة المالية العالمية، فيما سجلت اليابان صاحبة أكبر اقتصاد في القارة أول عجـز في حسابها الجاري منذ ١٣ عاماً..

• توقع تقرير خليجي أن يبلغ العجز في الحسابات الجاريـة لـدول مجلـس التعاون الخليجي ثلاثين مليار دولار خلال العام الجاري، بعد أن كان الفائض أربعمائة مليار دولار في العام الماضي، مؤكداً أن تداعيات الأزمـة الماليـة بدأت تظهر جلية في الفترة الماضية..

• التدفقات الرأسمالية الخاصة إلى الأسواق الناشئة والبلدان الناميـة تتنـاقص إلى درجة الاختفاء، ويقدر معهد التمويل الدولي أن هذه التدفقات تراجعت إلى (٤٦٧ مليار) دولار عام ٢٠٠٨م، أي نصف مستواها عام ٢٠٠٧م، وتـشير التوقعات إلى أنها ستواصل الهبوط إلى (١٦٥ مليار) دولار عام ٢٠٠٩م..

• في ظل الأزمة المالية الراهنة، يتوقع خبراء انهيار قرابة (١٠٠ مؤسـسة) مالية حتى نهاية العام الحالي، في حال استمرار تهاوي المصارف الأمريكيـة على ذات الوتيرة الراهنة، وبسيطرة السلطات الفيدراليـة المنظمـة للقطـاع المصرفي على مصرف "سيلفر فولس" بأوريغون بلغ عدد المـصارف التـي أعلنت إفلاسها خلال الأسابيع الستة الماضية ١٤ مصرفاً..

• أعربت منظمة العمل الدولية التابعة للأمم المتحدة في مطلع عـام ٢٠٠٩م عن مخاوفها إزاء التسارع في شطب الوظائف بالقطاع المالي، مشيرة إلى أن من شأن ذلك أن يؤثر بصورة غير مباشرة على الاقتصاد الأوسع في المراكز المالية مثل نيويورك ولندن..

وكما طالت الأزمة عامة الناس فقد طالت أيضاً أغنياء العالم وإنمـا هـي من فعالهم فقد ذكرت مجلة "فوربس" أن (٣٠%) من أعضائها المليـارديرات

قد فقدتهم، وتبخر مبلغ نحو تريليوني دولار من ثروات هؤلاء، بينما تقلص عدد المليارديرات بمقدار (٣٥٥) عضواً منهم بسبب فقدان ثرواتهم، بينما توفي (١٨) منهم، ومن أولئك الأثرياء الذين خسروا جزءاً كبيراً من ثرواتهم "بيل غيتس" الشريك المؤسس لمجموعة مايكروسوفت والذي حقق خسارة قدرها (١٨ مليار) دولار من ثروته بسبب انخفاض أسعار الأسهم عام ٢٠٠٨م، وكذلك "كارلوس سليم" الذي خسر (٢٥ مليار) دولار، أما "وارين بافيت" فقد خسر (٢٥ مليار) دولار، وغيرهم الكثير، وكشفت صحيفة "صنداي تايمز" عن خسائر أكبر عشرة أثرياء في بريطانيا، حيث بينت أن خسائر العشرة الكبار فقط تجاوزت (٢٣ مليار) جنيه إسترليني (حوالي أربعين مليار دولار)..

علاجات تخديرية

أمام هذه التداعيات الشديدة التي تمثلت بالانهيار المروع لكبرى المؤسسات المالية والصناعية والتجارية في العالم حاولت الدول الكبيرة وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية اتخاذ إجراءات لم تتعدَ ضخ السيولة بكميات هائلة، وهذا العلاج من وجهة نظري هو علاج تخديري لفترة قد تطول أو تقصر وتحدث بعدها الكارثة فعلى سبيل المثال وليس الحصر:

- أقر الكونغرس الأمريكي، بمجلسيه الشيوخ والنواب، خطة " تحفيز الاقتصاد" التي اقترحها الرئيس باراك أوباما بقيمة (٧٨٧ مليار) دولار في محاولة لإنعاش اقتصاد الولايات المتحدة الذي يعاني تراجعاً حاداً.
- توصل زعماء دول العشرين إلى اتفاق قيمته (١،١ ترليون) دولار لمعالجة آثار الأزمة الاقتصادية العالمية في قمتهم التي عقدوها في نيسان ٢٠٠٩م في العاصمة البريطانية، كما تعهدت قمة العشرين بتنفيذ أكبر خطة تحفيز

للاقتصاد العالمي وضخ أكثر من (٥ تريليون) دولار لحل المشاكل الاقتصادية، كما قررت القيام بدعم التجارة العالمية لأنها إحدى أهم أسباب التطور الاقتصادي.

- كشفت وزارة المالية اليابانية عن خطط لإعداد موازنة تكميلية للعام المالي ٢٠٠٩م مع حزمة حوافز اقتصادية بأكثر من (١٠ تريليونات ين أي ما يعادل ١٠٠ مليار دولار) لانتشال الاقتصاد من حالة الركود التي يعاني منها، ثم صرح بنك اليابان بأنّه سيقوم بتقديم منح مالية بقيمة تزيد على (١٠ مليارات) دولار أمريكي على شكل قروض إلى البنوك، على أمل دعم الأسواق الإقليمية وتخفيف آثار الأزمة الاقتصادية.
- خصص البنك الدولي مبلغاً قدره (١٨ مليار) دولار خصص لمعالجة هذه الأزمة على الصعيد العالمي، منها (ملياراً و ٢٠٠مليون) دولار لمساعدة تلك البلدان الأشد تضرراً من ارتفاع أسعار المواد الغذائية في عام ٢٠٠٨م.
- أطلق الرئيس البرازيلي "لويس إيناسيو لولا داسيلفا" خطة لإنعاش قطاع العقارات بقيمة (١٥ مليار) دولار، تهدف إلى تحفيز قطاع التشييد في ظل تباطؤ الاقتصاد العالمي، ويؤمل أن تخفف الخطة من حدة العجز الهائل في عدد الوحدات السكنية بالبرازيل..
- اتفقت بلدان جنوب شرق آسيا بالإضافة إلى الصين واليابان وكوريا الجنوبية عقب اجتماعهم في تايلند في شباط ٢٠٠٩م، على الرفع من قيمة اعتمادات صندوق الطوارئ ليصبح (١٢٠ مليار) دولار لمعالجة الأزمة..

إن هذه الإجراءات تؤكد حقيقة دامغة في محورين، **المحور الأول:** أن هذه الإجراءات تمثل ضربة قاصمة للنظرية الاقتصادية الرأسمالية التي تأسست عليها العولمة ونظّر وروّج لها النظام الرأسمالي مراراً وتكراراً والتي تقوم على إعطاء صلاحيات غير محدودة لمؤسسات القطاع الخاص كي

تتصرف كما تشاء لتحقيق الكفاءة القصوى بأقل التكاليف، وتبين أن نظرية (دعه يعمل) كانت مجرد هراء وهباء.

أما **المحور الثاني** في القضية أنها تأتي في وقت الذروة للتربع الأمريكي الرأسمالي على العرش الدولي دون منازع والذي تأكد بصورة جلية عقب أحداث أيلول ٢٠٠١م، وهنا لابد من الإشارة إلى أن هذه الأزمة قد تمثل بداية النهاية للازدهار الاقتصادي الأمريكي الذي دام لسنوات طويلة مما قد يترتب عليه في الأمد الطويل أفول النجم الأمريكي عن السماء العالمية وفي كل الصعد الاقتصادية والسياسية والعسكرية..

إن ضخ الأموال بهذا الشكل سيؤدي بالتأكيد إلى زيادة التضخم وسيعزف المستهلكون عن شراء السلع فيحصل الكساد في السلع ثم يعقبها الركود الاقتصادي فتوقف الشركات والمؤسسات ويعود الحال إلى نقطة البداية ما يعني الدوران في حلقة مفرغة.. وهذه الخطة لن تكون ذات فاعلية في إنعاش النمو الاقتصادي المصاب بالخمول كما ستكون ظالمة من الناحية الاجتماعية لأن من شأنها أن تعود بالنفع على أكثر الطبقات ثراء في المجتمع الأميركي.

المنظور الإسلامي للأزمة المالية

ترى الشريعة الإسلامية أن التعامل مع المال كوسيلة للحياة أمر لابد منه ولكن بشرط أن يراعي هذا النوع من التعامل مصالح الآخرين، يقول النبي صلى الله عليه وسلم: "لاَ حَسَدَ إِلاَّ فِي اثْنَتَيْنِ رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالاً فَسَلَّطَهُ عَلَى هَلَكَتِهِ فِي الْحَقِّ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ حِكْمَةً فَهْوَ يَقْضِي بِهَا وَيُعَلِّمُهَا"(١)، فوجود المال بيد الإنسان يدعو للغبطة ولكن حين يُتعامل معه بالحق ويكون لصالح

(١) رواه البخاري/ كتاب الزكاة/ باب إنفاق المال في حقه.

الشعوب، وعلى ضوء ذلك يكون التعامل معه على أساسين، أولهما: اكتساب المال، وثانيهما: إنفاق المال، ولابد أن يكونا هذين الأساسين صحيحين وإلا فإن البناء الذي يكون أساسه هشاً فإن مصيره إلى زوال يقول تعالى: ﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾[1].

ويقول النبي صلى الله عليه وسلم: "لاَ تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمْرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ وَعَنْ عِلْمِهِ فِيمَا فَعَلَ وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَا أَنْفَقَهُ وَعَنْ جِسْمِهِ فِيمَا أَبْلاَهُ"[2]. وفي كلا الحالتين من المفروض أن تكون الوسائل للاكتساب أو الإنفاق مشروعة، والمقصود بالمشروعة هي التي تتحدد بضوابط الشريعة الإسلامية وهي بطبيعة الحال تحقق مصالح الأشخاص أو المؤسسات لأن الشريعة الإسلامية أصلاً وجدت لتحقيق مصالح العباد وجاءت لحفظ ضروريات الحياة والتي منها مال الإنسان وحين نقول أن الإسلام هو الحل فإنه يتخذ من المنظومة الاقتصادية بمجملها من أجل حلها وليس تناول الجزئيات والنظر فيها وحلها حلاً جزئياً ووقتياً، فنجد أن الشريعة الإسلامية تطالب وبشدة مراعاة الجانب الإيماني وهو تطبيق ما أمر الله به وبعكسه فإن النتائج ستكون وخيمة، وهذا ما حصل بالفعل فبحسابات منطقية بالإمكان أن تحدث أزمة وتخسر شركات ومؤسسات وقد تنبأ بالفعل بعض المختصين بهذا، ولكن لم يتوقعوا بهذا الشكل الكارثي فالأمر لا شك ويعلمه المختصون أن هناك قوة عظمى تدخلت لإحداث هذا العطب الهائل في العملية الاقتصادية العالمية، وحين نتكلم عن رؤوس الأموال في النظام الرأسمالي بشكل عام

---

(٢) سورة التوبة/ الآية (١٠٩).

(٣) رواه الترمذي برقم (٢٦٠٢).

وفي الاقتصاد الأمريكي بشكل خاص نجد أن رؤوس الأموال تتداول بين أشخاص أو شركات بينما لا يجد عامة الناس ما يؤمن لهم الحياة المحترمة الكريمة وهنا يشخص "ابن خلدون" رحمه الله العلة ويشير إلى أن نقص المال بعد كثرة يأتي من أسباب:

١- تكثير الوظائف التي تكون في خدمة الملِك وأمنه.

٢- ترف الدولة وصرفها الأموال في أبواب لا تخدم الرعية.

٣- تجارة السلطان وهي أعظم الآفات التي تذهب بركة مال الدولة، حيث تختل الجباية (للمحسوبية) وتنتزع مصادر الرزق من أيدي الرعية وهذه الأسباب واضحة جلية في الأنظمة الرأسمالية.

كما ولابد من الإشارة إن الاكتساب غير المشروع للأموال (أموال السحت) سواء كان على مستوى الحكومات أو المؤسسات أو الأفراد لها نفس التأثير في محق وزوال بركة الحياة بشكل عام والأموال بشكل خاص، يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾[1].

فمن وجهة نظر إسلامية وجود نسبة وإن كانت قليلة غير مؤثرة في الحسابات المادية من المال الحرام كفيلة بتدمير وفناء كم هائل من رأس المال وكما يقول أحد العلماء (إن درهماً واحداً من الحرام يهلك ألف درهم من الحلال)، وهذا هو أحد أسباب الأزمة المالية الاقتصادية وبالتالي فإن آثار الأزمة لم تطل مسببها فقط وإن نال القسط الأكبر من ذلك بل طالت السواد الأعظم من الشعوب..

---

[1] سورة الأنفال/ الآية (٢٥).

المحور الأول: اكتساب المال

فمن أمثلة طرق اكتساب الأموال في الأنظمة الرأسمالية السائدة في العالم اليوم:

الربا: فكل البنوك في الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا وبقية العالم بل وقسم كبير منها في العالم الإسلامي وللأسف قائمة على أساس التعامل الربوي (الفائدة) لمن يودع رؤوس أموال لديها وكذلك تمنح قروض ربوية للآخرين، وبهذا الوصف يكون الربا عندها بوجهين ما يعني أنها تمنح نسب ربوية لمن يودع أموال لديها وتقرض الآخرين مقابل نسب ربوية.. يقول تعالى: ﴿ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴾[1]، والمحق هو الإبطال والمحي، ومن الضروري أن يذكر في هذا الباب صندوق النقد الدولي المرتبط بالولايات المتحدة الأمريكية وسياساتها المالية والذي يقوم بمنح الكثير من الدول قروضاً مقابل فوائد تبقى متراكمة إلى مالا نهاية، وسبب ذلك إن هذه الفوائد (الربا) غير ثابتة فهي تزداد كلما عجز المستفيد من القرض على التسديد وبالتالي يبقى يسدد فوائد متراكمة ومركبة لسنين طويلة، وهذا أحد أسباب النهي عن الربا في الإسلام الذي يرى أنه من أبشع وأخس التعاملات المادية يقول تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾[2]، ولو لم يكن الربا فيه من الأضرار الهائلة على الأفراد والأمم لما جعل الله المتعامل فيه في نطاق الحرب من الله..

---

[1] سورة البقرة/ الآية (٢٧٦).

[1] سورة البقرة/ الآيات (٢٧٨- ٢٨١).

ولقد أعطت هذه الأزمة برهاناً ساطعاً على خطر الربا وما يترتب عليه من أضرار، وهو دليل واقعي رآه الجميع رأي العين، وقد نهى الرسول (صلى الله عليه وسلم) عن الربا وهو في مجتمع صغير وبسيط ولا يتعدى عدد سكانه الآلاف وليس فيه من الأموال إلا القليل وحجم التعاملات المالية والاقتصادية بكل أنواعها محدودة، فكيف حين يكون الحال والتداول به مع ملايين البشر وبرؤوس أموال ليس لها حصر وبمعاملات تجارية لا تعد ولا تحصى ..

ولعل ما ذكره الإمام الفخر الرازي في تفسيره عن حقيقة الربا خير ما يذكر في هذا الباب فيقول رحمه الله:

أولاً: إن الربا يقتضي أخذ مال الإنسان من غير عوض، لأن من يبيع الدرهم بدرهمين يحصل له زيادة درهم من غير عوض ومال الإنسان متعلق بحاجته، وله حرمة عظيمة، كما في الحديث: "حرمة مال المؤمن كحرمة دمه"[(١)]، فوجب أن يكون أخذ ماله من غير عوض محرماً.

ثانياً: إن الاعتماد على الربا يمنع الناس عن الاشتغال بالمكاسب وذلك لأن صاحب الدرهم إذا تمكن بواسطة عقد الربا من تحصيل الدرهم الزائد نقداً كان أو نسيئة، خفٍّ عليه اكتساب وجه المعيشة، فلا يكاد يتحمل مشقة الكسب والتجارة والصناعات الشاقة وذلك يفضي إلى انقطاع منافع الخلق، ومن المعلوم أن مصالح العالم لا تنتظم إلا بالتجارات والحرف والصناعات والعمارات ولا شك أن هذه الحكمة مقبولة من الوجهة الاقتصادية..

ثالثاً: إنه يفضي إلى انقطاع المعروف بين الناس من القرض؛ لأن الربا إذا حرم طابت النفوس بقرض الدرهم واسترجاع مثله، ولو حل الربا لكانت

---

(١) رواه الدارقطني في سننه برقم ٢٩٢٧.

حاجة المحتاج تحمله على أخذ الدرهم بدرهمين، فيفضي ذلك إلى انقطاع المواساة والمعروف والإحسان..

ونضيف على ما قاله الفخر الرازي فإنه في كل الأحوال يكون أحد الطرفين خاسراً ومغبوناً حقه، لأن النسبة الربوية المقررة لا تمثل حقيقة الربح المتأتي من عملية استثمار هذا المال فلو كانت أقل كان صاحب المال مغبوناً ومظلوماً ولو كانت أكثر من الاستحقاق كانت المؤسسة المالية هي المغبونة.. بينما يسعى الإسلام إلى العدل المطلق وإعطاء كل ذي حق حقه وهذا من المستحيل أن يتحقق في ظل النظام المالي الذي أساسه الربا..

تسخير ثروات الآخرين لصالح الدول الرأسمالية: ويتم ذلك عن طريق تكبيل دول العالم باتفاقيات تجارية تمنعهم من بيع ثرواتهم ومنتجاتهم بالأسعار والكميات التي تناسبهم، ومثال ذلك ما يحدث في منظمة (أوبك) للدول المنتجة للنفط فيما يتعلق بأسعار وكميات النفط المصدر من قبل الدول المنتجة الأعضاء في المنظمة، فحين هبط سعر البرميل الواحد للنفط أكثر من (١٠٠ دولار) في فترة قياسية فهذا يعني خسارة الدولة التي تصدر (٢ مليون) برميل في اليوم ما مقداره (٢٠٠ مليون) دولار يومياً أي بحدود (٦٠ مليار) دولار سنوياً (علماً أن الأسعار والكميات تتحكم فيها منظمة أوبك)، وكذلك اتفاقيات منظمة التجارة العالمية التي من شأنها في العادة أن تحول رؤوس الأموال من الدول المنتجة إلى الولايات المتحدة الأمريكية وأوربا وبطرق ملتوية وبأساليب خبيثة تتعلق بالاستيراد والتصدير من حيث السماح لبعض المنتجات والمواد الخام وعدم السماح لأخرى، ومهما تغيرت هذه الأساليب فهي سرقة، يقول تعالى: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ

أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[1]، فلابد أن يعي العالم المتسلط أن سرقة أموال الشعوب إنما هي طريق الشيطان لأن فيها أذى البسطاء من الناس يقول تعالى: ﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾[2] ما يعني أن هذا الطريق نهايته الفقر..

الأموال المكتسبة من نشر كل ما من شأنه إفساد الناس: ونشر ثقافة الإباحية بينهم، كالمواقع الإباحية من فضائيات ومواقع انترنت وكذلك مصانع الخمور والمخدرات المنتشرة في العالم وكذلك بمرتبة أقل مصانع إنتاج السجائر في العالم وهذا كله من باب الإفساد في الأرض، يقول الله تعالى: ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾[3]..

الأموال المكتسبة من عمليات الخديعة والغش: ومن ذلك عقد صفقات بيع كبيرة جداً وبمبالغ هائلة الغرض منها استنزاف ثروات الشعوب من أجل عدم الاستفادة منها في مشاريع تعود بالنفع على تلك الشعوب، ومثال ذلك بيع أسلحة لدول معينة بعد أن تصنع الولايات المتحدة خصماً وهمياً لتلك الدول فتبيعها أسلحة ربما لن تستخدمها أبداً، وتشير مراكز الدراسات المتخصصة بأن أكبر صفقات أسلحة قيمتها عشرات المليارات من الدولارات أبرمتها دولتين خليجيتين، وكذلك خلق حالة حرب بين دولتين لترويج الأسلحة كما حصل في حرب العراق مع إيران.. وفي نفس الباب الأموال المستحصلة من عمليات غسيل الأموال، وهذه في حقيقتها أموال مسروقة أو من طرق غير

---

[1] سورة البقرة/ الآية (١٨٨).

[2] سورة البقرة/ الآية (٢٦٨).

[3] سورة الروم/ الآية (٤١).

مشروعة ويبلغ حجم الأموال المغسولة في العالم على مستوى العالم (٣ تريليون)[1] دولار في العام..

الحصول على أموال نتيجة السرقات الخفية والعلنية: من أموال الشعوب وبطريقة يتم فيها الإعلان عنها باعتبارها أعمالا خيرية يكون في النتيجة غطاء لما صار يعرف (الفساد الإداري والمالي) الذي تسوق له الإدارة الأمريكية والدول التي تدور في فلكها من خلال مشاريعها المعلنة والمخفية لنشر الديموقراطية المزعومة، ومثال ذلك ما جرى في العراق فقد ابتلعت مئات المليارات (باعتراف قيادات أمريكية) من أموال العراق أو من أموال الدول المانحة خلال فترة احتلال العراق تحت شعار (حملة إعمار العراق) وفي حقيقتها سرقة ثروات الشعب العراقي.. وقبلها في مرحلة الحصار الجائر على العراق حيث يقول "بيتر ايجن" رئيس منظمة الشفافية الدولية: "لقد أظهرت الفضيحة التي تم الكشف عنها في البرنامج الممول من قبل الأمم المتحدة (النفط مقابل الغذاء) والخاص بالعراق الحاجة الملحة لوضع قوانين صارمة فيما يتعلق بتضارب المصالح، وأهمية الانفتاح في عملية المناقصات، وكما يقول "راينود ليندرز" و"جستن الكساندر" في تقرير الفساد لعام ٢٠٠٥م، إن أغلب الأموال المتوقع إنفاقها في عمليتي البناء والشراء في العراق لم يتم إنفاقها بعد فإذا لم تتخذ خطوات سريعة سيصبح العراق عندئذ أكبر فضيحة فساد في التاريخ..

ولقد تسربت وثائق في السنة السادسة لاحتلال العراق عن حجم هذه السرقات فلو ضربنا مثلاً لحالة واحدة فتشير إلى فقدان (١٢٠ مليار) دولار من الأموال العراقية ولتوضيح الأمر أكثر من ناحية حجم هذه السرقات في

---

[1] التريليون يساوي ألف مليار دولار.

هذا الباب، فإن الموازنة السنوية العامة لبعض الدول بحدود ٥ مليارات دولار، فهذا يعني إن الأموال التي تم سرقتها في العراق تكفي لدولة من تلك الدول لمدة تزيد على ٢٠ سنة فقط!!.

المحور الثاني: محور الإنفاق

ولو أردنا أن نستعرض بعض محاور الإنفاق في السياسة الاقتصادية الرأسمالية التي تمثل الولايات المتحدة الأمريكية رأس الحربة فيها نستطيع أن نحدد بعضاً من هذه المحاور وهي:

الحروب: كشف الاقتصادي الأمريكي البارز الحائز على جائزة نوبل للسلام "جوزيف ستيغليتز"، في كتاب جديد أن تكلفة حرب العراق التي تدخل عامها السادس في ٢٠٠٨م، تضاعفت ثلاثة مرات عن الأعوام السابقة، لتصل إلى (١٢ مليار) دولار شهرياً في العام الحالي، وتوقع "سيتغليتز" و"ليندا بيلميز" الكاتبة المساعدة أن حربا العراق وأفغانستان بالإضافة إلى تواجد عسكري طويل المدى في الدولتين تكلف الخزانة الأمريكية ما بين (١،٧ تريليون) دولار إلى (٢،٧ تريليون) دولار، أو أكثر بحلول عام ٢٠١٧م، وذلك في "أفضل الأحوال" وحال تطبيق سيناريوهات "واقعية ومعتدلة".

وقد تضيف الفائدة على قروض تمويل الحرب تلك وحدها مبلغ (٨١٦ مليار) دولار إلى التكلفة، لقد بدأ أصحاب الاقتصاد بحساب هذه التكاليف على مستوى اليوم والساعة والدقيقة وفي ذلك دلالة على ضخامة هذه الكلف، ولمزيد من المعلومات عن حجم الإنفاق العسكري الأمريكي تظهر لنا في الجدول الآتي:

السنة	الحرب على العراق ألف دولار/ دقيقة	الحرب على الإرهاب ألف دولار/ دقيقة	ميزانية الدفاع الأمريكي
٢٠٠٣م	٩٣	٥٤	٤٣٨
٢٠٠٤م	١١١	٧٤	٤٤٨
٢٠٠٥م	١٦٤	١٠٠	٥٠٧
٢٠٠٦م	١٨٨	١١٦	٥٣٦
٢٠٠٧م	٢٤٥	١٦٦	٦١١
٢٠٠٨م	٣٧١	١٩٥	٦٥٠

جدول يمثل حجم الإنفاق العسكري الأمريكي مجلة "الفور بوليسي" عن مكتب خدمات البحث بالكونغرس

يقول الله جل وعلا: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴾[1]..

الإنفاق بسبب النتائج العكسية لنشر الفساد.. من السياسات المستهجنة من قبل القوى العالمية التي تحاول السيطرة على مقدرات الشعوب هي نشر الإباحية بين أفراد الشعوب بل وحتى شعوبها من أجل إشغالها والسيطرة عليها، وبالرغم من إن هذه الأمور لها تكاليفها الخاصة والتي لها ثقلها في المجال الاقتصادي إلا أن نتائجها تكون سلبية وتكاليفها أكبر بكثير فتشير الدراسات الطبية في هذا المجال أن متوسط تكلفة معالجة (وليس شفاء) شخص مصاب بالإيدز حتى يتوفى تبلغ (١٢٠ ألف) دولار.. وتشير الدراسات إلى أن عدد المصابين بالمرض حول العالم عام ٢٠٠٧م وصل إلى

---

[1] سورة الأنفال/ الآية (٣٦).

(٣٣ مليون) شخص، من بينهم (٢،٧ مليون) من المصابين الجدد ووفاة مليونين.

الإنفاق الناتج عن إدمان الخمور والتدخين، فالمشاكل الاقتصادية والخسائر التي تعود على الدول بسبب تناول شعوبها الخمور كثيرة وكبيرة، فالعالم يخسر من جرّاء تناول الخمور بحدود (١٦٦ مليار) دولار سنوياً كما تقدرها منظمات الصحة العالمية.. كما وتشير المنظمة إلى أن ثلث أسرّة المستشفيات في الدول الصناعية يشغلها مرضى الخمر، وتصرف دولة مثل بريطانيا (١٦٤ مليون) جنيه إسترليني سنوياً لعلاج مرضى الخمر، حيث يقبع في المستشفيات العقلية والنفسية في إنجلترا ما يقرب من العشرين إلى الثلاثين ألف شخص بسبب الخمر، أما في مجال التدخين فهناك (مليار و ٣٠٠ مليون) مدخن في العالم.. والتدخين له تكاليف باهضة فعلى سبيل المثال وحسب آخر الدراسات الحديثة يكلف التدخين الولايات المتحدة بحدود (٦ مليارات) دولار سنوياً، بينما يكلف المملكة الأردنية الهاشمية (٦٠٠ مليون) دولار من جراء الأمراض والمشاكل الصحية الناجمة عنه..

الهدر بشكل عام: تقول منظمة الشفافية الدولية: "يعتبر الفساد في المشاريع العامة الكبيرة الحجم عقبة كبيرة أمام التنمية المستدامة"، على حد قول السيد "بيتر ايجن" رئيس منظمة الشفافية الدولية، ويضيف "ايجن": "إن الفساد في عملية إبرام وتنفيذ العقود يعتبر كارثة كبيرة على الدول المتطورة والنامية على حد سواء"، ويضيف: "عندما تكون الرشوة كبيرة ويغلّب الإنسان المال على القيم، تكون النتيجة إنشاءات رديئة الجودة وإدارة ضعيفة للبنى التحتية، إن الفساد مضيعة للمال، ونهب لموارد الدول، وتؤدي إلى قتل الأرواح في الكثير من الأحيان، ويقول ايجن: "يجب المحافظة على الأموال والمعونات المخصصة لمشاريع إعادة البناء في بعض الدول مثل العراق من خطر

الفساد"، ويضيف قائلاً: "يجب أن تكون الشفافية الشعار الأول، وخصوصاً في هذا الوقت الذي تقوم فيه الدول المانحة بضخ مبالغ هائلة، ويُظهر التقرير أيضاً الحاجة الملحة للحكومات والشركات الدولية من أجل ضمان الشفافية في عمليات الإنفاق العام من أجل القضاء على ظاهرة الرشوة على المستويين الداخلي والخارجي، لهذا نجد أن تقارير منظمة الشفافية الدولية تشير إلى نسب فساد وهدر مرتفع في الدول التي تعاني من ارتباط اقتصادها باقتصاد دول رأسمالية كالولايات المتحدة الأمريكية وذلك هو السر في أن العراق من أولى البلدان التي تمتاز بأعلى درجات الفساد في العالم.. بينما يحدث العكس في دول أخرى أشارت التقارير أنها من أفضل البلدان المصنفة كدول نظيفة ومنها الدنمارك والسويد ونيوزيلندا..

الحل الإسلامي

حين نتكلم عن الحل الإسلامي للأزمة المالية العالمية فإننا نتكلم عن منظومة اقتصادية متكاملة ومرتبطة الحوادث، ولا نزعم أن الحل يكمن في لمسة عصا، وإنما يقدم الاقتصاد الإسلامي الحلول وأنظمة العمل التي بالإمكان تطبيقها تدريجياً للوصول للحالة المثلى للبشرية في الجانب الاقتصادي، وهذا الموضوع لم يتناوله الإسلاميون فقط بل يرى غير الإسلاميين أن الحل بجعبة الإسلام، ففي افتتاحية كبرى المجلات الاقتصادية في فرنسا "تشالينجز" في ١١ أيلول ٢٠٠٨م كتب رئيس تحريرها "بوفيس فانسون" موضوعاً بعنوان (البابا أو القرآن) قال فيه: "أظن أننا بحاجة أكثر في هذه الأزمة إلى قراءة القرآن بدلاً من الإنجيل لفهم ما يحدث بنا وبمصارفنا، لأنه لو حاول القائمون على مصارفنا احترام ما ورد في القرآن

من تعاليم وأحكام وطبقوها ما حل بنا ما حل من كوارث وأزمات وما وصل بنا الحال إلى هذا الوضع المزري؛ لأن النقود لا تلد النقود"، وفي نفس السياق قال "رولان لاسكين" رئيس تحرير صحيفة "لوجورنال دو فينانس" الفرنسية في الافتتاحية يوم ٢٠٠٨/٩/٢٥م بضرورة تطبيق الشريعة الإسلامية في المجال المالي والاقتصادي لعلاج هذه الأزمة التي تهز أسواق العالم من جرّاء التلاعب بقواعد التعامل والإفراط في المضاربات الوهمية غير المشروعة حيث قال: "إذا كان قادتنا حقاً يسعون إلى الحد من المضاربة المالية التي تسببت في الأزمة فلا شيء أكثر بساطة من تطبيق مبادئ الشريعة الإسلامية"، كما صدر كتاب للباحثة الإيطالية "لوريتا نابليوني" بعنوان (اقتصاد ابن آوى) أوضحت أن "المصارف الإسلامية يمكن أن تصبح البديل المناسب للبنوك الغربية"، إن هؤلاء الغربيون يعترفون أن الإسلام منهج شامل كامل ومتكامل لكافة جوانب الحياة، دين وعبادات ومعاملات ودولة ويوازن بشكل ملفت للنظر بين المادية والروحانية، وأن في الإسلام نظاماً اقتصادياً فريداً معجزاً يتسم بخصائص إيمانية وأخلاقية وسلوكية لا توجد في أي نظام اقتصادي آخر كما أنه ينضبط بمجموعة من الأحكام والنظم والأسس مستخرجة من روح الشريعة الإسلامية وأنه صالح لكل زمان ومكان، وبنظرة إسلامية للحلول الممكنة نتوصل إلى ما يأتي:

- إن إغراق الأسواق بالمال خطر فادح بل هو من علامات الساعة في المنظور الإسلامي ما يعني هو أحد أسباب الاضطراب الذي يحدث قبل قيام الساعة لذلك لابد من تقليل الكتل المالية بشكل تدريجي والاعتماد على النقد المغطى بالذهب ومن الأفضل أن يتحول على الأقل الخزين النقدي الاستراتيجي إلى نقود ذهبية (دنانير ذهبية) وفي التجربة الماليزية مثال عملي على ذلك، لأن وجود كمّ هائل للأموال يولد جوانب سلبية في التعاملات

المالية، ومنها توسع غير مسيطر عليه للمضاربات في الأسواق المالية بما في ذلك تلك التي تجري عبر الانترنت على حساب المعاملات المالية الحقيقية، وكذلك فإن هذه المضاربات تؤدي إلى صفقات لا تقدم أي قيمة مضافة في الأسواق، يقول النَّبي (صلى الله عليه وسلم): "لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُقْبَضَ الْعِلْمُ، وَتَكْثُرَ الزَّلاَزِلُ، وَيَتَقَارَبَ الزَّمَانُ، وَتَظْهَرَ الْفِتَنُ، وَيَكْثُرَ الْهَرْجُ – وَهُوَ الْقَتْلُ الْقَتْلُ – حَتَّى يَكْثُرَ فِيكُمُ الْمَالُ فَيَفِيضُ)[1]، والمال في الإسلام له وظيفة هي أن يكون في خدمة الإنسان كونه خليفة الله في أرضه فمن غيّر هذه الوظيفة فسيكون سبباً في فقدانه، يقول النبي (صلى الله عليه وسلم) للصحابي حكيم بن حزام رضي الله عنه: "يَا حَكِيمُ، إِنَّ هَذَا الْمَالَ خَضِرٌ حُلْوٌ، فَمَنْ أَخَذَهُ بِسَخَاوَةِ نَفْسٍ بُورِكَ لَهُ فِيهِ، وَمَنْ أَخَذَهُ بِإِشْرَافِ نَفْسٍ لَمْ يُبَارَكْ لَهُ فِيهِ، وَكَانَ كَالَّذِي يَأْكُلُ وَلاَ يَشْبَعُ، وَالْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى"[2]، ومن أساليب عدم إغراق الأسواق المالية برؤوس الأموال الهائلة إيقاف المشاريع غير الاستثمارية التي تحمّل الميزانيات تخصيصات هائلة، ومثال ذلك الحملات العسكرية والحروب التي تؤدي في العادة إلى تراكم العجز في الميزان التجاري الأمر الذي يضعف الثقة بالاقتصاد الرأسمالي.. ولابد من تشجيع الاستثمار الحقيقي بحيث يُعمل على الحد من المضاربات المالية، وهنا لابد من فرض قيود على أنواع التعاملات المالية ومنع المعاملات التي لا تتضمن استثماراً حقيقياً..

التخلص تدريجياً من كل أنواع التعاملات الربوية لأن الربا يمحق رؤوس الأموال والحل الإسلامي لذلك هو التخلص من المعاملات الربوية بكل

---

[1] رواه البخاري في كتاب الاستسقاء، باب ما قيل في الزلازل والآيات.

[2] رواه البخاري: كتاب الوصايا، باب تأويل قول الله تعالى: (من بعد وصية يوصي بها أو دين) من سورة النساء.

أشكالها ويلاحظ استعداد المصارف الغربية لذلك، وقد حصل بالفعل أن خفضت هذه النسبة بشكل كبير مثل ما قام به بنك استراليا المركزي والبنك الأوربي أخيراً من خفض هائل لسعر الفائدة وما تبعه من توافق جماعي بين البنوك المركزية لعدة بلدان في هذا المجال، هو اعتراف ضمني للمعالجة الصحيحة للمشكلة ما يعني إمكانية التوصل لإلغائها وجعل التعامل مع المودعين صحيحاً من خلال أعمال صناعية أو تجارية أو أي نوع آخر من الاستثمار الصحيح بما يضمن عدم الظلم للطرفين، وقد قدم الإسلام الحل البديل عن الربا بقوله تعالى: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[1]، ولقد عالج رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في أول قاعدة اقتصادية إسلامية في الربا بقوله في حَجَّةَ الْوَدَاعِ: (... فَلَيْسَ يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ إِلاَّ مَا أَحَلَّ مِنْ نَفْسِهِ أَلاَ وَإِنَّ كُلَّ رِبًا فِى الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ لَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لاَ تَظْلِمُونَ وَلاَ تُظْلَمُونَ غَيْرَ رِبَا الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ...)[2].

وضع برنامج للتخلص من مصادر الأموال الحرام.. فالمال الحرام أساس هلاك البشرية يقول النبي (صلى الله عليه وسلم): "لَيَأْتِيَنَّ عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ لاَ يُبَالِى الْمَرْءُ بِمَا أَخَذَ الْمَالَ، أَمِنْ حَلاَلٍ أَمْ مِنْ حَرَامٍ"[3].

ومصادر المال الحرام أو ما يعرف بـ (السحت) كثيرة ومتنوعة يصف ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه بعض منها بقوله: (السُّحْتُ الرِّشْوَةُ فِي الْحُكَمِ وَمَهْرُ الْبَغِي وَثَمَنُ الْكَلْبِ وَثَمَنُ الْقِرْدِ وَثَمَنُ الْخِنْزِيرِ وَثَمَنُ الْخَمْرِ وَثَمَنُ الْمَيْتَةِ وَثَمَنُ

---

[1] سورة البقرة/ الآية (٢٧٥).

[2] جزء من حديث رواه الترمذي برقم (٣٣٦٧).

[3] رواه البخاري، كتاب البيوع، باب قوله تعالى (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) آل عمران (١٣٠).

الدَّم وَعَسْبُ الْفَحْلِ وَأَجْرُ النَّائِحَةِ وَأَجْرُ الْمُغَنِّيَةِ وَأَجْرُ الْكَاهِنِ وَأَجْرُ السَّاحِرِ وَأَجْرُ الْقَائِفِ وَثَمَنُ جُلُودِ السِّبَاعِ وَثَمَنُ جُلُودِ الْمَيْتَةِ فَإِذَا دُبِغَتْ فَلاَ بَأْسَ بِهَا وَأَجْرُ صُوَرِ التَّمَاثِيلِ وَهَدِيَّةُ الشَّفَاعَةِ وَجَعِيلَةُ الْغَزْوِ)، والمال الحرام خبيث والله تعالى لا يحب الخبيث، قال تعالى: ﴿ قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[1]. فإذا انتشر فإن الله سبحانه وتعالى سيذيق الناس عقوبات على ذلك يقول تعالى: ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾[2].. ويقول تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴾[3]، وقد ذكرنا أنواع الكسب والإنفاق الحرام ونضيف لذلك غلق قاعات الروليت والقمار وخاصة في دول العالم الإسلامي كمرحلة أولى، فقد قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم): "إِنَّ اللَّهَ يَرْضَى لَكُمْ ثَلاَثًا وَيَكْرَهُ لَكُمْ ثَلاَثًا فَيَرْضَى لَكُمْ أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُوا وَيَكْرَهُ لَكُمْ قِيلَ وَقَالَ وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ وَإِضَاعَةَ الْمَالِ"[4]... والمال الحرام مال خبيث يقول فيه تعالى: ﴿ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾[5]..

---

[3] سورة المائدة/ الآية (١٠٠).

[4] سورة الروم/ الآية (٤١).

[1] سورة الفجر/ الآيات (٦-١٤).

[2] رواه مسلم برقم (٤٥٧٨).

[3] سورة الأنفال/ الآية (٣٧).

خلق آلية لتعميم فكرة تطبيق أداء الزكاة على مستوى العـالم، ذلـك أن الزكاة تمنع تكديس الأموال في البنوك وتضخيم رؤوس الأموال لأن مالكيهـا سيضطرون لإقحامها في التعاملات التجارية حتى لا تأكلها الزكـاة ونـزول رؤوس الأموال للأسواق بمشاريع استثمارية ستكون حلاً لكثير من المشكلات من أبرزها تحويل السياسة الرأسمالية إلى سياسة العمل والإنتاج وتوسع قاعدة الخدمات للجماهير وتشغيل الأيدي العاملة وغير ذلك، كما أنها تحقق في الحد الأدنى إحساساً بالعدل فتطفئ شعور الفقراء بالظلم، كما أنها تمنـع الجـرائم المالية مثل السرقات والنهب والسطو، وما أشبه ذلك؛ لأن الفقراء يـأتيهم مـا يسد شيئاً من حاجتهم و الزكاة مشتقة من زكا وتعني النماء والطهارة والبركة وسميت الزكاة لأنها بحسب الدين الإسلامي تزيد في المال الذي أخرجت منه، وتقيه الآفات، كما قال ابن تيمية رحمه الله: (نفس المتصدق تزكـو، ومالـه يزكو ويطهر)، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله (صـلى الله عليه وسلم): (ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدي منهـا حقهـا إلا إذا كان يوم القيامة صُفِّحَت له صفائح من نار، فأُحْمِيَ عليها فـي نـار جهـنم، فيكوى بها جنبه وجبينه وظهره، كلما بردت أعيدت له في يوم كـان مقـداره خمسين ألف سنة حتى يُقْضَى بين العباد، فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلـى النار)[1]، ولو لم يكن في الزكاة مصالح العباد لما ترتب علـى مانعهـا هـذه العقوبات الكبيرة..

خلق نظام رقابي عالمي للتعاملات المالية يبـدأ علـى مـستوى العـالم الإسلامي وليكن عن طريق منظمة المؤتمر الإسـلامي أو الاتحـاد العـالمي لعلماء المسلمين أو أي منظمة أخرى يعنيها أمر العالم الإسلامي يضعه أهـل

---

[1] رواه مسلم في كتاب الزكاة، باب إثم مانع الزكاة.

الحل والعقد من المختصين بالاقتصاد الإسلامي ثم يتحول على مستوى العالم يراقب الدورة الاقتصادية على مستوى العالم ويصحح المسار، وهنا لابد من لفت النظر إلى أن كافة الفعاليات على مستوى العالم كالتربية والتعليم والزراعة وحقوق الإنسان... الخ لها دوائر معتمدة في منظمة الأمم المتحدة تراقب هذه النشاطات إلا الاقتصاد، وقد أرست الشريعة الإسلامية قواعد الرقابة المالية الإسلامية والتي تطورت مع دول الخلافة المزدهرة، فأصبح لها أجهزة ودواوين تباشر رقابة فاعلة ومستمرة على مالية الدولة وحمايتها من العبث والضياع بجانب الرقابة الذاتية التي غرستها العقيدة الصادقة في نفوس المسلمين، وذلك في ظل اقتصاد إسلامي مميز عن النظم الاقتصادية المعاصرة، ورغم الفارق الكبير بين النظم الإدارية والمالية في الدولة الإسلامية وما آلت إليه هذه النظم الآن في الدولة الحديثة، إلا أن نظم الرقابة المالية الإسلامية التي باشرها ديوان المكاتبات والمراجعات وديوان الأزمة ووالي المظالم والمحتسب وديوان الجهابذة وديوان الطراز بالإضافة إلى نظم الضبط الداخلي المتبعة في دواوين الأموال، أحكمت الرقابة على الموارد المالية ومصارفها، فقد كانت لهذه الرقابة المالية في الإسلام سمات مميزة تنطوي على قواعد وأسس ومبادئ عامة تصلح للتطبيق العملي في الدول الإسلامية الآن وتفوق في سائر جوانبها الرقابة المطبقة في عدد من الدول الحديثة.

العراق والأرقام القياسية في الفقر والنهب والأيتام والأرامل!

محمد جمال عرفة[1]

إعتدنا أن نرى دولة تتفوق في الأرقام القياسية في التفوق.. الألعاب الرياضية مثلاً أو عدد العلماء والموهوبين أو المدن الصحية وهكذا، ولكننا لم نسمع أبداً عن دولة تتفوق في الأرقام القياسية في قتل علمائها العظام وأرقام قياسية في الفقر والنهب والفساد وأعداد القتلى والأيتام والأرامل أو انتشار الجريمة والمخدرات.. ولكن للأسف هذا هو حال العراق بعد ستة سنوات كاملة من الاحتلال!!.

الأرقام القياسية بدأت بعلماء العراق خصوصاً في العلوم الذرية والفيزياء، الذين بدأت فرق صهيونية أمريكية محترفة اصطيادهم في ظل الفوضى الأمنية واحداً تلو الآخر فقتل منهم المئات، وانتقل الاستهداف لكل الكفاءات العراقية من أطباء ومهندسين وخبراء من كل العلوم في خطوة لتفريغ العراق

---

[1] المحلل السياسي بشبكة إسلام أونلاين.

من علمائه وإعادته للعصور الوسطى عقاباً له على تفوقه الذي هـدد الدولـة الصهيونية.

ومع أنه لا توجد إحصائية لهذه العملية التي كشفت صحف فرنسية في أعقاب الغزو الأمريكي أن صهاينة يقومون بها بعدما أصبح الوجود الصهيوني رائجاً في العراق وخصوصاً في مدن الشمال الكردية، فقد قدرت دراسة إحصائية لمجزرة علماء وأطباء ومهندسي العراق، أعدها بالإنجليزية الطبيب الاستشاري العراقي "إسماعيل الجليلي"، وعُرضت في "المؤتمر الدولي حول اغتيال الأكاديميين العراقيين"، الذي عُقد في العاصمة الإسبانية "مدريد" لمناقشة هذه الكارثة أن عدد من قتل منهم لا يقل عن (٥٠٠ عالم)، وبأي حال من الأحوال فهو رقم قياسي لا مثيل له دفع من بقي منهم للهجرة، وحتى من تبقى من أطباء العراق مثلاً باتوا يسيرون في شوارع بغداد بأسلحتهم الخاصة وأصدرت لهم حكومة المالكي ترخيصاً بها!.

الكارثة الأكبر أو الأرقام القياسية التي تفوق كل ما لدى "جينيز" من موسوعة قياسية، كانت في تحقيق العراق أرقاماً قياسية في ظل الاحتلال فيما يخص أعداد الأرامل والأيتام والفقراء والفساد وتجارة المخدرات وغيرها؟.

فالعراق حقق في هذه المجالات كلها أرقاماً قياسية في المآسي والمصائب والإجرام حيث الأيتام الآن بالملايين، والأرامل نتيجة الحروب والقتل الجماعي بالملايين أيضاً.

بعض الإحصائيات تقول إنهم – الأيتام- بلغوا خمسة ملايين، أما الأرامل فتقول هذه الإحصائيات الدولية والحقوقية أنهن قد بلغن مليوني أرملة، وأما السجناء في العراق فاليوم يزيدون على (٣٠٠ ألف) أسير ومعتقل في سجون الحكومة وحدها عدا سجون الاحتلال، وهم موزعون على سجون معروفة

وسجون سرية تبلغ في مجملها أكثر من (١٠٠) سجن في جنوب ووسط وشمال العراق .

وإذا كانت الدنيا تقوم ولا تقعد والغرب يقلب الدنيا على حكومة الخرطوم مثلاً لأن سياستها في دارفور أدت لتهجير قرابة (٣٠٠) ألف مواطن على الأكثر، فالمهجرون في العراق يزيدون عن المليوني مهاجر من الجنوب إلى الشمال ومن الشمال إلى الجنوب، كما أن المهاجرين خارج العراق يبلغون نحو أربعة ملايين موزعين على بعض الدول العربية والدول الأجنبية.. ولكن لا أحد يتحرك!!.

الأحوال الاقتصادية ليست بدورها أفضل والنهب في قطاع واحد هو قطاع النفط علني – فهو هدف الاحتلال الأساسي – حيث (٨٨%) من نفط العراق للشركات الأمريكية وفقاً لقانون النفط الجديد و(١٢%) من النفط للعراقيين وتتولى توزيع عوائده الأمم المتحدة، أما العاطلين فحدّث ولا حرج في بلاد الرافدين، فعدد العاطلين اليوم في العراق يبلغ ما بين (٥٠%) إلى (٦٠%) بناءً على تقارير أممية وإنسانية، ومع هذا تقول الحكومة أن عددهم أقل من عدد العاطلين في بلد مثل فرنسا!.

فمع أن إحصائية لوزارة العمل والشؤون الاجتماعية تقول إن عدد العاطلين عن العمل يبلغ (١,٢) مليون فقط، فهي تفتخر بالقول أن هذه هي النسبة نفسها تقريباً أو أقل لعدد العاطلين عن العمل في فرنسا، ما يوحي بأن العراق في أحسن حال.

وتتناقض هذه الأرقام بشدة مع تقديرات الأمم المتحدة والوكالات الدولية التي تقدر عدد العاطلين عن العمل بنحو(٥٠%) من مجموع القادرين عن العمل في بلد يبلغ عدد سكانه (٢٨) مليون نسمة، تمّ تهجير (٢٠%) منهم من منازلهم أو إلى الخارج.

وكان وزير المالية العراقي (بيان جبر صولاغ) قد اعترف في بيان صدر في يوليو ٢٠٠٨م بأن التقديرات تشير إلى أن عدد العاطلين عن العمل في العراق حالياً يمثلون نصف عدد القادرين عليه، أي (٥٠%)، وعزز هذا تأكيد وكالات الأمم المتحدة أن هناك نحو (٨) ملايين إنسان في العراق يعيشون تحت خط الفقر.

سباق قتل العلماء والكفاءات

منذ الغزو الأمريكي للعراق، ولا يمرّ شهر دون أن تنشر وسائل الإعلام العراقية خبراً على استحياء في ذيل صفحاتها عن مصرع عالم عراقي شهير من علماء العراق الخبراء في شؤون السلاح أو الذرة أو الكيمياء وغيرها في حادث إطلاق نار أو سيارة، أو داخل المعتقلات الأمريكية، ومن هم أحسن حالاً هربوا واختفوا في بلاد عربية مجاورة.

أحد هؤلاء الذين جرى الكشف عنهم بالصدفة هو عالم الذرة (طالب إبراهيم الظاهر) الذي اغتاله مسلحون مجهولون في مدينة بعقوبة في شهر كانون الأول/ ديسمبر عام ٢٠٠٤م وهو في طريقه إلى مقر عمله أثناء عبور سيارته لأحد الجسور في مدينة بعقوبة مما أدى إلى مقتله وسقوط السيارة في نهر "خريسان".

وكذلك البروفسور في العلوم الكيميائية الدكتور (محمد منعم الأزميرلي) الذي كشفت صحيفة (الجارديان) البريطانية في تقرير صحافي مطول نشرته على صفحتها الأولى يوم ٢٤ حزيران/ مايو ٢٠٠٤م أنه توفي "في ظروف غامضة في المعتقل الأميركي في العراق" بعدما اعتقل من منزله بعد سقوط حكم الرئيس السابق صدام حسين حيث كان واحداً من قائمة (٢٠٠) مطلوباً القبض عليهم.

وهذا غير عشرات القصص الأخرى عن عشرات العلماء والأطباء العراقيين وأصحاب الخبرة والاختصاص في مختلف المجالات العلمية الذين تعرضوا لعمليات اغتيال وخطف من جهات مازالت مجهولة.

وقد شرح العالم العراقي الدكتور (مؤيد عزيز حسن) لصحيفة "المصري اليوم" في العدد الصادر يوم ٢١ ايلول/ سبتمبر ٢٠٠٥م تفاصيل هذه الجرائم مع توضيح أنه حتى قبل عمليات الاغتيال وأيام الحصار، كان العلماء يعانون من انقطاع شبه تام عن العالم الخارجي، وهو ما أثر بصورة سلبية على البحث العلمي والعملية التعليمية بالكامل في العراق.

وترجع قصة استهداف علماء العراق إلى ما قبل وبعد احتلال بغداد، فعقب الغزو بعدة أشهر، كشف جنرال فرنسي متقاعد لقناة التلفزيون الفرنسية الخامسة عن وجود (١٥٠) من وحدات الكوماندوز الإسرائيلية داخل العراق لاغتيال (٥٠٠) من العلماء العراقيين ممن لهم صلة ببرامج التسلح العراقية الكيماوية والبيولوجية والنووية والصاروخية وردت أسماؤهم في قوائم مفتشي الأسلحة الدوليين، كما كشف علماء عراقيون – في نداء استغاثة عبر البريد الإلكتروني – أن قوات الغزو الأمريكية والبريطانية التي لديها كشوف بأسماء وعناوين هؤلاء العلماء تدهم منازلهم وتحقق وتعتقل بعضهم وتطالبهم بتسليم ما لديهم من أبحاث وأوراق.

وقال الجنرال الفرنسي إن مخطط الاغتيال هذا تمّ وضعه من قبل مسؤولين أميركيين وإسرائيليين وأن لديه معلومات دقيقة بوجود الكوماندوز الإسرائيليين داخل العراق حالياً بهدف اغتيال العلماء العراقيين الذين كانوا نواة برامج التسلح الصاروخي والنووي والكيماوي التي أرعب إسرائيل وعددهم – حسب الجنرال الفرنسي – قرابة (٣ آلاف و٥٠٠ عالم) عراقي عالي المستوى من بينهم نخبة تتكون من (٥٠٠) عالم اشتغلوا في

تطوير مختلف الأسلحة وهذه النخبة هي المستهدفة من قبل العمليات الإسرائيلية بالدرجة الأولى.

وقد بلغت المأساة مداها عندما أطلق مسؤول عراقي في المنفى نداءً للعرب يدعوهم لتشغيل ما تبقى من العلماء العراقيين والكفاءات الذين طُردوا من عملهم أو مكثوا في منازلهم بلا عمل، ولو بدون أجر حتى لا تتحجر عقولهم من الجلوس في المنزل!!.

النداء وجهه السفير علي جاروش، مدير إدارة الشؤون العربية بالجامعة العربية إلى الحكومة المصرية، وكل العرب في لقاء بعدد من البرلمانيين المصريين بلجنة الشؤون العربية بمجلس الشعب عام ٢٠٠٧م، وقال: "هناك كفاءات عراقية مثل أساتذة الجامعات تبحث عن عمل ولو بدون أجر حتى لا تتحجر عقولها من الجلوس في المنزل".

كلمات "جاروش" جاءت على خلفية اجتماع لجنة الشؤون العربية بالبرلمان المصري ١٥ نيسان/ أبريل ٢٠٠٧م لبحث مشاكل العراقيين في مصر خاصة بعد تطبيق أجهزة الأمن المصرية لقرار يمنع دخول العراقيين للبلاد بدون تأشيرة دخول مسبقة من السفارات التابعة للخارجية المصرية في الخارج والاستعلام عن طالبي التأشيرة من الأجهزة المعنية بالدولة.

وقد فجرت كلمات "جاروش" حالة من الفوران بين النواب المصريين الذين أبدوا تعاطفهم مع النازحين العراقيين وطلب النائب مصطفى عوض الله – إخوان – من الحكومة المصرية أن تسمح بدخول أي عدد من العراقيين إلى البلاد في إطار رد الجميل لشعب العراق الذي وصفه بأنه تحمل تشغيل (٥ ملايين) مصري في فترة الثمانينات من القرن الماضي.

ودعا النائب لفتح الباب أمام العراقيين والسماح لهم بالعمل في ظل عدم تقديم الجامعة العربية أو المفوضية الدولية للاجئين أية مساعدات حتى الآن.

أرامل وأيتام الغزاة

المجال الاجتماعي هو اللاعب الأكثر ترشيحاً للفوز بجوائز الأرقام القياسية الأخرى في العراق.. فالفقر والفساد وأعداد الأطفال الأيتام والنساء الأرامل اللاتي يتسولن في الطرقات وغيرها كلها جوائز مضمونة!.

لم يكتف أعداء العراق بقيادته للحصول على المرتبة الاولى في الفساد عالمياً، ولا بحيازة بغداد لقب المدينة الأسوأ في العالم من حيث انعدام الأمن، ولا تفوق العراق على كل جيرانه في تجارة المخدرات في ظل الاحتلال ولا تبوءه المنصب الأول في الأمية بعد أن كان قد قضى عليها نهائياً قبل ثلاثين عاماً، وإنما سعوا لفوزه بالمراتب الأولى عالمياً في نسبة عدد الأرامل والأيتام!؟.

الاحتلال الأمريكي وما خلفه من فوضى وحروب خلّف وراءه جيشاً جراراً من الأيتام الذين تجاوزوا الخمسة ملايين، وهناك خمسة منظمات دولية رشحت العراق لأن يكون الأول في معدل الأيتام والأرامل في العالم، ليدخل موسوعة غينيس لحيازته هذا المركز الأول بجدارة!.

دراسة أجرتها الأمم المتحدة كشفت عن أن عدد الأرامل في العراق قد بلغ (٣ ملايين) امرأة بعدما تخطى عدد ضحايا الغزو الأمريكي أكثر من مليون عراقي تشردت أسرهم وتشتت، ومن بينهم مليوني أرملة في السنوات القليلة الماضية، عدد كبير منهن يعلن عوائل كبيرة وينزلن إلى ممارسة أعمال تدر عليهن بعض المال البسيط تاركات أطفالهن دون رعاية في الشوارع والطرقات.

بغداد التي كانت تشتهر بالثراء والكفاية أصبح مشهداً مألوفاً اليوم أن ترى في شوارعها متسولات من الأرامل وأعداداً كبيرة من الأيتام تركوا مدارسهم

وباتوا يمدون أيديهم أو يمارسون أعمالاً شاقة من أجل إعالة عوائلهم بعد أن فقدوا معيلها الوحيد في الحرب.

خمس منظمات دولية حذرت في تقارير لها من ارتفاع نسبة جرائم الطفولة والتشرد وتفشي الأمراض النفسية في المجتمع العراقي بسبب الغزو، ومنظمة اليونيسيف أكدت أن حصيلة العنف في العراق بلغت أكثر من (٥ ملايين و٧٠٠ ألف) طفل يتيم حتى عام ٢٠٠٦م نتيجة اغتيال آبائهم، أو أنهم قُتلوا في حوادث التفجيرات والمداهمات المسلحة وسقوط القذائف والقتل الطائفي.

وهناك إحصاءات أخرى تقدر عدد هؤلاء الأطفال بما لا يقل عن (٧ ملايين) يتيم يعيشون في كنف أرامل وثكالى ومعظمهم يعاني سوء التغذية والأمراض المزمنة وقسم كبير منهم إما مقعدون أو عجزة، فيما تضم دور الأيتام عدداً قليلاً منهم، ويعيش قسم كبير بلا مأوى في الشوارع.

المفوضية العليا للاجئين التابعة للأمم المتحدة أعلنت عن وجود أكثر من (٤ ملايين) لاجئ عراقي، أغلبيتهم الساحقة في سورية والأردن (ما يزيد على مليونين) وأن هناك نازحين داخل البلاد بما يقارب هذا الرقم، رغم ما قيل عن تحسّن الوضع الأمني في الشهرين الأخيرين، وهناك "عودة معاكسة" للاجئين العراقيين إلى الوطن.

عراقيون كتبوا يتساءلون: كم مؤتمر عقد من أجل إعمار العراق منذ ستة أعوام ؟ وكم من الأموال جمعت من الدول المانحة تحت عنوان (إعمار العراق)؟، وكم من تصريح وبيان أذيع لهذه الحملة؟ داعين – من باب السخرية – لمنح أبطال حملة الإعمار أرقاماً قياسيةً في خداع الناس!.

من ضمن الأرقام القياسية في عراق ما بعد الاحتلال أيضاً عدد المعتقلين، وعدد الجثث مجهولة الهوية وعدد نقاط التفتيش الشرطة ناهيك عن الفساد.

وقد اعترف رافع العيساوي نائب رئيس الوزراء العراقي الأسبوع الماضي أن "انتشار الفساد هو سبب نقص الخدمات الأساسية بصورة دائمة وعلى نحو يهدد الاستقرار" حسب قوله، وقال إن التحدي الأكبر ليس فقط الميزانية التي اضطرت الحكومة لتخفيضها بسبب انخفاض إيرادات النفط، ولكن هذا التحدي يتمثل في الفساد أيضاً.

لكن المسؤولين أقروا أن المشكلة تفاقمت منذ السنوات الأولى التي شابتها الفوضى عقب الغزو الأميركي حين فقدت مليارات الدولارات من التمويل الأميركي لإعادة الإعمار وتعامل مسؤولون أميركيون وعراقيون مع الأمر دون رقابة تذكر.

وهناك تقرير طريف لمنظمة الشفافية الدولية يقول إن الصومال وميانمار كانا فقط أكثر فساداً من العراق في عام ٢٠٠٨م، ولكن ما عدا قبل وبعد ذلك فالعراق في المرتبة الأولى.. رقم قياسي أليس كذلك؟.

العراق – في عهدة الاحتلال وأعوانه من مرتزقة المحتل عاد للوراء عشرات إن لم يكن مئات السنين ودخل موسوعة جينيز وكل الموسوعات في الكوارث والفساد، وتدهور أحوال بلد كانت كل المؤشرات العالمية تضعه في مصاف دول المنطقة العربية ويعتبره الصهاينة مهدداً خطيراً لهم.. الآن أصبح أضعف بلد في العالم وأفسد بلد في العالم وبلا سيادة أو هوية ومتقطع الأوصال ويعاني الفقر والتدهور الاجتماعي والاقتصادي.

لقد دخل العراق – بحسب الشيخ حارث الضاري أمين عام هيئة علماء المسلمين – من حصيلة الواردات النفطية منذ الأيام الأولى للاحتلال وحتى

اليوم ما يزيد عن (٢٥٠ مليار) دولار (وقيل ٢٨٠ مليار) وبعض التقارير تقول (٣٥٠ مليار) دولار.. فأين ذهبت هذه المليارات التي لم يصل منها شيء إلى الشعب العراقي، ولم يعلم مصيرها الكثير منهم؟!.

كيف يكون هذا هو حالة دولة ثرية بهذه الأموال ولهذه الدرجة ومع هذا فهي مرشحة لدخول موسوعة جينيز للأرقام القياسية للفقر!.

جيش الاحتلال في العراق.. بين الفرار والانتحار

حسين الرشيد[1]

قامت الحرب الأمريكية في العراق على مجموعة من الإغـراءات التـي قدمتها الإدارة الأمريكية السابقة برئاسة (جورج بوش) إلى جنود الاحـتلال، وتمنيتهم بأن تكون الحرب في العراق مهمة سهلة، لا تستغرق سوى بـضعة أسابيع، يعودون بعدها رافعين رايـة مـا يـسمونه (التحريـر) بعـد نـشر الديمقراطية المزعومة في بلدٍ طالما وصفوا النظام الحاكم فيـه بالدكتاتوريـة والتسلط.

غير أنَّ الحقيقة الناصعة في هذا المقام: أنَّ الرياح جرت بمـا لـم تـشتهِ إدارة البيت الأبيض حينما قررت إشعال الحرب واحتلال العراق منـذ سـتة أعوام.. فتلك التوقعات الوردية التي كـان يتوقعهـا مـسعّرو الحـرب بـأنَّ العراقيين سوف يستقبلون جنود الاحتلال (التحرير) بـالورود قـد تبـددت،

---

(1) مدير تحرير مجلة حضارة.

وأصبحت من سخريات الماضي والحاضر!! ليقع هؤلاء الجنود الغاصبون في مستنقع العراق الذي سقطوا فيه طواعية وكرهاً، وهم لا يعرفون الخروج منه، إلا وهم على نعوش الموت، أو أنهم يتمنونه ولا يكادون يحصلون عليه؛ من شدة ما لحق بهم من أذى نتيجة مشاركتهم العدوانية التي يتحملون مسؤولياتها.. وصار الموت لا يكاد يفارق فكر وخيال أي جندي من أولئك الجنود.. أو أن تلحق به عاهة جسمية من بترٍ لليدين أو الرجلين، أو تلحق به حالة نفسية أو عصبية، بما هو أشد من الموت أحياناً.. بعد أن واجهت قوات الغزو الظالم مقاومة شرسة وحملة شعبية منظّمة، بشكلٍ فاجأ المجتمع الدولي جميعاً، بما فيها قوات الاحتلال!! إذ أسقطت المقاومة الباسلة هيبة أمريكا، واستنزفت قوّاتها العسكرية، وأربكت اقتصادها وميزانيتها، وأنهت الحلم الإمبراطوري التوسعي الذي كان يراود الأمريكيين منذ أن انفردت الولايات المتحدة الأمريكية بزعامة العالم.. وبالتالي فإنَّ جيش الاحتلال الأمريكي في العراق أمام أمرين لا ثالث لهما – اعتماداً على قراءة التاريخ والواقع– إما (عار) الهزيمة بما يلحقهم من خسران مادي ومعنوي، فضلاً عن الفضائح الأخلاقية التي يمارسها هذا الجيش، الذي يعتبره محللون من أفضع الجيوش؛ بسبب الفرق القذرة التي يضمها، وإما (الانتحار) الذي صار صفة ملازمة؛ للتخلص من مرارة الواقع الذي يعيشه الجندي الأمريكي في العراق، مع ما يلحق بعضهم من قتلٍ، ومرض، وإعاقة، وحالات نفسية متردية، حسب تقارير كثيرة، سيتضح بعضها بعد قليل.

هزيمة القوة التي لا تقهر..

حكاية (الهزيمة) الأمريكية في العراق صارت مسألة مفروغاً منها باعتراف بعض الأمريكيين أنفسهم، ولا داعي للمكابرة؛ لأنَّ أمر ذلك صار

متواتراً، ولا يستطيع أن ينكره لا عدو ولا صديق، بعد أن انطلقت شرارة المقاومة سريعةً جداً، بل ربما هي الأسرع في تاريخ مقاومة الشعوب للاستعمار، بصورة شديدة الكفاءة والتميز، لترتفع وتيرتها يوماً بعد يوم؛ فتزداد أعداد القتلى من جيش الاحتلال، بما جعل من الصعب على قادة أمريكا وشعبها تحمّل إلحاق الهزيمة بها[1]، بل وإحساسهم بأنَّ مسلسل الخسائر اليومي لأفراد قوات الاحتلال لا يمكن تحمله طويلاً.

وإذا أردنا القفز على فترة زمنية، من خلال تصورنا للبداية الحقيقية للهزيمة الأمريكية؛ فإنه لابد من معرفة أنَّ أمر الهزيمة بدأ بجدية كاملة، بعد انهزام الجمهوريين في انتخابات الكونجرس، ما دعا الرئيس الأمريكي (جورج بوش) إلى القول بأنَّ كل الاحتمالات بالنسبة للعراق مفتوحة.

وما رافقه وتبعه من تصريحات بعض المسؤولين الأمريكيين، بأن الولايات المتحدة ليس لها أن تبقى في العراق إلى ما لا نهاية، في وقت تستنزف فيه الثروة المالية الأمريكية، بما أرهق اقتصاد هذا البلد.

ويعترف كثير من المحللين العسكريين بأنَّ طليعة الهزيمة الأمريكية في العراق ألقت بظلالها منذ الإطاحة بوزير الدفاع الأمريكي السابق ومسعّر الحرب (دونالد رامسفيلد)؛ إذ لم تكن الإطاحة بهذا الرجل مجرد تغيير وزير، فالرجل أحد أهم رموز المشروع الإمبراطوري الأمريكي، وأحد أهم مهندسي ومنظري المحافظين الجدد، والمسؤول الأول عن الحرب في العراق أخلاقياً

---

[1] جدير بالذكر أنَّ العسكرية الأمريكية استعملت كل ما في وسعها من أجل القضاء على المقاومة العراقية، دون جدوى، إذ استخدمت الطائرات والدبابات والصواريخ واقتحام المدن والتعذيب والإذلال والاعتقال، بما يزيد المقاومة قوة في كل مرة، وتحققت بذلك نتيجة حتمية عند قادة أمريكا مفادها: أنه لا يمكن القضاء على المقاومة، وبالتالي فلا بديل سوى إعلان عار الهزيمة.

وقانونياً، وهذا يعني اعترافاً بالفشل، وطريقة مهمة من طرق الهزيمة التي تلاحق الأمريكيين.

ومن المهم قراءة ما اقترن بهذه الهزيمة التي مُنيَ بها (رامسفيلد) من إصرار الديمقراطيين، الذين يشكلون غالبية مجلسي (النواب) و(الشيوخ) الأمريكيين، على ضرورة الانسحاب من العراق، بعد أن صارت ميزانية الحرب المستعرة في العراق – وأفغانستان– تحت سيطرتهم، بما أرهق جورج بوش في كثير من الأحيان.

ثم تعزز ذلك بقول الناخب الأمريكي بكل وضوح (لا لاستمرار الحرب في العراق) يوم أن انتخب المرشح الديمقراطي (باراك أوباما) الذي رفع شعار (أولوية الخروج من العراق)، وبالتالي فهو مضطر أمام أبناء الولايات المتحدة الأمريكية إلى تلبية رغبتهم ورغبته.. في وقت توالت فيه التقارير الأمريكية التي أصدرتها (أجهزة الاستخبارات) على مدى السنتين الماضيتين، بأنّ الفشل هو الطريق الأقرب للأمريكيين، وأنّ إمكانية تحقيق النصر صارت أمنية لا يمكن نيلها.. لتعضد تلك التقارير تخوف الأمريكيين من التراجع الأمريكي، ففي استطلاع أجرته شبكة (سي أن أن) الأمريكية منذ عام (٢٠٠٧م) إنّ (٣٣%) من الذين استُطلعت آراؤهم متخوفون من التراجع الأمريكي في العراق، و(٣٥%) منهم واثقون، ويعتري القلق (٥٥%) منهم حول الوضع في العراق.. ويضيف الاستطلاع أنّ ثقة الشارع الأمريكي بالحرب تراجعت من (٨٣%) عند بداية الحرب عام (٢٠٠٣م) إلى (٣٥%) فقط، كما تدهور الاعتداء الأمريكي بها من (٦٥%) إلى (٣٠%) حالياً (٢٠٠٧م)، وأشار الاستطلاع إلى أنّ ٦١% من الشعب الأمريكي لم يرَ في غزو العراق أي جدوى؛ حيث تواصل تدهور معدل المؤيدين للحرب، ليصل

إلى (٣٧%) العام الماضي، وقف عند (٣٥%) فقط وفق استطلاع أخيــر[١].. وبالتالي فإنّ الانسحاب (عار الهزيمة) هو النتيجــة الحتميــة لتلــك القــوات الغازية.

وبعد صعود (باراك أوباما) إلى سدة حكم البيت الأبيض، جــاء الإعــلان الرسمي عن الهزيمة التي تجرعها مع شدة مرارتها، في خطابه الذي ألقاه في بداية شهر آذار من عام (٢٠٠٩م) بسحب جنود الاحتلال من العراق ســحباً جزئياً ينتهي في شهر آب من عام (٢٠١٠م)، على أن يتم سحب كافة جنــود الاحتلال بنهاية عام (٢٠١١م)، واعترف بأنه سيبقى في العراق ما بين (٣٥-٥٠) ألف جندي أمريكي لمهمات غير قتالية، زاعماً أنها ستــساعد العــراقيين في إعادة الأعمار وتدريب قوات الشرطة والجيش!!، في وقــت يعــزو فيــه المراقبون أسباب هذا الإعلان إلى الخسائر المادية بالأرواح والمعــدات كمــا أشرنا قبل قليل، بالتزامن مع الهزة العنيفة للاقتصاد الأمريكي الــذي يــشهد تهاوياً لم يشهد له مثيلاً منذ زمن طويل.. وقــد صــرح بعــض المــسؤولين الأوربيين أن الأزمة المالية العالمية وتأثر أمريكا بها هو سبب قرار الــرئيس الجديد بسحب جنوده من العراق!! في وقتٍ توقّع فيه (باراك أوباما) أن تكلفــة الحرب في العراق وأفغانستان ستصل هذا العام إلى ما يقــرب مــن (١٤٠) مليار دولار.

لقد تجرع الرئيس الأمريكي الجديد مرارة الهزيمــة فــي العــراق التــي وضعها في عنقه سلفه المهزوم (جورج بوش) واتخذ قراره الذي يعتقد جميــع المعنيين بأنه جاء متأخراً كثيراً؛ بسبب السياسة الهوجاء التي كانت تمارســها الإدارة السابقة، والتي أودت بالعراق والعراقيين في مآسٍ كثيــرة نتيجــة مــا

---

[١] ينظر: أرقام تحكي العالم، للأستاذ عمرو توفيق ص٧٩ .

تعرضوا له من قتلٍ ما يزيد على مليون وربع المليون من أبنائه، واعتقال عشرات الألوف منهم في صور مذلة، وما تعرضوا له من تأجيج الفتنة الطائفية، وإذكاء روح العنصرية والقومية، وإذكاء المشاريع التقسيمية، وإهدار الثروة العراقية، وإشاعة مبدأ المحاصصة والفساد وهدر الأموال، وما شابه ذلك من أمور جعلت العراق الأسوأ بين بلدان العالم أمنياً وسياسياً.

وصار موضوع الانسحاب من العراق الحل الأمثل، الذي لا يمكن العدول عنه لإنقاذ جنود الغزو من المحرقة التي سقطوا فيها، وبات الجدال منصبّاً على توقيت الانسحاب، وتهيئة الظروف المناسبة له، فإدارة الرئيس الأمريكي السابق (جورج بوش) حرصت على أن يكون الانسحاب (منظماً) بحيث لا تهدر معه الكرامة الأمريكية، ولطالما كرر (بوش) ونائبه (ديك تشيني) عبارتهما الشهيرة "نريد خروجاً مشرّفاً من العراق"، وفي الوقت ذاته يجب أن يضمن الانسحاب عندهم الحد الأدنى من العملية السياسية في العراق، فيما يصر الديمقراطيون والرئيس الحالي (باراك أوباما) على الانسحاب المبكر وفق جدول زمني لخطة الانسحاب؛ مدركين أنَّ كل شهر يمر يكلفهم خسائر كبيرة بأرواح جنود الغزو هناك، فضلاً عن التكلفة المادية التي أرهقت أمريكا، وأربكت اقتصادها المتهاوي؛ فعلى حد إفادة الكونجرس الأمريكي فإنَّ الكلفة الإجمالية لما يسمى الحرب على الإرهاب (الغزو) قد تصل إلى (١٤) تريليون دولار بحلول عام (٢٠١٧م).

والآن وقد تأكد موضوع (هزيمة جيش الاحتلال الأمريكي)، فما الذي تعنيه لقادة أمريكا؟ وكيف يمكن تفسيره بالواقع الذي تعيشه الأمة العربية والإسلامية، في ظل ما تتعرض له من مكايد ومخططات مشبوهة ومؤامرات؟ إنَّ الهزيمة في العراق لها تداعيات استراتيجية كبرى على مستوى خطورة الصعود الذي تنتظره بعض الدول الهادفة لنشر مشروعها من ناحية، وعلى

مستوى التداعيات بالنسبة لدول المنطقة، وأيضاً على مستوى إحساس الشعوب بالقدرة على مواجهة العدوان الأمريكي، وعدم قدرة آلة الحرب العسكرية على إخضاع الشعوب، الأمر الذي سيقلص قدرة الولايات المتحدة الأمريكية على فرض إرادتها بسهولة على الآخرين.. فضلاً عن رفع الروح المعنوية لقوى الممانعة – بما فيها قوى المقاومة المسلحة– للمشروع الأمريكي.. ثم إنَّ الهزيمة في العراق تعني أيضاً فشل المشروع الإمبراطوري الأمريكي، الذي كان يخطط للقفز على بعض الدول المجاورة وغير المجاورة للعراق، بل إخضاع المنطقة بالكامل للنفوذ، المتمثل باليمين الأمريكي (المحافظين الجدد).

بالتالي فإنَّ هناك تعويلاً أوربياً، ومراهنةً غربية على النصر الأمريكي في العراق، حتى صارت خسارة أمريكا في العراق خسارة لكل شعوب أوربا، قال رئيس الوزراء البريطاني السابق (توني بلير) : ((إنَّ هزيمة أمريكا في العراق، هزيمة للغرب كله)) وقال (رئيس هيئة الأركان الأمريكية المشتركة): ((إنَّ قيمة انتصار أمريكا على المقاومة العراقية يساوي أو يزيد على الانتصار في الحرب العالمية)) وقال (هنري كسنجر) قبل سنين: ((إن خسارة أمريكا في العراق معناها خسارة الغرب لكل ما حققه في الخمسة قرون الماضية)).

عار الفرار ..

من الأمور التي لحقت بجنود الاحتلال هو (فرارهم من خدمتهم الإلزامية) التي أجبروا على أدائها في جحيم العراق، بسبب ما لاقوه – وما يلاقونه – من مقاومة شرسة، حتى بلغت معدلات فرار الجنود الأمريكيين من الخدمة أعلى معدل لها منذ عام (١٩٨٠م) وبلغت الزيادة في عددهم حوالي (٨٠%) وذلك منذ بدء غزو العراق في (نيسان/ مارس) عام (٢٠٠٣م)، ورغم أنَّ

العدد ما زال أقل مما كان عليه خلال الحرب الفيتنامية، إلا أنه أخذ يشهد زيادة كبيرة في السنوات الأربع الماضية، عندما حقق قفزة بلغت نحو (٤٢%) في العام الماضي، ووفقاً للجيش الأمريكي فإن تسعة جنود من بين كل ألف جندي فروا من الخدمة عام (٢٠٠٧م)، ليرتفع عدد الجنود الفارين من الخدمة إلى (٤٦٩٨) جنديّاً، مقارنة بنحو (٧) من كل ألف فروا في العام السابق، والذين بلغ عددهم (٣٣٠١) جندياً عام (٢٠٠٦م)[1].

وكشفت صحيفة (نيويورك تايمز) الأمريكية أنّ عدد الجنود الذين فروا من الجيش الأمريكي، رفضاً للمشاركة في حرب أمريكا على العراق وأفغانستان في عام (٢٠٠٦م) بلغ (٣١٩٦) جندياً، ويزيد هذا الرقم من الجنود الفارين من الجيش الأمريكي عن العدد الذي تم تسجيله في العام الذي سبقه (٢٠٠٥م) بواقع (٨٥٣) جندياً.

وقد كشفت مجلة (دير شبيجل) أنّ أكثر من (٢٥) ألف جندي أمريكي هربوا من الخدمة العسكرية منذ بداية الحرب في العراق ولغاية منتصف العام الماضي.. وقد قال أول جندي أمريكي يهرب من العراق ويطلب اللجوء السياسي في ألمانيا: إنّ قرار لجوئه إلى ألمانيا جاء بسبب عدم رغبته في مساعدة بلادهِ على قتل الأبرياء!!.

أما ما يخص الجيش البريطاني – الذي يعدُّ ثاني أكبر الجيوش المشاركة في احتلال العراق بواقع (٧١٠٠) جندي– فقد كشفت وزارة الدفاع البريطانية منذ عام (٢٠٠٦م) عن ارتفاع وتيرة فرار الجنود البريطانيين من الخدمة في الجيش بعد احتلال العراق منذ عام (٢٠٠٣م)، وأكدت الوزارة بأنّ عدد هؤلاء الجنود البريطانيين الذين هربوا أو تغيبوا عن الخدمة دون عذر وصل

---

[1] من تقرير نشرته شبكة (سي أن أن) الأمريكية عام ٢٠٠٧م.

إلى (١١ ألف جندي)، وأوضحت الوزارة أنَّ عدد الجنود الذين فروا هذا العام وحده (٢٠٠٦م) بلغ (٢٨٣) جندياً، بينما بلغ عدد الفارين العام الذي سبقه (٢٠٠٥م) حوالي (٢٧٩) جندياً، في حين وصل عددهم خلال العام الذي سبقه (٢٠٠٤م) ما يقرب من (١٥٧) جندياً.

إنَّ ظاهرة فرار جنود الاحتلال – بمختلف تشكيلاتهم – يؤكد حقائق لابد من التطرق إليها والكشف عنها، فهي في حقيقتها تعكس مدى الضغط الذي تتعرض له قوات الاحتلال، نتيجة المقاومة الشرسة والمنظمة التي يلاقونها بوتيرة متناسقة دون انقطاع منذ بداية الغزو ولحد هذه اللحظة، فضلاً عن حقيقة التفكك الرهيب الذي تعيشه تشكيلات تلك الجيوش الغازية بعد أن صحت ضمائر بعض هؤلاء الجنود في مواجهة التحدي الذي يواجه تلك الجيوش، بعد غياب العامل الوجداني الذي جاءوا من أجله بحجة تحرير العراقيين من الظلم والاستعباد، بعد أن تكشف لهم زيف الادعاءات والإغراءات التي مُني بها أولئك الجنود.

انتحار الجنود ..

تشير مجموعة كبيرة من التقارير المختلفة إلى تنامي حالة الانتحار، التي بدت تقض مضاجع مسؤولي إدارة البيت الأبيض – السياسيين منهم والعسكريين على حد سواء – وزاد اهتمامهم بها، وهذه التقارير هي توضيح مناسب لهذه الحالة الخطيرة التي يتعرض لها جنود الاحتلال، بعد أن أوصلهم إدراكهم بأنَّ الموت أكثر راحة لهم بكثير من العيش في حياة مليئة بالذل والهوان، بعد أن عجزوا عن تحقيق المهمة التي طالما كان يحلم بتحقيقها سيد البيت الأبيض السابق (جورج بوش) بعد أن قال مراراً أن القوات الأمريكية لن تغادر ما لم تحقق مهمتها في العراق، وهي مهمة مجهولة لا يعلم أحد أي

شيء عنها، بما فيهم المشتركون في العملية السياسية الحالية، ضمن المشروع الأمريكي بعد الاحتلال!!.

وقد أكدت دراسة أصدرها معهد الصحة النفسية في (ولاية ميرلاند)، وهو أعلى جهة حكومية بالولايات المتحدة في مجال الصحة النفسية: أنّ عدد جنود الولايات المتحدة الذين انتحروا بعد عودتهم من العراق يمكن أن يفوق عدد الجنود الذين قتلوا هناك منذ احتلاله بحسب الأرقام الأمريكية المعلنة التي يشكك المتابعون كثيراً بصحتها.

واستند المعهد في استنتاجه إلى جهات حكومية متعددة، منها وزارة الدفاع الأمريكية (البنتاجون)، إلا أن الناطقة باسم الوزارة (سينثيا سميث) رفضت نفي النتيجة أو تأكيدها، لكنها قالت: إن المسؤولين في (البنتاجون) ينظرون إلى حوادث انتحار الجنود الأمريكيين العائدين من العراق باهتمام كبير!! وقالت الدراسة التي أشرف عليها مدير المعهد توماس أنسيل: إنّ البحث امتد لشهور، وتعاونت فيه جهات حكومية متعددة، منها وزارة الدفاع.

وكانت قضية انتحار (العائدين من العراق) قد شغلت أجهزة الإعلام الأمريكية لبعض الوقت إلا أنها لم تخضع من قبل لدراسة إحصائية من جهة لها مصداقية.. وسبق أن أصدر (معهد راند) دراسة قال فيها إن (٢٠%) من الجنود الأمريكيين الذين شاركوا في معارك بالعراق وأفغانستان يعانون من اضطرابات نفسية شديدة، غير أن دراسة (راند) لم تلج إلى مجال الربط بين وقائع الانتحار وهذه الاضطرابات، ولم تقدم مسحاً إحصائياً لتلك الوقائع.

وتؤكد التقارير أن عام (٢٠٠٣م) شهد ما يقرب من (٧٩) حالة انتحار بين جنود الاحتلال الأمريكي، منهم (٢٦) جندياً ضمن القوات القتالية، بنسبة تتجاوز (١٢،٤) حالة بين كل مائة ألف جندي.

وسُجّل ما يقرب من (١٤١) حالة انتحار خلال الفترة ما بين (٢٠٠٢م) و(٢٠٠٥م).

ودلت أرقام الجيش على أن أكثر من ألفي جندي حاولوا الانتحار خلال عام (٢٠٠٦م) وبلغ عدد الجنود الذين انتحروا بالفعل (١٠٢) جندياً خلال ذلك العام.

وقد نقلت (سي أن أن) أنّ دراسة عسكرية لوزارة الدفاع الأمريكية (البنتاغون) خلصت إلى أنّ معدل انتحار أفراد القوات الأمريكية ارتفع خلال عام (٢٠٠٧م) إلى أعلى مستوى له منذ أكثر من عشرين عاماً.. وبحسب تقارير صادرة عن جيش الاحتلال الأمريكي، فإنّ عدد حالات الانتحار بين الجنود الأمريكيين خلال عام (٢٠٠٧م) بلغ (١١٥) حالة، مقارنة بـ(١٠٢) حالة في عام (٢٠٠٦م) الذي كان هو الآخر يعدّ الأعلى خلال العشرين عاماً الأخيرة.. ويقرّ البنتاغون بأنّ السنوات الخمس الأخيرة التي شهدت عمليات عسكرية واسعة في العراق وأفغانستان قد سجلت ارتفاعاً غير مسبوق في حالات انتحار الجنود الذين ما زالوا في الخدمة، فيما أشارت الدراسة نفسها إلى أنّ أكثر من حالتين من بين كل خمس حالات انتحار لجنود عادوا للتو إلى وطنهم من أماكن القتال التي يتوزعون عليها في الخارج (العراق وأفغانستان).

غير أنّ حصيلة عام (٢٠٠٨م) بشكل عام كانت الأعلى منذ بدء عمليات الإحصاء قبل ثمانية وعشرين عاماً؛ إذ سجل انتحار (١٣٣) جندياً، والذي كان بدوره الرقم الأعلى منذ بدء الاحتلال بإحصاء عدد المنتحرين في جيشه.. وأشارت التقارير أنه في شهر كانون الثاني من عام (٢٠٠٩م) زاد عدد الجنود الذين انتحروا على عدد زملائهم الذين قتلوا بستة أضعاف، وحتى ضمن القوات البحرية "المارينز"، وبينت الإحصاءات أن عدد المنتحرين من

الجنود قد زاد عام (٢٠٠٨م) ليصل إلى (٣٣)، مقارنة بـ(٢٥) منتحراً عام (٢٠٠٧م) حتى أنها تجاوزت جميع الأرقام التاريخية.. وهذا ما دفع قاعدة "فورت كامبل العسكرية الأمريكية" إلى إغلاق أبوابها، بعد توالي حوادث الانتحار بين جنودها.. حتى وصلت نسبة حالات الانتحار المؤكدة إلى (٢٠,٢%) من كل مائة ألف حالة.

وتفيد إحصائيات الجيش الأمريكي أنّ (٣٠%) من عمليات الانتحار قام بها جنود لدى إرسالهم في مهمات، وأنّ ثلاثة أرباع هؤلاء الجنود كانوا يقومون بأولى عملياتهم.. كما تشير الإحصاءات إلى انتحار جندي من كل ثلاثة أي بنسبة (٣٥%) لدى عودته من مهمة استغرقت عموماً أكثر من سنة؛ إذ عمد الجيش إلى وضع برامج وقائية، واتخاذ تدابير للتعرف إلى الجنود الذين يعانون من مشاكل نفسية.

فقد أقدم (٢٤) جندياً من سلاح البر الأمريكي على الانتحار في العراق، و(٣٩) بعد عودتهم من الحرب، وذلك ابتداءً من مطلع عام (٢٠٠٨م) وحتى شهر آب من العام نفسه.

وأوضحت بعض الدراسات: أنّ عمليات الانتحار مرتبطة بشكل كبير بعمليات الطلاق، أو الانفصال، أو بسبب الصعوبات المالية، أو لأسبابٍ أخرى.

ومما يذكر أنّ جندياً تلقى بريداً من زوجته تقول له فيه (أريد الطلاق)، ثم انتحر.

وهناك عامل آخر في هذه العمليات وهو الإرهاق الذي يعانيه بعض الجنود لدى عودتهم والذي قد يؤدي إلى تشويش علاقاتهم الشخصية.. وعلى سبيل المثال: بين الجنود الـ(١٠٢) الذين انتحروا في عام (٢٠٠٦م) هناك

(٧٢) جندياً لم يكونوا في الخارج و (٢٧) كانوا في العراق وثلاثة في أفغانستان.

ومعظم الجنود الذين انتحروا هم من الشباب الذين تتراوح أعمارهم بين (١٨) و(٢٤) عاماً، ولكنّ الخبراء بدأوا يتحدثون عن ارتفاع عمليات الانتحار لدى الأكبر سناً وفي صفوف النساء، حيث انتحرت (١١) امرأة في (٢٠٠٦م) من اللاتي يخدمن في صفوف الجيش الأمريكي.

ولعل ملخص هذا الموضوع ما ذكره نائب رئيس أركان الجيش الجنرال (بيتر شياريللي) الذي ربط حالة ارتفاع عدد المنتحرين من الجنود الأمريكيين بطول المدة، والوتيرة المتزايدة للمهمات التي تعقد العلاقات بين الجنود وعائلاتهم.. ورجحت مصادر طبية أن يكون للأمر علاقة بأشهر الشتاء الباردة والقاسية، وتزايد المهام المرهقة، والإكثار من الأدوية المضادة للاكتئاب.

وقد نبهت كبيرة أخصائيي علم النفس لدى قوات الاحتياط الأمريكية (العقيد كاثي بلاتوني) إلى أنّ الكثير من الأدوية المضادة للاكتئاب التي يتناولها الجنود تترك آثاراً جانبية، تغذي فكرة الانتحار لديهم، وخاصة أولئك الذين تتراوح أعمارهم ما بين ١٨-٢٤ عاماً.

حالة جنود الاحتلال ..

لا يعدو أنّ يلقى الجندي الأمريكي نصيبه الحتمي في العراق، فما بين قتله، أو عيشه برعب وخوف دائم بما يجعل الموت وسيلة راحة من الحياة، وما بين إصابته بحالة نفسية، أو إعاقة دائمة في جسده، من بتر اليدين أو الرجلين أو أحدهما، أو تشوه خلقي، وما شابه ذلك.

هناك تقارير ودراسات توضح الحالة الطبية والنفسية التي يعيشها جنـود الاحتلال، سواء في ساحة المعركة في العراق، أو بعد إعاقتهم ونقلهـم إلـى بعض المستشفيات خارج العراق، أو بعد انتهاء مدة خدمتهم وعـودتهم إلـى وطنهم.

ووفقاً لما أظهرته الإحصائيات؛ فإنّ عدد حالات الإصابة بأحد الأمراض النفسية أو العقلية بين الجنود الذين خدموا في العراق أو أفغانستان زاد بنـسبة (٥٨%) خلال عام واحد، فقفزَ العدد من (٦٣,٧٦٧) ألف مريض بنهاية شهر حزيران عام (٢٠٠٦م) إلى (١٠٠,٥٨٠) ألف مريض بنفس الشهر من عـام (٢٠٠٧م).. بينما زادت حالات الإصابة بمرض نفسي واحـد فقـط يُعـرف بـ"اضطراب ما بعد الصدمة" وهو نوع من الاضطرابات العـصبية، بنـسبة (٧٠%) خلال نفس الفترة المتقدمة؛ ليصل بذلك عدد المصابين بهذا المـرض إلى ما يقرب من (٥٠) ألفاً، وهو رقم يزيد كثيراً عن رقـم الـ(٣٠) ألفـاً، الذين تعترف بهم وزارة الدفاع رسمياً كمـصابين فـي معـارك أفغانـستان والعراق، وهو ما يعني أن الكثير من المرضى الذين يصابون بأمراض نفسية نتيجة القتال، يتم حسابهم ضمن أعداد المصابين.

ومن نافلة القول معرفة أنّ مرض (اضطراب ما بعـد الـصدمة) الـذي يعرّف بأنه (اضطراب نفسي خاص يتبع تعرض الشخص لحدث مـؤلم جـداً "صدمة" ويتخطى حدود التجربة الإنسانية المألوفة) لم يكن موجوداً في قاموس الطب النفسي، غير أنه بدأ تدريجياً في الظهور عقب انتهاء الحرب العالميـة الثانية، حيث اكتشفت بعض الأعراض النفسية علـى الجنـود فـي ميـادين الحرب، ولكن هذا تم تعميمه على ما يحـدث عقـب الكـوارث كـالزلازل

والفيضانات والصدمات الكبيرة في الحياة والتي تشمل مجموعات كبيرة من الناس[1].

وفي إحصائية نشرت منتصف عام (٢٠٠٨م) بينت ارتفاع نسبة حالات الإصابة باضطرابات ما بعد الصدمة بين الجنود الأمريكيين الذين خدموا في أفغانستان والعراق بنسبة (٤٦,٤%) في العام (٢٠٠٧م)؛ ليبلغ العدد الإجمالي لحالات الإصابة حوالي (٤٠) ألف حالة في سنوات الاحتلال الخمس الماضية.

وبحسب إحصاءات أصدرها الجيش الأمريكي؛ فإنّ عدد الحالات التي شُخِّصت على أنها "اضطرابات نتيجة التعرض لصدمات" ارتفع حتى نشر التقرير من (٩,٥٤٩) حالة في عام (٢٠٠٦م) إلى (١٣,٩٨١) حالة عام (٢٠٠٧م)؛ وذلك في ظل زيادة فترة خدمة الجندي في العراق من سنة واحدة إلى (١٥) شهراً، وإرسال المزيد من القوات لمجابهة المقاومة الساخنة بالعراق وأفغانستان؛ ليصل عدد المصابين الإجمالي إلى (٣٩,٣٦٦) حالة في المدة من أول كانون الثاني (٢٠٠٣م) إلى آخر كانون الأول (٢٠٠٧م).. وأفادت الإحصائية: أنّ المصابين يشكلون تفصيلاً (٢٨,٣٦٥) حالة بين أفراد الجيش، و(٥,٦٤١) حالة بين مشاة البحرية، و(٢,٨٨٤) بين أفراد البحرية، و(٢,٤٧٦) بين القوات الجوية[2].

وعلق الجرّاح في جيش الاحتلال الأمريكي الجنرال الطبيب (إريك شوميكر) على تلك الأرقام بالقول: إن (المسؤولين لا يملكون أرقاماً وبيانات يمكن الاعتماد عليها حول عدد الجنود الذين يعانون من خلل نفسي أو توتر

---

[1] ينظر: صحيفة الوقت البحرينية العدد (١٧٢) الجمعة ١٧/رجب/١٤٢٧ هـ ، ١١/آب/٢٠٠٦م.

[2] من تقرير نشرته مفكرة الإسلام بتاريخ ٢٨/٥/٢٠٠٨م .

بعد العودة من الحرب أو عدد الجنود الذين سعوا إلى الحصول على علاج لأعراض هذا الخلل بعد العودة من العراق أو أفغانستان).

وأضاف إن (ارتفاع عدد الجنود المصابين بهذا النوع من الخلل النفسي في السنوات الأخيرة يعود إلى زيادة الوعي وتتبع مثل هذه الحالات في الجيش فضلاً عن تعرض المزيد من القوات لعمليات قتالية).

واعتبر أن (تلك الأرقام لا تعكس المعدل الحقيقي نظراً لأن عدداً من المصابين بتلك الأعراض لا يسعون إلى العلاج أو أن بعضاً من المصابين هم من المدنيين العاملين مع الجيش).

ووفقاً لأرقام وزارة الدفاع (البنتاجون) فإن قوات جيش الاحتلال ومشاة البحرية شهدت ارتفاعاً كبيراً في عدد الحالات المصابة بخلل نفسي وتوتر بسبب الحرب حيث بلغ ذلك العدد في قوات جيش الاحتلال (٢٣,٣٦٥) فيما بلغ في قوات المارينز (٥,٦٤١) جندياً.

بل إنّ مؤسسة (راند كوربوريشن) أوضحت في دراسة أعدتها بأنّ ما لا يقل عن (٣٠٠) ألف جندي أمريكي من أصل مليون وستمائة ألف جندي يعانون من اضطرابات نفسية منذ العام (٢٠٠١م).

ويوجد لدى جيش الاحتلال في العراق أربع عيادات، يعمل فيها أطباء نفسانيون وأخصائيون في علم النفس، إلى جانب مرشدين اجتماعيين وممرضين، ويمكن بقاء جنود الاحتلال فيها؛ لمجرد تبادل الحديث، أو المعالجة، أو للاستراحة فقط.

ولعلّ أكبر تلك العيادات تلك التي في (معسكر ليبرتي) الذي يعد من أكبر القواعد العسكرية الأمريكية في العالم، ويقع قرب مطار بغداد، ويتمركز فيه ما لا يقل عن خمسين ألف جندي أمريكي.

وتخصص لجنود الاحتلال الأمريكي عيادة لمعالجة (الإجهاد الناجم عن المعارك)؛ إذ يتم فيها استقبال الجنود من قبل طبيبٍ نفساني يقوم بتشخيص العلة ووصف العلاج المناسب لها، وفضلاً عن ذلك يتلقى المريض في تلك العيادة بعض الإرشادات والتوجيهات النفسية التي تلقى عليه أو تكتب له على جدران العيادة، ولعل من أهمها مخاطبة الجنود بالقول (لا تترك أبداً زميلاً يقاتل وحده، اصغِ إليه؛ فليست كل الجروح مرئية، ومنع الانتحار من مسؤولياتك، يجب جلب المساعدة لرفيقك)!!.

ومع كل ذلك؛ فإن ثمة انتقادات لا تنقطع عن إهمال المسؤولين والأطباء الأمريكيين للجنود الذين يتعرضون لإصابات خلال المعارك التي يشاركون فيها.. ويتمثل ذلك الإهمال بحالات متعددة أهمها ما يأتي:

١- **الإهمال الصحي:** وكانت فضيحة هذا الإهمال لجنود الاحتلال بعد تعرضهم للإصابات وعدم الاكتراث بحالتهم الصحية، قد تفجّرت في الولايات المتحدة بعدما كشفت صحيفة (واشنطن بوست) عن المشكلات التي يعاني منها الجنود في مستشفى (ولتر ريد) والتي تعّد أكبر مستشفى عسكري أمريكي إذ قالت: إنَّ الجنود يستكملون علاجهم هناك في مبنى متداعٍ يعج بالفئران والغبار والصراصير.. وأكدت أن (البيروقراطية) في هذه المستشفى تعيق تقديم المساعدات لجنود مصابين بإصابات بالغة[1].

٢- **الإهمال الاجتماعي:** بسبب عدم إدراج جملة كبيرة من جنود الاحتلال ضمن قوائم المصابين، وقد فجرّت صحيفة (يو أس أي توداي) الأمريكية فضيحة جديدة لوزارة الدفاع (البنتاغون) حيث كشفت عن وجود ما لا يقل عن (٢٠) ألف جندي شاركوا في القتال بالعراق وأفغانستان، إلا أنهم غير

---

[1] من تقرير نشرته مفكرة الإسلام بتاريخ ٢٨/٢/٢٠٠٨م.

مدرجين على قوائم الجيش كمصابين، في حين أنهم يعانون من إصابات في المخ نتيجة المهام القتالية.

وفي جزئية أخرى، تقول إحدى الدراسات أيضاً: إنّ جنود أمريكا العائدين من العراق يعانون من أمراض رئوية، قد تودي بحياة المصاب أو تربكها على أقل تقدير.. وقد أظهرت دراسة جديدة نشرتها مجلة (ويب ميديكال نيوز) الأميركية أنّ مجموعة كبيرة من الجنود الأميركيين القدامى العائدين من العراق يعانون من أمراض رئوية.

وكشفت الدراسة أن هؤلاء الجنود يعانون من أحد أنواع الأمراض الرئوية الذي يصيب القصيبات الهوائية في الرئة، لافتة إلى أن التهاب القصيبات ينتج عن أسباب عدة منها استنشاق السموم، أو الالتهابات الجرثومية، أو مرض الروماتيزم.

وأوضح الباحثون الذين أجروا الدراسة: أن الفحوصات الوظيفية للرئة والفحوصات الشعاعية التي أجريت على (٥٦) جندياً من الذين بدت عليهم أعراض المرض الرئوي لم تشر إلى وجود أية علامات مرضية، لكن تحليل أنسجة الرئة (Biopsy) أظهر فيما بعد تعرض نحو (٣٠) منهم لالتهاب القصيبات الرئوية، وأن معظمهم شخّصت حالاتهم على وجود إصابة بالمرض بسبب تعرضهم لفترات طويلة إلى غاز ثاني أوكسيد الكبريت الذي نتج عن اندلاع حريق في منجم للكبريت قرب إحدى مناطق محافظة الموصل شمال العراق.

وأوضحت وزارة الدفاع الأميركية أن الدلائل تشير إلى أن جماعات مسلحة كانت وراء اندلاع هذا الحريق الذي يؤكد المختصون أنه الأكبر من نوعه على الإطلاق.

وأكدت الفحوصات التي قام بها الجيش الأميركي لنماذج من الهواء في المنطقة حصول التلوث بغاز ثاني أوكسيد الكبريت بنسب ذات سمية واضحة.

وإذا اتضح ما تقدم؛ فإنَّ من المؤكد أن الحالة النفسية المزرية التي يصاب بها المعتدون على البلدان المنكوبة لا تحصر إصابتها بالجنود المحتلين، بل تلاحق حتى السياسيين المتواجدين هناك، نتيجة الضغوط والخوف والقلق الذي يرافقهم ولا يكاد ينفك عن أحد منهم، وقد أوضحت دراسة بأن (٤٠%) من دبلوماسيّ أمريكا يعانون أمراضاً نفسية، خاصة في العراق وأفغانستان[1].

أما ما يتعلق بجراحة الجنود وبتر الأطراف بسبب الإصابات التي يتعرضون لها في ساحة الحرب نتيجة المواجهات المستمرة في العراق؛ فقد كشفت صحيفة (الأوبزرفر) البريطانية أنَّ معدلات عمليات بتر الأطراف التي أجراها الجراحون العسكريون للجنود الأمريكيين في العراق، قد ازدادت بمعدل الضعف، مقارنة بالمستويات التي سُجلت في الحروب السابقة، وأشارت الصحيفة إلى أنَّ (٦%) من المصابين من الجنود الأمريكيين هناك يحتاجون إلى عمليات بتر، مقارنة بـ(٣%) في مناطق الصراع الأخرى.

ويؤكد جراح تقويم الأعضاء في المستشفى العسكري التي تعالج جنود الاحتلال الأمريكي وبعض القوات الأمنية الحكومية المتعاونة معها في الموصل (الكولونيل وين موسلي) أنَّ الإصابات الخطرة التي تتطلب البتر وتركيب أطراف اصطناعية تصل إلى (٨٠%) من الإصابات[2].

أما جنود بريطانيا، فهم أيضاً يعيشون أياماً مأساوية في العراق، وقد أكدت صحف بريطانية أن جنود الاحتلال البريطاني العائدين من العراق

---

[1] ينظر: أرقام تحكي العالم ص٨٥.

[2] ينظر: الحوار المتمدن العدد (١٩٩٢) بتاريخ ٢٠٠٧/٧/٣٠م.

وأفغانستان يعانون من مستويات غير مسبوقة من مشاكل الصحة العقلية، إضافة إلى إهمالهم وتجاهلهم ونسيانهم من قبل الحكومة البريطانية.. وقالت صحيفة (الأندبندنت أون صنداي): إنّ حوالي (٢١) ألفاً من الجنود البريطانيين – من الذين أدّوا الخدمة في العراق أو جنود الاحتياط – قد مسّتهم أمراض نفسية من قبيل القلق والاكتئاب، وإنّ الأرقام الرسمية تشير إلى (٢٠) عسكرياً بريطانياً أقدموا على قتل أنفسهم منذ غزو العراق في مارس عام (٢٠٠٣م)، فيما يعيش أكثر من ألف جندي سابق مشردين بلا مأوى[١].

---

[١] من تقرير نشرته مفكرة الإسلام بتاريخ ٢٠٠٨/٢/٢٨م.

الاتجاهات الشعرية بعد احتلال العراق وأثرها في دعم القضية العراقية

محمد مساعد آل جعفر[1]

لطالما كان المثقفُ والأديبُ والفيلسوفُ أولَ المعلنينَ للثورة، ولطالما كان القلمُ السلاحَ الأولَ في المقاومةِ عبرَ التاريخ، ولطالما كان "الرأيُ قبلَ شجاعةِ الشجعانِ".

وهذه الظاهرةُ ظاهرةٌ منطقيةٌ من حيثُ تدرّجُ الثورةِ أو المقاومةِ، فالشعبُ الرازحُ تحتَ حكمٍ جائرٍ وظلمٍ وقهرٍ، لا ينتقلُ من مرحلةِ الخوفِ التـــامِ إلـــى مرحلةِ المواجهةِ المباشرةِ السافرةِ إلا بعدَ مرورِهِ بمرحلةِ الـــصوتِ المتعـــالي شيئاً فشيئاً، الذي يبدأُ النبشَ في أسوارِ الخوفِ والخنوعِ لدى المجتمعِ؛ ولـــذلكَ نجدُ المعتقلاتِ والسجونَ لا تبدأ باستضافةِ الثوّارِ المسلحينَ والإنقلابيينَ مـــن ضباطَ أو منشقينَ عسكريينَ إلا بعدَ أن تكونَ قد اكتضت واتخمت بـــالمفكرينَ والأدباءِ والمثقفينَ وأصحابِ الشهاداتِ العليا، بلْ إنّ القلمَ هو الرفيقُ الأوفـــى للثورةِ؛ فهو أبوها الذي يضعُ بذرتَها في رحمِ المجتمعِ الخائفِ المترددِ، وهـــو

[1] باحث وأديب عراقي.

أمُّها الحاضنةُ الحانيةُ المستميتةُ للحؤولِ دون إجهاضِها أو ولادتِها مشوهةً غيرَ مكتملةِ الملامحِ، وهو أخوها الذائدُ عنها والرقيبُ على تصرفاتِها والحريصُ على سيرِها في السبيلِ القويمِ؛ يؤنبُها ويوبخُها إذا حادت فلا يتركها إلا عروساً في خدرِها أو ذبيحةً في قبرِها؛ دماؤها تبرئةُ من ذنبِها وتحط من خطاياها.

ولمّا كانت الحالُ كما وصفنا فإنّ منَ المنطقِ أنْ نرى هذهِ الظاهرةَ مضاعفةً في عراقِ اليومِ إذا نظرنا إلى تاريخِ هذا البلدِ المليءِ بالثوراتِ وغاباتِ الأقلامِ وحجمِ المأساةِ التي يمرُ بها في الوقتِ الحاضرِ، فالعراقُ بلدُ الإحتجاجِ الأولِ بلا منازعٍ؛ فهو البلدُ الذي لم يرضَ عن حاكمٍ على كثرةِ ما تعاقبت عليهِ حكام، وطُبِّقَتْ عليهِ سياسات تراوحت ما بينَ سياساتٍ أرجا من "لو أرادَ أهلُ العراق في كلِّ يومٍ حاكماً يولّى عليهم، فَولِّ عليهم في كلِّ يومٍ حاكماً"، وبين سياساتٍ أنكى مِن "أنجُ سعدُ فقد هلك سعيد".

وهو أيضاً بلدُ الشعرِ الأولِ، وأولُ من دونَ بالقلمِ، وخط العِلمَ مساميراً على ألواحِ الزمانِ ونقوشاً ناطقةً بالحضارةِ على صخورِ الجهلِ الصمّاءِ؛ إلا أنّ.... (وهنا نقفُ.. وهنا نتنبهُ.. وهُنا تُسكبُ العبراتِ)؛ هذا البلدُ الجبارُ وهذا (المثقفُ الحرُّ الثائرُ) أو (الثائرُ المثقفُ) نراهُ اليومَ على غيرِ عادتِهِ؛ خفيضَ الصوتِ في الكلامِ عن قضيتِهِ؛ كسولاً في الكتابةِ عنها، وأنا هُنا لا أُنكرُ وجودَ الصوتِ الأدبيِّ المقاومِ، غيرَ أنّي لا أسمعهُ - كما لا يسمعهُ غيري- متناسباً معَ حجمِ العراقِ وحجمِ القضيةِ العراقيةِ وحجمِ الوعيِّ العراقي والثقافةِ العراقية.

ولأنّي اتخذتُ الشعرَ نموذجاً لقياسِ الحركةِ الأدبيةِ المقاومةِ والناطقةِ باسمِ المقاومةِ المسلحةِ في عراق اليومِ، فإنّي أقولُ: إنّ الحركةَ الشعريةَ بصورةٍ عامةٍ في العراقِ بعدَ الاحتلال الإنجلو أمريكي قد اتخذتْ عدةَ أوجه:

الوجهُ الأوّلُ : شعرُ رثاءِ الوطنِ. **والوجه الثاني**: شعرٌ يـذمُّ الاحـتلالَ دونَ التعرّضِ للحكومةِ المُنَصّبَةِ من قِبَلِه. **والوجهُ الثالثُ**: شـعرٌ يـذمُّ الاحـتلالَ والحكومةَ العميلةَ لهُ. أما **الوجهُ الرابعُ**: فشعرٌ يذمُّ النظامَ السابقَ (وهـو فـي غالبهِ شعرٌ يقفزُ متجاوزاً جرائمَ الاحتلالِ)، **الوجهُ الخامسُ**: شعرُ المقاومـةِ المسلحةِ.

وقد تتداخلُ بعضُ هذهِ الأوجهِ أحياناً فيما بينِها خاصةً ما تقاربَ منها فـي الغاياتِ، وهذهِ الأوجهُ توزعتْ على أنواعِ الشعرِ المختلفةِ؛ الـشعرُ الفـصيحُ بنوعيهِ: العاموديُّ والتفعيلةُ، والشعرُ العاميُّ المعروفُ في العـراقِ، والـشعرُ النّبَطيّ البدويّ، والشعرُ الريفيّ من أبوذياتٍ ودارمياتٍ.

والذي يَهُمُّنا في الدرجةِ الأساسِ هنا؛ الشعرُ الّذي يخدمُ قضيةَ العراقِ فـي جانِبِها الإنسانيّ وقضيةَ العراقِ في مشروعِهِ الجهاديِّ المقاومِ؛ ولذلك سيتركزُ كلامي في وجهينِ رئيسينِ من أوجهِ الشعرِ سالفةِ الذكرِ؛ وهما (شـعرُ رثـاءِ الوطنِ) و(شعرُ المقاومةِ العراقيةِ)؛ محاولاً قدرَ الإمكانِ التعريج علـى بـاقي الأوجهِ ببعضِ الاستشهاداتِ والذكرِ.

الوجهُ الأولُ: شعرُ رثاءِ الوطنِ

وهذا النوعُ من الشعرِ فنٌ معروفٌ أدبياً باسمِ (رثـاءِ الممالـكِ) و(رثـاءِ المدنِ)، وقد وصلَ هذا الفنُ ذروتهُ بسقوطِ المدنِ الإسلاميةِ في الأندلسِ غرباً على يدِ الإسبانِ، وهو في الحقيقةِ فنٌ أندلسيٌّ في الدرجةِ الأولى رغمَ ظهـورِ بوادرهِ في المشرقِ العربيِّ بسقوطِ بغدادَ والمدنِ الإسلاميةِ الشرقيةِ علـى يـدِ التتارِ؛ قال الشاعرُ الأندلسيُّ (أبو البقاءِ الرنديّ) في رثاءِ الأندلسِ:

فاسأل بلنسية ما شأنُ مرسيّة

وأين شاطبـــةٌ أم أين جيــّانُ

وأينَ قرطبةٌ دارُ العلومِ فكَمْ

مِنْ عالمٍ قَدْ سَمَا فيها لهُ شــانُ

وأينَ حمصُ وما تحويهِ من نُزَهٍ

ونَهرُها العذبُ فيّاضٌ وملآنُ

في قصيدةٍ هي مِنْ عيونِ الأدبِ العربيِّ ومِنْ أعذبِ ما كَتَبَهُ العربُ، وقال الشاعرُ البغداديُّ (ابنُ أبي اليسرِ) في رثاء بغداد:

لسائلِ الدمعِ عن بغدادَ أخبارُ

فما وقوفُكَ والأحبابُ قدْ ساروا

يا زائرينَ إلى الزّوراء لا تفدوا

فما بذاكَ الحِمَى والدّارِ ديّـــارُ

إنّ القيامةَ في بغدادَ قدْ وُجِدَتْ

وحدَها حينَ للإقبالِ إدبـــــارُ

ومع أنّ الحالةَ الأندلسيةَ تختلفُ عن الحالةِ البغداديةِ زمنَ التتار، ومــعَ أنّ الحالتينِ تختلفانِ كثيراً عن الحالةِ العراقيةِ الحاليةِ، إلا أنَّ الإسقاطاتِ الأدبيةَ لَمْ تعترفْ بذلكَ الاختلافِ كثيراً، وعلى المستوى الشخصيّ فقدْ تشابَهَتْ عنــدي القضيّةُ الأندلسيةُ مع القضيةِ العراقيةِ في أبياتٍ نُشِرَتْ لِي في إحدى المجلاتِ الخليجيةِ؛ حيثُ يقفُ الحبيبُ متحيراً في بكاءِ الحبيبةِ والبلدِ:

أبكيك وداد أم أبكي

وطناً يَبكيك ويَبكيني

أم أبكي عرساً كرخياً

من دجلة زُفَّ إلى الطينِ

ليأتيَ صوتُ الحبيبةِ بعدَ عدةِ أبياتٍ موبخاً الحبيب ومُعلنــاً للقــارئ بــأنَّ القضيةَ قضيةٌ إسلاميةٌ عامةٌ، وليستْ قضيةً وطنيةً أو قضيةً عربيةً فقط:

وأنا والبلد المنعي

أصداء عويل وأنيـــنِ

فكأنـــا أندلسٌ أخرى

يبكينا المسلم في الصّينِ

كما أن اللحن الأندلسي الحزين وجد من يعزفه بأوتار عراقية فـي قلـب أمريكا عبر ديوان شعري للـشاعرة العراقيـة (بـشرى البـستاني) عنوانـه (أندلسيات لجروح العراق) حيث صدر هـذا الـديوان مترجمـاً الـى اللغـة الإنجليزية عن دار (ميلن برس) الأميركية؛ بعنـوان (شـعر معاصـر مـن العراق) وهي خطوة أدبية كبيرة لتعريف المجتمع الأميركي بحقيقـة القـضية العراقية، ودعم الرأي المناهض للاحتلال هناك؛ تقول بشرى البستاني:

"الجندي الأمريكي

يطلق ناراً فوق جبين صبي

منتفخ الصدر

سقط الطفل ببركة دم

إذ فكوا صدره

كانت أرغفة الخبز

تنزف تحت قميصه"

وتقول أيضا على لسان الطفولة:

"أصحو في الفجر على صوت الإطلاقات

ألم شظايا العتمة فوق سريري

يتسائل طفلٌ في شرفة قلبي

عمّا يفعله الأمريكي على البوابات"

ويتواصل رثاء الوطن لدى الشاعر العراقي (حميد سعيد) متخذاً رمزية الحضارة الباعثة بنور الحكمة والعلم وقد أحاطها ظلام الهمجية قائلاً:

"سبعة كهانٍ من أورْ

سبعة حكماء من بابلْ ... سبع أميراتٍ من آشورْ

النيران تحاصرهم ... في فردوس الوطن المغدورْ

يطردهم وحش العتمة ... من حقل النورْ"

وكذلك في هذا الصدد يسمعنا الشاعر (يحيى السماوي) أبياتاً غايةً في العذوبة من قصيدته (سبايا) :

واليومَ ليلى بات يحكمُها ... نَذلٌ خسيسُ الذيلِ والرُدُن

جازَ البحارَ ليَستبي وطناً ... ويُقيمَ فيهِ إمارةَ الفِتَنِ

فأنا الشهيدُ لأنَّ عاشقتي ... مَسْبيَّةٌ وسَبيّةٌ مُدُني

ولأن الجرح العراقي يوجع الجسد العربي كله فيتداعى له سائر الجسد بالسهر والحمّى، نجد الشاعر السعودي (عبد الرحمن العشماوي) يرثي العراق بقصيدة طويلة، وجدت فرقة إنشادية تنشدها بلحن غاية في الحزن والرتابة المتماشية مع رتابة المأساة العراقية، يصوّر فيها جرائم سجن بغداد الكبير، وأبشع إهانات الجيش الأميركي لأبنائه، وقد قامت بعض مواقع فصائل المقاومة على شبكة الإنترنت بنشر هذا النشيد، مما يدل على اهتمام فصائل المقاومة بالدور الأدبي وتنبهها لخطورته:

يحاصرني من اللقطاء جيشٌ

وبئس الجيش ليس له ضميرُ

تلاحقني مجندة وكلب

فيا الله أيهما الحقيــــــرُ

ويطعن عفتي وغدٌ رماني

وفي عينيه شر مستطيــــرُ

ويقرر بعدها أنه ما عاد في العراق الذي كان يعرفه:

سجين في العراق ولست فيه

لأن عراقنا سجن كبيــــرُ

وما بغداد بغدادي فإنـــي

أراها لا تجار ولا تجيــــرُ

وهكذا تستمر القصيدة بالرتابة المأساوية إلى آخر بيتين فيها حيث يتساءل فيهما عن ابتسامة أمل، أو نخوة سيف إسلامي، ولا نحسُّ في سؤاله تحيزاً إلى أمل يراه، أو يأس من الرجاء، وإنما ترك السؤال مجرداً:

أما في أمة الإسلام سيفٌ

يخاف صليله الباغي الكفــورُ

أما لليل فيها من نهار

تغرد بابتسامته الطيـــورُ

وإذا انتقلنا غير بعيد نجد الشاعرة الإماراتية (هدى السعدي) تحكي أوجاع العراق، وما لاقته وتلاقيه بغداد على يد المجرمين المحتلين، وللشاعرة اسهامات رائعة في هذا الجانب المهم من تاريخ العراق الحرج في ظل الاحتلال.

ويمتد رثاء العراق فيشمل نوعاً آخر من الشعر، ألا وهو الشعر البدوي، أو الشعر النَّبَطي في قصائد كثيرة، منها قصيدة الشاعر (عادل الشاهين الشمري) بعنوان (بغداد تبكي) ويقول فيها:

"تبكي تصيح تقول (عــذرا) ياالاحرار
وجابوا على الشاشات كيف اغتصابه
كل قطعة من سترها موجز أخبار
بغداد وإن حلـّت عليج الجنابـه
تطهّري من دمّنا واغسلي العار"

ويعبر عن بغداد بمريم العذراء؛ إلا أنّه ينتقل في آخر الأبيات مـن نبـرة المأساة، إلى نبرة الأمل والتحدي، حيث يبشر مريم بقـدوم المقاومـة التـي ستنجبها عن قريب فهي لها بمكانة عيسى لمريم:

"ياطاهرة عيسى على باب الأسوار
ولا تموت أمة رسول الصحابة"

منهياً قصيدته بارتفاع التحدي إلى حد التحذير
"واللي يشب النار لا يامن النار"

ويرثي الشاعر (يوسف العتيبي) بغداد وأهلها، إلا أنه في رثائه يستـصرخ زعماء الأمة لنصرة العراق؛ بمناسبة قرب انعقاد مجلس جامعة الدول العربية حينها، فيقول:

"ماني بناسي صبح بغداد الأمجاد
اللي حجب شمسها من الظلم بــارود
وإن كان في التاريخ صورة لبغداد
هذي شوارعها عصابات وجنـــود
يا قادة الأمة نبي منكم أنجاد
ضاعت علينا وقت الاغلال وقيــود
شعب يعيش الغبن وينذل ويباد
قتيل ومشرد ولاجي ومفقـــــود

تتخاكم آهات الثكالى بالاصفاد
وطريق مجدب بالملمات مسدود"

ولا يسعنا المجال هنا لذكر الأناشيد والأغاني الكثيرة التي تناولت رثاء العراق وبغداد.. فقد امتدت ساحتها طولاً وعرضاً، وشملت الشامي والمغربي، بل شملت العربي والأجنبي.

ولعل ما نختم به هنا كلمات أغنية فرنسية بعنوان (جو ما بيل بغداد) ومعناها (إسمي بغداد) تؤديها المغنية الفرنسية (تينا آرينا) حيث تقول الأغنية:

"إسمي بغداد
لقد عشت في سعادة غامرة في قصوري المصنوعة من الذهب الأسود والأحجار الكريمة
ونهر دجلة ينساب على الشطآن المرصوفة بالكريستال
حيث تزاحم ألف خليفةٍ للرقص معي ... كانوا يدعونني مدينة النِعَم..
إلهي كيف مضى ذلك الزمان ؟!
إسمي بغداد وقد سقطتُ تحت نيران الدبابات..
إسمي بغداد.. كأميرة مجهولة نسيتني شهرزاد..
عشتُ على أرضي كمتسولة مسكينة تحت الجرافات ..
وجبريل كان يلازمني..
وقد ندبت جمالي المخرّب فوق الجمر .. إنها روحي تلك التي اغتالوها
كانوا ينادونني عاصمة النور والمعرفة..
إلهي كيف ضاع كل شيء ؟!
إسمي بغداد.. ولقد سقطتُ تحت نيران الدبابات..
كأميرة مجهولة.. نسيتني شهرزاد..
قصصي الألف ليلة وليلة لم يعد يهتم بها أحد..

لقد دمروا كل شيء

إسمي بغداد: ولقد سقطت تحت نيران الدبابات..

كأميرة مجهولة نسيتني شهرزاد".

الوجه الثاني: شعرُ المقاومةِ العراقية

عرف الأدب العربي المعاصر شعر المقاومة بوصفه ظاهرةً فنية على أيدي شعراء فلسطين بالدرجة الأولى، وذلك منذ أيام الانتداب الإنجليزي، حيث يؤكد بعض الأدباء أن مؤسس هذا الفن هو (الشاعر إبراهيم طوقان) صاحب النشيد المشهور في كل البلدان العربية (موطني)، ومن المفارقات أن هذا النشيد قد أصبح النشيد الرسمي لعراق ما بعد الاحتلال، بعد أن تمّ اختياره من إحدى الحكومات، التي لا أدري أين يذهب أعضاؤها عندما يسمعون بعض الأبيات التي لو تدبروها جيداً لجعلوها في خانة التحريض على الإرهاب، ولو سمعوها بقلوب وضمائر حيّة – وهو شيء مستبعد طبعاً– لذابوا خجلاً من أنفسهم:

"الشباب لن يكلّ

همّهُ أن تستقلّ أو يبيد

نستقي من الردى

ولن نكون للعدى كالعبيد"

وإذا ما أتينا إلى شعر المقاومة العراقية؛ فإننا سنجد المقاومة تفاجئنا بانتجاب أسماء أدبية جديدة، غير التي كنا نتوقع بروزها وغير ما كان معهوداً في المجال الأدبي إلا ما ندر؛ فلله درّ هذه المقاومة التي جددت دماء المجتمع العراقي على مختلف الأصعدة؛ فكما غابت وجوه من كانوا يدّعون انفرادهم في الذود عن الوطن، وبزغت وجوه طالما كانت مغمورة مبتلية، إمّا

بالتهميش، وإما بالملاحقة وتعمد الإساءة، نرى هامات أدبيّةً عاليةً قد طأطأت وانحنت خاضعةً ذليلة، وأخرى كانت تتشدق ليلَ نهارٍ في كل محافل العالم بالمقاومة الافتراضية لأعداء الأمة بدت بعد الاحتلال وكأنها في عالم آخر، في حين برزت أسماء أدبية كانت لا تجد صدى حروفها إلا في جوف مسجد صغير، أو على أوراق بعض شباب الجامعات يتداولونها على تخوّف أو استحياء.

وإذا أردنا أن نتتبع آثار أولئك الشعراء الذين آمنوا بقضيتهم وعملوا الصالحات في توجيه المجتمع منذ بواكير أعمالهم، وذكروا الله كثيراً في شعرهم، وانتصروا من بعد ما ظلموا، فإننا نرى الشاعر العراقي (محمد سعيد الجميلي) في طليعتهم بقصائده التي يتغنى فيها بالمقاومة العراقية؛ فالشاعر (الجميلي) وإن كان معارضاً لمن حكم العراق قبل الاحتلال إلا أنه لم يجعل ذلك مبرراً لمسالمة جيش الاحتلال وأعوانه؛ فهو في قصيدته (خمس عجاف) التي يحاور فيها العراق لا يبرئ الواقفين على حكم العراق قبل احتلاله من مسؤولية الدمار الذي حل به :

لي في مصابك وقفةٌ وعتابُ

ونزيف قلب جرحه أبوابُ

وشجون ذكرى تستدرُّ دموعنا

وحطامُ صرحٍ خانه البوّابُ

وهو في هذه القصيدة وإن كان قد جعل للأسف والحزن نصيباً في ثناياها، وجعل لهجاء الاحتلال وعملائه نصيباً من أبياتها؛ إلا أنه كان فيها مقاوماً من الطراز الأول، يصول في ساحات الجهاد وينزف الدماء فالقارئ للقصيدة يراه قد توحّد بالمجاهدين، حتى صار منهم يحكي لنا بطولاتهم قائلاً:

كنّا نصاول في الميادين العدا

وعلى مساجدنا تصول كلابُ

كنا نخط جهادنا بشريعة

تدعى لدى أعدائنا (إرهابُ)

ونميط عن غبش الطريق غشاوة

كي يفهم الجهّال والأعرابُ

وعلى نهج المدرسة التي يستقي منها (محمد سعيد الجميلي) يقدم إلينا من طلائع الشام الشاعر السوري (أحمد الهوّاس) بقصائد عن المقاومة العراقية منها قصيدة (عراق المجد) وقصيدة (نطق الرصاص) التي يحتفي فيهما الشاعر بالمقاومة العراقية وبمدنها ورجالها أيّما احتفاء في عرس للبطولات تكاد تسمع صناجره ودفوفه في السطور..

وفيما نتنقل منتهزين فرصة تماهي الحدود بين العراق والشام في هذه الرحلة الأدبية معايشين قول الشاعر:

ليس بين العراق والشام حدٌّ

هدّم الله ما بنوا من حدودِ

نسمع أخيراً صوت الشاعر العراقي (عبد الرزاق عبد الواحد) بعد طول انتظار يأتينا من دمشق مصحوباً بملايين الدمع لبغداد:

دمعٌ لبغداد دمعٌ بالملايينِ

من لي ببغداد أبكيها وتبكيني

ولا يقف الدمع عند حدود بغداد، بل يجاوزها بعد أن مرّ على كثير من أحيائها مهطالاً فيكون:

دمع لفلوجة الأبطال ؛ ما حملت

مدينة من صفات أو عناوينِ

للكبرياء لأفعال الرجال بها

إلا الرمادي ؛ هنيئاً للميامين

لم تأل تجأر دباباتهم هلعاً

في أرضها وهي وطفاء الدواوين

ماحرّكوا شعرةً من شيب نخوتها

إلا ودارت عليهم كالطواحينِ

وهكذا يستمر انهمار الدمع عند (عبد الرزاق عبد الواحد) متنقلاً بين مدن العراق شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً ليشمل العراق كلــه، والحقيقــة أن هــذه القصيدة وإن كانت غارقة بالدمع على المدن العراقية؛ إلا أني لم أضعها فــي خانة رثاء الوطن؛ لكونها تغنت طويلاً ببطولات مدن العراق وصولات أبنائها وجولاتهم في ميادين القتال، ناهيك عن أن دمع الشاعر في القصيدة لم يكــن دمع رثاء:

وأنت تعرف أن الدمع تذرفه

دمع المروءة لا دمع المساكينِ

وما يلحظه القارئ في شعر المقاومة العراقية عموماً هــو ذلــك الاتحــاد الدائم بين كل مدن العراق؛ وذلك التماسك بين مكونات شــعبه، رغــم كــل محاولات السياسيين في فصل تلك المدن عن بعضها، والتفرقة بين مكونــات شعبها وبث روح الطائفية، فدماء العراقيين في شعر المقاومة قد وحّدَت تلــك المدن وتلك المكونات، كما صرح بذلك (عبد الرزاق عبد الواحد) فــي آخــر أبيات قصيدته مخاطباً ملايين الشعب العراقي: (على دمــاكِ اتحــاد الــسين والشين) في رمزية للسنة والشيعة.

وترادف تلك الجهود ما قام به شاعر الشباب الشهيد خالد السعدي، الذي برع في تجسيد قضية العراق وما يعانيه أبناؤه في ظل الاحتلال، ولكنَّ المطاف انتهى به شهيداً في أواخر شهر حزيران من هذا العام.

وتبقى قصائد المقاومة مستمرةً في تنوعها شاملة أطياف الشعب العراقي وقومياتهم وثقافاتهم فتظهر لنا أسماء أدبية من ريف العراق تصدح بأهازيج الريف تمجيداً للمقاومة ولعل أكثر من كتب للمقاومة من شعراء الريف الشاعر (محمود علي سليمان)، ثم تحملنا شمالاً لتسمعنا صوتاً كردياً أصيلاً هو صوت الشاعرة العراقية الكردية (ملّك كاوان) ابنة الشمال التي تبدأ إلقاء قصيدتها بتحية باللغة الكردية، ثم تتكلم باللغة العربية ناقلةً تحيات شمال العراق إلى جنوبه، ثم بعد ذلك ترتفع نبرة قصيدتها بالتحدي والمناداة بالثأر حتى تصل أوج حماستها عند تذكرها للطفلة (عبير الجنابي) التي اغتصبها جنود الجيش الأميركي، وقتلوها وأحرقوا جثتها، لتعلن بعد أن تتذكر هذه الفاجعة خروجها من المقاومة الأدبية لتنتمي إلى المقاومة العراقية المسلحة قائلةً:

ومن ذكرتج يا عبير وانتِ طفلة
ماتت بلا ذنب مهتوكة ستر
شققت بيدي الورق واقسم يمين
شما يظل بيّ نفس لاحرق (همر)

وقبل أن أختم مقالتي أود الإشارة الى أن هناك كثيراً من القصائد التي تغنت بالمقاومة العراقية، وتغنت بها المقاومة العراقية في مواقعها على شبكة الإنترنت، بل ويتضح اهتمام المقاومة العراقية بالحركة الشعرية المؤازرة لها إذا ما عرفنا أن إحدى جبهات المقاومة العراقية عبر موقعها على شبكة

الانترنيت قد أقامت مسابقة شعرية، تستقبل فيها القصائد المناهضة للاحتلال والمؤيدة للمقاومة.

وختاماً فإنه رغم كل ما ذكرنا من قصائد، وهي لا تشمل كل ما قيل بطبيعة الحال ولا غالبه، بل هي أمثلة له، إلا أن الواقع يقول إن العراق قد بذل من الدماء أكثر بكثير مما بذل من الحبر، وإن المقاومة العراقية فجرت من الدبابات والمجنزرات وناقلات الجنود أعداداً تفوق بكثير أعداد ما استهلكت من أقلام في الكتابة عن قضيتها.. وكلنا أمل أن تشهد الأيام القادمة نهضة أدبية تكون رديفة لتلك الجهود التي يبذلها من ضحى بنفسه وماله من أجل العراق، ووحدته، واستقلاله.

المقاومة العراقية..
قراءة في شواهد استعادة العافية

أسامة عبد الرحيم حسين [1]

تجلت في وضوح ملامح الهزيمة العسكرية الأمريكية في العراق، وباتت تضاريسها سهلة التحديد أواخر عهد بوش وأوائل حقبة أوباما بأقل جهد من الرصد والتحليل، حتى وصل حال جيش الاحتلال حد الانهيار – في إعادة للمشهد الفيتنامي– وقام جنوده الذين يطاردون "الأشباح" في بغداد بقتل بعضهم بعضاً وفق تقارير تمّ تسريبها مؤخراً.

وترتكز هذه الهزيمة أول ما تركتز حول تماسك المقاومة ورفضها الاستدراج وفشل الاحتلال من ثلم إرادتها وتدجين مواقفها كما جرى مع بعض الأطياف التى دخلت حظيرة المشروع الأمريكي مختارة.

وتعد عمليات المقاومة النوعية ضد الاحتلال وأعوانه أحد أدوات الكونجرس والبنتاجون لقياس تقهقر المشروع الصهيو– أمريكي على أرض الرافدين، وتزخر وسائل الإعلام بتقارير يومية عن عدد القتلى الأمريكان،

---

[1] باحث وإعلامي مصري.

وقد مُني جيش الاحتلال الشهر الماضي بأكبر نسبة خسائر في صفوفه منذ شهر سبتمبر عام ٢٠٠٨م.

كما شهد شهر مايو مقتل ٢٢ جندياً أمريكياً مما رفع عدد القتلى في صفوف قوات الاحتلال منذ العدوان على العراق عام ٢٠٠٣م إلى أكثر من (٤٣٠٠) قتيل، بحسب تقديرات يراعى فيها عدم الحديث عن خسائر المرتزقة الأجانب المنخرطين في صفوف الاحتلال من طالبي الجنسية.

ورغم أن مستوى عمليات المقاومة قد هبط بنسبة كبيرة – وفق تقارير أمريكية – عما كانت عليه قبل عدة أعوام، إلا أن عودة الزيادة الحادة في الخسائر خلال الشهر الماضي جعلت إدارة أوباما تشعر بالقلق حيال مراهنتها على خيار المراوغة في بقاء قواتها رهن مقاومة لم تفلح معها قوات حكومة المالكي العميلة، كذلك لم تكبح جماحها قوات الصحوات التى تهاوت في مستنقع دولارات الاحتلال التى لم تسمن ولم تغن من قبضة المقاومة.

صحوات سنمار

في التحليل المباشر لمجريات الأحداث بوسعنا الآن تعريف هذه المجاميع والمليشيات التى أطلق عليهم الصحوات بأنهم "مطايا الأمريكان وعبدة الدولار"، التي تشكلت لتكون رأس حربة تضاف إلى الجدار البشري العازل الذي يتكون من قوات الشرطة والجيش ومليشيات تابعة لهما، ومهمته الفصل بين قوات الاحتلال من جهة وبين عمليات المقاومة لتقليص خسائر البنتاغون، وقد أنشئت قوات الصحوات للمرة الأولى في سبتمبر ٢٠٠٦م في محافظة الأنبار لتشكل شوكة في خاصرة المقاومة التى حصدت نصيب الأسد، خلال عمليات استهداف قوات الاحتلال الأمريكية، وخلال أشهر قليلة أظهرت

الصحوات نتائج مرضية للاحتلال الأمريكي، ما شجعه على تطبيق هذه التجربة في محافظات أخرى.

ومثل أي "سنمار" تجرعت الصحوات جزاءها بعد استغناء الاحتلال الأمريكي عن خدماتها، وبدا ذلك واضحاً خلال عمليات عسكرية ضارية في حي الفضل – أقدم أحياء بغداد– دارت رحاها بين جيش حكومة المالكي من جهة وقوات الصحوات من جهة ثانية.

وتتلخص المواجهات في قيام قوات حكومة المالكي باعتقال قائد مجموعة من قوات الصحوة في تلك المنطقة، التى كانت واحدة من أكثر مناطق بغداد التي تنتشر بها عناصر المقاومة، وأفضت الاشتباكات إلى مقتل عدد من عناصر قوات حكومة المالكي، وانتهت بتسليم عناصر صحوة منطقة الفضل أسلحتهم بعد أن انتشرت قوات الحكومة مدعومة بقوات الاحتلال الأمريكي في أرجاء المنطقة.

وانتشر القناصة الأمريكان على أسطح المباني وطالبوا قوات صحوة حي الفضل عبر مكبرات الصوت تسليم أسلحتها، مؤكدة أن كل من يواصل الاحتفاظ بالسلاح من عناصرها يعتبر إرهابياً!.

وبنظرة تحليلية لعمليات مشابهة قامت بها الحكومة ضد الصحوات مدعومة من قوات الاحتلال في مناطق أخرى، نجد أن مشروع الصحوات فقد الغرض من نشأته، وكما هو متبع فإنَّ الاحتلال غالباً ما يتخلى عن مشاريع أنشأها حالما تتحقق له أهدافه المرحلية.

وقد جاءت اشتباكات منطقة الفضل لتؤكد المأزق الذي تواجهه الصحوات في رمقها الأخير، فبعد أن أدت دور الخادم على أكمل وجه، وجدت نفسها في مهب الريح نظراً لتخوفات حكومة المالكي الطائفية من تنامي قوة تلك المجالس واتفاقها مع الاحتلال على دمجها مع القوات الأمنية للسيطرة عليها.

وتنظر حكومة المالكي الطائفية إلى عناصر الصحوات كأعداء سياسيين ومقاتلين كانوا يقاتلون ضدها خلال مجموعات متمردة، وعليه ينبغي معاقبتهم والقضاء عليهم، في نفس الوقت الذي وافقت فيه على انخراط مجالس إسناد العشائر الجنوبية في قواتها، بينما ترفض هذا الأمر مع باقي مجالس الصحوات رغم خدماتها ضد المقاومة؛ وذلك خوفاً من وقوفها حجر عثرة أمام تكريس نفوذ طهران الطائفي في العراق.

وخلال عامين وعدة أشهر نفذت الصحوات فيها عمليات ضد عناصر المقاومة وعرقلة عمليات ضد الاحتلال وحكومته الرابعة، فشلت تلك المجالس في تحقيق هدف نشأتها الرئيسي بتمكين المحتل الأمريكي من إنهاء المقاومة أو تحجيمها إلى حدود ضيقة.

وتعد عمليات المقاومة الأخيرة صك إغلاق لملف هذه اللعبة الأمريكية، ونجاحاً من جهة المقاومة في تجاوز شرك الصحوات، لذا كان من البديهي بعد انتهاء تلك المجالس وتفككها وانحلالها، أن تعود عمليات المقاومة للظهور ثانية أمام الملأ مستعيدة عافيتها بكل ثقة واقتدار.

وتمثلت هذه العودة في خبر تناقلته بعض وكالات الأنباء مساء يوم الأحد ١٢-٤-٢٠٠٩م مفاده أن عناصر مسلحة من المقاومة أقامت نقاط تفتيش على الطريق العام بين بغداد والقائم، وتحديداً في الطريق الممتد على طول مناطق "جباب" التي تقع بين قضائي القائم وراوة.

خلال هذه العملية النوعية حرص رجال المقاومة على الظهور العلني الفجائي والمباغت وهم يحملون قوائم لأسماء معينة يدققون من خلالها في هويات الذاهبين والقادمين بحثاً عن مطلوبين يعملون مع قوات الاحتلال.. ولم يكن القصد من هذا الظهور جس نبض الاحتلال أو حكومته بقدر ما هو اثبات جلي على إن المقاومة قد دخلت في ترتيبات جديدة متقدمة ومتفوقة على

المعوقات التي زرعها الاحتلال سواء في القوات الحكومية أو مجالس الصحوة.

وأعطت المقاومة بهذا الظهور رسالة واضحة إلى قوات الاحتلال وحكومته القابعة في المنطقة الخضراء، بأن ما تدعيه بالسيطرة على العراق مجرد وهمٌ كاذب، وإن صولات وضربات المقاومة موجودة بحسب ضرورة المواجهة من جهة، وما تقتضيه سبل التنفيذ المرتبط بأولويات المهمات من جهة أخرى.

ويمكننا القول أن المقاومة وفق عملياتها الأخيرة نبهت المتابعين للشأن العراقي أن استخباراتها تمتلك من دقائق التفاصيل السرية الشيء الكثير، بدليل أنه قد مضت ساعات وهي تبسط سيطرتها التامة على طريق رئيسي طويل وتقوم بالتفتيش، ثم تنسحب دونما أن تستطيع قوات الاحتلال أن تفعل شيئاً على الرغم من التقنيات والأجهزة الأمنية والعسكرية التى بحوزتها.

الإصرار على الانتصار

حقائق التاريخ تثبت وتشير دوماً إلى زوال المحتل وانتصار المقاوم، ويشهد التاريخ للمقاومة العراقية أنها جابهت على مدى ست سنوات ومازالت تجابه لليوم أعتى قوة كونية مدججة بأحدث التقنية العسكرية، وقدمت على الساحة الميدانية إنجازات مذهلة في التخطيط والتنفيذ والحفاظ على زمام المبادرات الهجومية، وكذلك مواكبتها في التواجد والحضور الإعلامي اليومي.

يقابل ذلك اضطراب قيادة الاحتلال الأمريكية سياسياً وعسكرياً جراء عدوانها المتواصل في العراق وما تكبدته من خسائر بشرية ومادية واقتصادية

باهظة دفعت إدارة "القديس" أوباما لوضع جدول زمني رسمي للانسحاب من العراق.

يأتي ذلك على خلفية ازدياد معدلات الانتحار بين جنود جيش الاحتلال الأمريكي، وتفشي الأمراض النفسية والعصبية وغيرها من الدلائل على انكسار عزيمة الجندي الأمريكي الذي أدرك أن حربه في العراق ليست خاسرة فقط، بل أنها مفتعلة أصلاً عبر أكاذيب وزيف صنعتها إدارة الرئيس جورج بوش لأهداف وغايات غير ما أعلنت عنه.

إذن فإن النتيجة المستقبلية لهذا الوضع يمكننا أن نتنبأ بها ونقول بتقدم المقاومة العراقية وتقهقر الاحتلال الأمريكي، وقد برهنت كثافة العمليات الأخيرة للمقاومة في مناطق متفرقة بالعراق على ثقل تواجدها الشعبي ودعم العراقيين لها ولأهدافها، ما شكل وعي وطني إسلامي وإرادة حقيقية صادقة في مواصلة قهر الاحتلال، والإصرار في الأخير على الانتصار مهما مضى الوقت.

وقد قلصت المقاومة عملياتها بشكل ملحوظ خلال ستة وثلاثين شهراً تقريباً، واحتجبت عن استعراض قوتها علانية، وهو ما جرى العرف عليه منذ الاحتلال لتدل على وجودها وتطمئن الشعب على سلامتها، واكتفت طيلة هذه الفترة بتنفيذ عملياتها الخاطفة ضد قوات الاحتلال وأذياله، إلا أنها مع اختلاف الظرف الميداني والمشهد السياسي عاودت الظهور في مختلف محافظات ومناطق العراق على طولها وعرضها، مخلفة في كل عملية تقوم بها قتلى أو جرحى يعترف الاحتلال ببعضهم ويخفي بعض.

وتجدر الإشارة إلى نجاح المقاومة في اختراق جيش حكومة المالكي، حيث سجلت حالات أقدم فيها جنود عراقيون على قتل جنود أمريكان يعملون في صفوفهم.

ففي يوم السبت الموافق ٢-٥-٢٠٠٩ تمام الساعة ٤:٣٠ عصراً أطلق الجندي حسن الدليمي الذي كان يعمل إماماً وخطيباً لوحدته العسكرية، النار على مجموعة من الجنود الأمريكان في مركز للتدريب بمعسكر الغزلاني الواقع في منطقة حمام العليل (٢٠ كم) جنوب الموصل، حيث أردى قتيلين وأصاب ثلاثة آخرين بجروح خطيرة.

وليس الدليمي وحده في الميدان بل سبقه في الموصل في نهاية شهر شباط من هذا العام شرطيان عراقيان قاما بقتل أربعة جنود أمريكان وأحد مترجميهم في حي الدواسة في الموصل أيضاً وتمكنا من الفرار، وفي شهر تشرين الأول من عام ٢٠٠٨م قتل جندي عراقي أربعة جنود أمريكيين وجرح اثنين في عملية دهم ليلية لبيت يسكن فيه رجل عجوز وابنته البالغة من العمر سبعة عشر عاماً، بعد أن شاهدهم يتحرشون بها وهي تستنجد!.

وبعد هذه الحادثة بشهر انتفض الجندي برزان محمد عبد الله الحديدي بعد أن صفعه أحد الجنود الأمريكان، إذ قفز إلى عربته المسلحة وفتح النار على الدورية الأمريكية المشتركة بحي الزنجيلي، فأردى أربعة قتلى منهم وجرح ثلاثة آخرين قبل أن يتمكنوا من قتله، وقبل كل هذا وذاك قام الجندي قيصر سعدي الجبوري، أحد أبناء منطقة القيارة، بقتل ثلاثة جنود أمريكيين بينهم ضابط برتبة نقيب، بعد ضربهم المبرح لامرأة حامل كانت تستغيث من شدة الألم، قائلين له: نحن نفعل ما نريد!.

هذا ونشير إلى شهادة الجنرال المتقاعد توني فرانكس – القائد السابق للقيادة المركزية الوسطى لقوات الاحتلال الأمريكية– التي أدلى بها أمام لجنة الدفاع في الكونجرس الأمريكي، والتي أقر فيها أن الهجمات التي تشنها المقاومة يصل عددها في اليوم الواحد إلى خمسة وعشرين هجوماً على أقل تقدير بحسب شهادته.

وبمعادلة بسيطة فإننا إذا أخذنا – فرضاً– مقتل جندي وإصابة ثلاثة آخرين في الهجوم الواحد فإن حصيلة الهجمات الخمس والعشرين في اليوم الواحد تصل إلى حوالي (٢٥) قتيلاً و(٧٥) جريحاً، وبفرض التعتيم الحالي على عمليات المقاومة، فإن هجمات المقاومة قد تتراوح ما بين سبعين إلى مائة هجوم في اليوم الواحد.

المقاومة ودعم المفاوض السياسي

ولم يغب المشهد السياسي عن أجندة المقاومة وتوظيف انتصاراتها في الميدان إلى بلورة واقع سياسي وضعته أمانة في يد قيادة سياسية إختارتها ووصفتها برباطة الجأش، والثبات على المبدأ، ومطاولة للأعداء، وإسناد منقطع النظير للجهاد والمقاومة في العراق.

ودعت فصائل المقاومة الرئيسية الشيخ "حارث الضاري" الأمين العام لهيئة علماء المسلمين، والذي يعد من أبرز رموز السنة بالعراق ويعيش خارج البلاد، إلى تحمل الأمانة والمفاوضة باسمها ليلتحم الجناح السياسي بالعسكرى ويقوي بعضه بعضاً.

وبتقديرنا أن المقاومة بهذا المطلب السياسي قد نفذت المطلوب منها ميدانياً في طريق تعجيل خروج الاحتلال الأمريكي من العراق بكافة الطرق العسكرية من جهة، ومن جهة ثانية بالطرق السياسية لكي تحرم إيران والحكومة الطائفية من الاستمرار في تفتيت العراق.

إذ أنه بخروج الاحتلال الأمريكي من العراق سوف يعجل من انهيار المشروع الطائفي الإيراني، على أساس تضارب الإنسحاب الأمريكي مع توسع هذا المشروع الطائفي.

حيث تريد واشنطن استخدام الطائفية إلى درجة معينة لإحداث توازن من شأنه تستطيع ضبط مجريات الأمور لصالحها، وفي الوقت نفسه تمنع إيـــران في حال انسحابها من فرض سيطرتها المطلقة على المنطقة.

وقد تجسد في أسباب تلك الخطوة ما أشارت إليه الفصائل الثلاثة عـــشر؛ حيث أشارت إلى أنها عرفت في الشيخ الضاري رباطة الجأش وثبات علـــى المبدأ ومطاولة للأعداء وصبر على البلاء وإسناد منقطـــع النظيـــر للجهـــاد والمقاومة في العراق على الرغم مما تعرض ويتعـــرض لـــه مـــن ضـــغوط وتجاوزات.. بل هو الحارس الأمين على مبادئ وثوابت الجهاد والمقاومة في العراق، وهو الرجل الشجاع صاحب الموقف الحق الذي لا يتخلى عنه ولـــو كلفه ذلك حياته.

فكانت النتيجة تخويل الضاري متحدثاً باسم تلك الفـــصائل، فـــضلاً عـــن التفاوض باسمها في الأمور السياسية ذات الصلة، وأن ينوب عنها فـــي كـــل المحافل ليدافع عن دماء الشهداء الزكية التي سالت على ثرى العراق والليوث التي أسرت والأعراض التي انتهكت والأموال التي هدرت.

حقوق المرأة في العراق الجديد
تفكيك الصورة النمطية

هيفاء زنكنة[1]

يصور الاحتلال وحكوماته المتعاقبة أنفسهم، منذ عام ٢٠٠٣م بأنهم المدافعون عن حقوق المرأة العراقية؛ بل إن الإدارة الأمريكية تعتبر "إن قضايا المرأة في صلب السياسة الأمريكية الخارجية وبالتحديد حربها على الإرهاب"[2]، ولايزال هذا الخطاب طاغياً في السنة السابعة للاحتلال، رغم افتضاح انتهاكاته وجرائمه بحق المواطن العراقي وبالتحديد المرأة، ومن الصعب التصور أن إدارة أوباما – مهما أعلنت – ستغير أمراً في هذا المجال لأن مؤسسات وعلاقات أوسع من سياسة ساكن البيت الأبيض أو خطابياته هي التي تتحكم في تفاصيل الحضور الإمبراطوري الأمريكي في العالم، وهي مؤسسات وعلاقات يشترك فيها الحزبان الديمقراطي والجمهوري، ومراكز أبحاث وتمويل عريقة ومتداخلة.

---

[1] أديبة وباحثة عراقية.

[2] خطاب كولن باول، وزير الخارجية الأمريكية السابق، في يوم المرأة العالمي، ٨ مايس ٢٠٠٢م.

سأحاول في هذه المقالة تفكيك صورة حقوق المرأة كما يقدمها المحتل وعملائه ومقارنتها بواقع المرأة اليومي وتراجع حقوقها في مجالات التعليم والصحة والعمل، ودرجات امتهان الكرامة الإنسانية وتعريضها وأفراد عائلتها إلى الاعتقال والتعذيب والقتل، لأثبت بأن المسؤول الأول عن هذه المأساة هو المحتل ومن دربهم المحتل وهو الذي يواصل تشجيعهم على تطبيق سياسته لأسباب عديدة، وسأقدم أولاً الصورة الإعلامية النمطية التي رسمتها الإدارة الأمريكية عن المرأة العراقية بوصفها ضحية بحاجة إلى "التحرير" الأنجلو أمريكي – الصهيوني، ثم انتقل إلى كيفية انعكاس هذه الصورة على عمل السياسيات والمنظمات النسوية المتواطئة مع الاحتلال ومقارنتها بواقع المرأة وأولوياتها.

الصورة النمطية للمرأة العراقية

قدمت إدارة الرئيس الأمريكي السابق جورج بوش نفسها عشية غزو واحتلال العراق، باعتبارها مدافعة عن حقوق المرأة العراقية، وروجت لإضفاء الصبغة الأخلاقية على الغزو والاحتلال؛ بأن وجودها ضروري لتتمكن المرأة من الحصول على حريتها وحق العمل والمشاركة السياسية في ظل " نظام ديمقراطي" يحترم حقوق الإنسان.

وكان تبرير نيل المرأة لحقوقها في "عراق ديمقراطي" هو السبب الثالث الذي أعلنته الإدارة الأمريكية لشن حربها العدوانية على العراق، وكان السببان الأوليان هما تهمة حيازة النظام السابق لأسلحة الدمار الشامل، وتهمة صلة النظام السابق بتنظيم القاعدة[1]، وقد ثبت بما لا يقبل الشك، ومن قبل

---

[1] أكد تقرير لجنة التحقيقات الأمريكية الخاصة بأحداث ١١ أيلول وصدر في حزيران (يونيو) عام ٢٠٠٤م عدم وجود أدلة تشير إلى وجود علاقات بين صدام حسين وتنظيم القاعدة في تنفيذ التفجيرات.

القانونيين في بلدان الغزو نفسها كذبة العاملين الأوليين[1]؛ ليبقى التبرير الثالث أي "حقوق المرأة"، عكازاً تتوكأ عليه الإدارة الأمريكية، كلما اقتضت الحاجة، وبمساعدة عدد من النساء العراقيات اللواتي يصح وصفهن بأنهن " نسويات الاستعمار"، ويأتي تعبير " نسوية" هنا لتعريف من يجعل من حقوق المرأة الخاصة بكونها إمرأة؛ أي عدا كونها مواطنة عموماً أو جزءاً من عائلة مقياساً رئيسياً لمواقفهم السياسية.

و"نسويات الاستعمار" هن اللواتي ساهمن في الترويج الإعلامي للغزو ومن ثم دعم استمرارية الاحتلال ومرحلة الاستعمار الجديد المعتمدة على الوكلاء المحليين بشتى الطرق، فهن يستخدمن خطاب "حقوق المرأة" كواجهة تجميلية لا علاقة لها بحقوق الإنسان ولأغراض سياسية وتمويلية، وبينهن العديد ممن يترأسن منظمات نسوية تتلقى الدعم المادي من منظمات ومؤسسات أمريكية وغربية عموماً، وهو الدعم المشروط بخطاب الاحتلال

---

[1] "لم يتم العثور على أسلحة تدمير شامل من قبل المجموعة (الأمريكية) المكلفة مهمة البحث عنها، وتتكون المجموعة من ١٤٠٠ عالم وخبير عسكري واستخباري، وتعمل في نطاق من السرية والكتمان، وكانت تقديرات فريق البحث عن أسلحة الدمار الشامل في العراق أن حكومة صدام حسين لم تمتلك أسلحة كيماوية وبيولوجية وإنما كانت لديها طموحات لتطوير برنامج نووي، كما أعلنت في أكتوبر (تشرين الأول) الماضي في تقرير مؤقت ضم ما يقرب من ألف صفحة "انظر": مصدر أمريكي: لا أسلحة تدمير شامل في العراق". البي بي سي ٢٤ سبتمبر ٢٠٠٣م، وأشار تقرير ثان صادر عن المجموعة في ٢٧ أبريل ٢٠٠٥م، إلى الانتهاء الرسمي لعملية البحث عن الأسلحة التي استمرت عامين والتي قادها أخيراً تشارلز دولفير مفتش الأسلحة السابق في الأمم المتحدة.

وأكد "المركز من أجل النزاهة العامة" الذي أعد دراسة مع "الصندوق من أجل صحافة مستقلة" بصدد تصريحات المسؤولين الأمريكيين عن امتلاك العراق لأسلحة الدمار الشامل، أن ثماني إدارات رسمية "قدمت ٩٣٥ تصريحاً كاذباً على الأقل" حول امتلاك العراق أسلحة للدمار الشامل أو ارتباطه بتنظيم القاعدة في ٥٣٢ مناسبة. نيويورك تايمز ٢٣ كانون الثاني ٢٠٠٨م.

عن " تمكين المرأة " و" تدريب النساء القياديات" ومشاركة المرأة في "محترفات الديمقراطية"[(١)].

ولتسهيل الترويج لصورة المرأة العراقية باعتبارها ضحية للمجتمع "الإسلامي المتخلف" والعنف الذكوري ربطت برامج الإدارة الأمريكية الإعلامية، في فترة الإعداد للغزو، ولتقريب الصورة إلى أذهان الشعب الأمريكي بين صورة المرأة الأفغانية المبرقعة الواقعة تحت هيمنة الطالبان ووضع المرأة العراقية، ذلك لأن صورة المرأة الأفغانية "المسلوبة الإرادة" باتت مألوفة لدى الرأي العام الأمريكي لكثرة تكرارها إعلامياً وسياسياً ومن خلال مشاريع منظمات الإعانة الأمريكية حتى لم يعد هناك إلا فيما ندر من يشكك في صحتها أو حتى يتساءل عن طبيعتها إلا في أوساط الأكاديميين النزيهين ومناهضي الاحتلال في الغرب[(٢)]، فكان إسقاط صورة المرأة الأفغانية ووضعها الخاص على وضع المرأة العراقية لعبة إعلامية ساهمت في إنجاحها نسويات الاستعمار العراقيات عن طريق المقابلات الصحافية وزيارة البيت الأبيض والوقوف بجانب مسؤوليه مع النسوة الأفغانيات الداعيات إلى "تحرير" أفغانستان، وكان حضور نسويات الاستعمار ضرورياً أيضاً لمنح الإدارة الأمريكية "الصوت العراقي" المؤيد للغزو، ودور نسويات الاستعمار مستمر اليوم في داخل العراق في فترتي الاحتلال والاستعمار الجديد[(٣)]، وبعد إجراء بعض التغييرات اللفظية البسيطة وهو دور تتداخل فيه

---

(١) "مدينة الأرامل: المرأة العراقية في مسيرة التحرير"، هيفاء زنكنة، ص ٨٧ – ١١٤، مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٨م.

(٢) انظر دراسة رستمي بوفي الباحثة في كلية الدراسات الآسيوية الأفريقية بجامعة لندن الصادرة عام ٢٠٠٧م. Afghan Women: Identity and Invasion by Elaheh Rostami-Povey - Zed books

(٣) نوّهت شارلوت بونتتشلي، كبيرة منسقي قضايا المرأة الدولية في وزارة الخارجية الأميركية، بالتفاعل الحواري بين وزارة الخارجية والنساء العراقيات على صعيدي المنفى والعراقيات الأمريكيات الناشطات في

التصريحات المضللة الهادفة إلى تزوير الوعي مع تنامي المصالح السياسية والمادية المتشابكة أكثر فأكثر مع كل يوم آخر يبقى فيه الاحتلال على أرضنا.

ويمكن اعتبار تصريح نسرين برواري وزيرة البلديات والأشغال العامة العراقية، أثناء تواجدها مع وفد نسوي عراقي وأفغاني في زيارة لبوش في البيت الأبيض[1]، كمثال على مستويات التضليل التي تمارسها نسويات الاستعمار فقد بدأت تصريحها قائلة: "إن المرأة العراقية كانت محرومة إبان عهد صدام حسين من القيام بدور في الحياة العامة" أي أنها قدمت الصورة النمطية عن حرمان المرأة المشاركة في الحياة العامة، ومضت إلى القول "إن النساء والرجال العراقيين يشيّدون معاً اليوم مجتمعاً عراقياً جديداً"، أي أنها قدمت الصورة الإيجابية المطلوبة من المحتل لتعزيز تواجده ودوره "الديمقراطي" وخلصت برواري في سياق إشارتها إلى "التنوع الإثني والديني والإيديولوجي الكبير" في وفدها إلى أن "عضوات الوفد لم يكنّ متحدات في أي وقت من الأوقات أكثر من اتحادهن في هذه اللحظة". وهي صورة تنفي في تأكيدها على إيجابية الصورة الحالية وجود التنوع والتقارب سابقاً مما

الولايات المتحدة وبين النساء في داخل العراق. ولاحظت أن هذا الحوار مستمر منذ شهور مشيرة إلى أن الرئيس جورج بوش قد تباحث مع نساء عراقيات حين استقبلهن في البيت الأبيض في الرابع من آذار/مارس الماضي. وقد أعقبت ذلك اللقاء سلسلة من الاجتماعات مع المنظمات غير الحكومية بما في ذلك اللقاء الذي تم بينهن وبين وكيلة وزارة الخارجية للشؤون العالمية بولا دوبريانسكي في الرابع والعشرين من نيسان/إبريل الماضي". انظر: "النساء العراقيات يطالبن بدور في إدارة شؤون مستقبل العراق"، وزارة الخارجية الأمريكية، ٢٣ أيلول ٢٠٠٣م.

[1] "عراقيات وأفغانيات يزرن الكونغرس في يوم المرأة العالمي: المسؤولتان في وزارة الخارجية، هيوز ودوبريانسكي، تنوهان بأهمية تعليم وتمكين النساء"، مايكل جاي فريدمان، نشرة واشنطن، ٨ آذار/مارس، ٢٠٠٦م.

http://www.america.gov/st/washfile-arabic/2006/March/20060308174357ssissirdile0.9416773.html

يدفع المتلقي بالضرورة إلى عزو هذه الصورة الإيجابية والتقارب والاتحاد إلى وجود الاحتلال، وهي صورة أبعد ما تكون عن الواقع إذ ارتكز المحتل بشكل كلي على سياسة "فرق تسد" الاستعمارية والتي ارتدت مسوح الطائفية والعرقية البغيضة.

ولترسيخ صورة الاهتمام البالغ الذي أولته إدارة بوش لحقوق المرأة في أذهان الرأي العام الأمريكي والعراقي والعالمي لم يدع المسؤولون في البيت الأبيض على اختلاف مناصبهم مناسبة تمر بدون ذكر "حقوق المرأة العراقية" وربطها بمسألة "التحرير". ففي خطاب لبوش في ١٤ مارس ٢٠٠٤م، قال: "إن التقدم في مجال حقوق المرأة والتقدم في مجال (التحرير) مسألتان غير قابلتان للانفصال"، وصرحت زوجته لورا بوش بمناسبة يوم المرأة العالمي في ٨ مارس ٢٠٠٥م: "جعل بوش من التقدم في حقوق المرأة بالعراق أولوية سياسية عالمية.. علينا جميعاً واجب الحديث عن المرأة التي غابت حقوقها وضرورة تعلمها ونيل حقوقها، وأن تُصوتْ لصالح الحرية الفعالة".

وقالت ألينا شو سكرتيرة إدارة العمل في ٩ مارس ٢٠٠٤م: "إن التزام هذه الإدارة لصالح حقوق المرأة في العراق غير قابل للجدل". كما قال زلماي خليل زادة السفير الأمريكي السابق في العراق في ٨ آب/ أغسطس ٢٠٠٥م: "لن نقبل بالمساومة على مبدأ أن لكل عراقي دور متساو في بناء مستقبل بلدهم بغض النظر عن الجنس، العرق، اللغة، والدين"[١].

وقد تابعت الكاتبة عشتار العراقية[٢] كيفية تصنيع الصورة النمطية وفق مواصفات الإمبراطورية الأمريكية عن طريق رصد كتابات وتصريحات

---

[١] بصدد التصريحات المذكورة أعلاه، انظر: "موجة عنف ضد المرأة في العراق تجاهلتها وسائل الإعلام"، أماندا تركل، NBC، 24/١١/ ٢٠٠٦م، ترجمة: د.عبد الوهاب حميد رشيد.

[٢] ينظر الرابط : http://ishtar-enana.blogspot.com/2009/03/blog-post_26.html

المسؤولين الأمريكيين والصحافيين، ومن ثم اجترارها لا من قبل جنود الاحتلال في العراق وافغانستان فحسب ولكن من قبل نسويات الاستعمار العراقيات كذلك، ولنبدأ بتعريف الصحافي الأمريكي الصهيوني توماس فريدمان للعراق بأنه "حيث المرأة التي تشمّر عن أكمامها تعتبر كافرة"[١]، وعاد ليكتب في ذات الصحيفة في ٢٤/٨/ ٢٠٠٣ في موقفه المشجع من غزو العراق كخطوة أولى في مشروع المحافظين الجدد للهيمنة على الشرق الأوسط قائلاً: "إن مناهضي الاحتلال الأمريكي للعراق يعرفون أن هذه حرب على الأفكار والقيم يعرفون أن هذه حرب القوى الغربية بمساعدة الأمم المتحدة يأتون إلى قلب عالمهم لإقامة حكومات أكثر نزاهة وتسامح وعدالة مع المرأة بادئين بالعراق".

ولمعرفة كيفية اجترار هذه الأفكار من قبل جنود الاحتلال، تقدم لنا عشتار اقتباساً من مدونة جندية احتياط أمريكية حاربت في العراق تقول فيه: "من الرائع دائماً أن نرى التقدم في مجالات لا تخطر على بالنا حين نفكر في الحروب، ونحن النساء الأمريكيات نميل إلى أن نرى كحقيقة مسلّم بها مقدرتنا على متابعة تعليمنا والحصول على وظيفة وحريتنا في الذهاب إلى أي مكان نشاء، ولكن لسوء الحظ في بلاد مثل العراق وأفغانستان لم يسمح للنساء بأي من هذه الأشياء؛ بل بدلاً من ذلك كانت النساء تعامل مثل الأغنام ومكانهن في المجتمع محدود جداً، وجزء من التقدم الآن هو أن هؤلاء النساء يعاملن حالياً بعدالة، ويأخذن فرصهن في التعليم والتوظيف، هذا تقدم كبير

---

[١] اكذوبة إعادة الإعمار: مؤتمرات (تمكين) المرأة في القواعد العسكرية !! بقلم: عشتار العراقية. التصريح نشر في نيويورك تايمز ١٩٩١/٢/٣. انظر الموقع اعلاه.

للنساء في البلدين، هذا التمكين ليس فقط خطوة للأمام لنساء العراق وأفغانستان ولكنه يقدم لهن الأمل في المستقبل"[1].

وتستخدم مها الصكبان عضو مجلس إدارة مركز حقوق المرأة في الديوانية مفردات جندية الاحتلال نفسها لتكريس صورة نمطية مختلقة حين تقول: "النساء ممنوعات من القيام بدورهن في الحياة بسبب النظام السابق، ولكن الأمور الآن اختلفت"[2]، ولاتزال صورة رجاء الخزاعي عضوة مجلس الحكم سابقاً ورئيسة المجلس الوطني للمرأة العراقية ماثلة للعيان حين لم تتمالك نفسها (والوصف هنا منقول حرفياً من خطاب لبوش)، عندما رأت بوش يتقدّم نحوها في البيت الأبيض فركضت باكية لتحتضنه مناديةً إياه يا محرّري ثم مضت بعد ذلك لتناول وجبة عيد الشكر التقليدية مع القوات الأمريكية![3].

مسؤولية الاحتلال

إن الهوّة بين خطاب الاحتلال التضليلي عن حقوق المرأة في "العراق الديمقراطي الجديد" وواقع المرأة اليومي تزداد عمقاً يوماً بعد يوم تثبتها الشهادات الحية للنساء العراقيات الموثقة من قبل منظمات المرأة العالمية[4] وتقارير منظمات حقوق الإنسان مثل منظمة العفو الدولية وهيومن رايتس ووتش ويونامي والمنظمات الإنسانية مثل لجنة الصليب الأحمر الدولي

---

(1) أعلاه وكذلك : http://soldiersmind.com/2007/07/03/empowering-iraqi-women

(2) المصدر أعلاه.

(3) البيت الأبيض. المكتب الصحافي. الاحتفال ب" حقوق المرأة الكونية" March 12, 2004
http://govinfo.library.unt.edu/cpa-iraq/transcripts/20040312_bush_women.html

(4) انظر التقارير التفصيلية على موقع منظمة " كود بنك"
http://www.codepink4peace.org/article.php?id=51

ومنظمة أوكسفام فضلاً عن منظمات المرأة العراقية المستقلة مثل هيئة إرادة المرأة؛ إذ تجمع كلها على تردي وضع المرأة بشكل مأساوي منذ غزو العراق واحتلاله في ٢٠٠٣م، وكأن ما مرت به من قمع سياسي وحروب وحصار جائر لم يكن كافياً، فجاء الاحتلال ليخلق كارثة إنسانية ونزوح جماعي في داخل البلاد وخارجها، بحجم لم تشهده المنطقة منذ نكبة فلسطين في عام ١٩٤٨م، حيث يبلغ عدد النازحين والمهجرين ما يقارب الخمسة ملايين، ويشكل الأطفال والنساء ثلثا النازحين المحرومين غالباً من أبسط ظروف الحياة الأساسية من عمل وتعليم وخدمات صحية فضلاً عن القلق النفسي وانهيار الطموح وتلاشي الأمل بالمستقبل، ويقدم تقرير اللجنة الدولية للصليب الأحمر الدولي المعنون "نساء في الحرب" الصادر في آذار/مارس ٢٠٠٩م، شهادات نساء عراقيات عن معاناتهن تحت الاحتلال وهي شهادات تدحض بشكل مباشر ادعاءات إدارة الاحتلال ونسويات الاستعمار عن " تحرير العراق والمرأة"، كما تفضح زيف الصورة الإعلامية المبثوثة يومياً من خلال أجهزة الإعلام المتواطئة مع الاحتلال عن حقوق الإنسان في "العراق الجديد".

ويلخص التقرير ما تتعرض له المرأة أما بشكل جسدي مباشر مثل الاختطاف والقتل العشوائي أو بشكل غير مباشر جراء اعتقال أو اختفاء أو قتل معيل العائلة أو أحد أفرادها من الذكور؛ إذ بلغ عدد ضحايا الاحتلال ما يزيد على المليون، وبلغ عدد المعتقلين من أبناء العراق «الديمقراطي الآمن» منذ «التحرير» وحتى اليوم مليوني معتقل[1]، وهو رقم هائل بكل المقاييس معناه إذا ما حسبنا المعدل واستثنينا محافظات إقليم كردستان الثلاث أن هناك معتقلاً لكل عائلة في فترات زمنية متفاوتة، ومعظم المعتقلين هم من الرجال،

---

(١) "للاعتقال تأثير مدمر في العراق"، نك وترن ويل راو، تروث آوت، ١٠ اكتوبر/ تشرين الأول، 2008م. http://www.truthout.org/101008C

وإن لم يميز المحتل وعملاؤه بين الذكور والإناث فاعتقلوا النساء والأطفال وعذّبوهم أيضاً! وقد تحدث النائب محمد الدايني[1]: عن وجود (٤٢٠) معتقلاً سرياً تحت سيطرة قوات الاحتلال والحكومة العراقية معاً، وقدّم مستندات ووثائق الإثبات إلى مجلس حقوق الإنسان في الأمم المتحدة للتحقيق فيها، وأشارت الناطقة باسم الصليب الأحمر الدولي إلى أن الحكومة قد سمحت لها بزيارة ثلاثة مراكز اعتقال فقط.

أما المفقودين فقد كان عددهم عشية الاحتلال ومن جراء الحروب السابقة (٣٧٥) ألف مفقود ليتجاوز الرقم المليون في عام ٢٠٠٧م[2]، وهذه المآسي تجعل المرأة وأطفالها في حالة انتظار مستمر وحياتهم معلقة إذ لا يعرفون مصير أحبائهم فضلاً عن سقوطهم في هاوية الفقر المدقع نتيجة غياب المعي، وجاء في التقرير أن هناك في العراق اليوم "ما يقارب المليون إلى الثلاثة ملايين أسرة تعيلها النساء... وقد تفاقمت المأساة نتيجة إلقاء مسؤولية إعالة الأسرة ورعايتها على عاتق النساء بدون أن ننسى شبح الحوادث المؤلمة والشنيعة التي أودت بحياة أزواجهن، وهناك أيضاً خسارة المنزل الذي اضطررن إلى تركه بسبب التهديدات أو العجز المالي، إضافةً الى كفاحهن المتواصل لتوفير القوت اليومي وتحمل مصروفات العلاج والمدارس".

وتعيش معظم الأسر التي تعيلها النساء في فقر مدقع نظراً لتدني دخلها، وينعكس ذلك على صحة النساء إذ يعجزن عن سداد ثمن الأدوية أو تحمل نفقات زيارة الطبيب عند المرض، ويمتد الوضع المأساوي ليشمل الأطفال من الذكور الذين غالباً ما يضطرون إلى ترك الدراسة للعمل وإعالة الأسرة، بينما تحرم الإناث من الدراسة حرصاً على سلامتهن.

---

[1] في مؤتمر صحافي في مبنى الأمم المتحدة في جنيف، ٣١ تشرين الأول / أكتوبر ٢٠٠٨م.

[2] "الصليب الأحمر: عدد المفقودين في العراق ارتفع إلى مليون شخص "أصوات العراق" ٣١ آب ٢٠٠٧م.

وقد مرّ التقرير على أهميته مروراً عابراً على مشكلة النساء المعتقلات؛ إذ اكتفى بالإشارة إلى أنهن أقلية بالمقارنة مع الرجال وإن أوصى بوجوب توفير الاحتياجات الخاصة لهن، والمعروف أن إدارة الاحتلال وحكوماته المتعاقبة تبذل أقصى جهدها لإخفاء حقيقة وجود النساء المعتقلات خشية إثارة الغضب الشعبي في مجتمع يعتزّ بمكانة المرأة وشرفها وكرامتها، وإن كان حجم المأساة وغضب الناس قد دفعا بعض المنخرطين في العملية السياسية إلى التصريح بين الفينة والفينة ببعض الحقيقة وخاصة بعد إدراكهم أنهم مهما صرحوا فلن يخضعوا للمساءلة أو العقاب، كما هي الحال عادة في النظم الديموقراطية، ومن بينهم شذى العبوسي عضوة «لجنة حقوق الإنسان في مجلس النواب» التي اعترفت أخيراً بوجود المعتقلات، وأن غالبيتهن موجودات لدى «القوات المتعددة الجنسيات اعتُقلن نيابة عن أخ أو أب أو زوج أو ابن مشتبه فيه» أي كرهائن، وهو أمر مخالف لكل القوانين الدولية والإنسانية بالإضافة إلى المسؤولية الأخلاقية والعادات والتقاليد المجتمعية للعراق، كما تحدثت وزيرة المرأة نوال السامرائي عن وجود المعتقلات "الأمنيات" وكيف أنها تكفلت عدداً منهن لإطلاق سراحهن، ووصفت وزارة المرأة بأنها مجرد "مكتب استشاري داخل المنطقة الخضراء ليست له أية صلاحيات"[1]، وكشف نائبان من لجنة حقوق الإنسان في "البرلمان العراقي" عن عمليات اغتصاب وتعذيب واعتقالات كيدية بحق نساء التقى بهنّ وفد برلماني قبل في سجن للنساء تابع لوزارة العدل العراقية ويضم أربعة آلاف سجينة و٢٢ طفلاً حديثي الولادة.. وإن "بعض السجينات المغتصبات خارج السجن أقمن دعوى ضد الذين اغتصبوهن فتمّ اعتقالهن بدلاً من اعتقال

---

[1] وزيرة عراقية تبرر استقالتها بعجزها عن خدمة قضايا المرأة، الجزيرة نت، ٩ / ٢/ ٢٠٠٩م.

الجناة"[١]، واستناداً إلى ما أعلنه رئيس اتحاد السجناء السياسيين العراقيين محمد ادهام الحنش، فقد زاد عدد النساء المعتقلات خلال الست سنوات المنصرمة لدى القوات الأميركية والحكومية عن عشرة آلاف[٢].

الاستهداف المباشر

وبينما يشكل الرجال النسبة الأعلى "من بين المستهدفين جسدياً بواسطة الرمي (٩١ بالمائة مدنيون ذكور) والإعدامات مع التعذيب (٩٧ بالمائة)، شكلت الإناث والأطفال أعلى نسبة الضحايا المدنيين حين تضمنت طرق العنف إطلاق نيران أسلحة عشوائية من مسافات بعيدة، أي الهجمات الجوية والهجمات بمدافع الهاون"[٣].

وطرق استهداف المرأة من قبل قوات الاحتلال عديدة من بينها الهجمات الجوية التي يستخدمها بكثافة لحماية جنوده أو لتوفير الغطاء الجوي لقواته وقوات حكومة الاحتلال في مداهماتها، ويشكل إطلاق النار العشوائي في الأسواق المكتظة وعند نقاط التفتيش وأثناء مداهمة البيوت بحجة إلقاء القبض على "الإرهابيين" أسباباً أخرى، وقد استهدفت الميليشيات الطائفية المرأة كما الرجل، إما بسبب الانتماء المذهبي أو السياسي وغالباً تحت مسمى اجتثاث البعث فضلاً عن الأسباب الكيدية، وقد ساهم المرتزقة وموظفي الشركات الأمنية وهم الذين يتمتعون بالحصانة من القانون العراقي حسب تشريعات الحاكم بول بريمر في استهداف المدنيين وبضمنهم النساء كما في جريمة

---

[١] "لجنة حقوق الإنسان البرلمانية تكشف تعرض نساء إلى الاغتصاب خلال التحقيق" الحياة، ١٠ مايس ٢٠٠٩م.

[٢] ملف النساء المعتقلات يثير قلقاً بالعراق، الجزيرة نت، ٢٤ /مارس ٢٠٠٩م.

[٣] "الأسلحة التي تقتل المدنيين: وفيات الأطفال وغير المحاربين في العراق ٢٠٠٣م – ٢٠٠٨م، ترجمة المستقبل العربي، ص ١٤٦– ١٥١، العدد ٣٦٤، حزيران / يونيو ٢٠٠٩م.

ساحة النسور حيث قتل ١٧ مدنياً عراقياً على يد مرتزقة الشركة الأمنية بلاكووتر في ١٦ أيلول/ سبتمبر ٢٠٠٨م.

دور نساء البرلمان

من بين "الإنجازات" التي تفتخر بها الإدارة الأمريكية هو ما تسميه بمشاركة المرأة السياسية في العراق، وخاصة نسبتها المحددة وفق نظام المحاصصة بـ ٢٥%، وهي نسبة عالية حقاً حتى بالمقارنة مع أمريكا وبريطانيا، إلا أن وجود هذا العدد من النساء في البرلمان كما أثبتت سنوات الاحتلال لم يزد عن كونه واجهة تجميلية جوهرها مماثل لوجود الرجال المرتبطين بمصالح أحزابهم الطائفية والعرقية الضيقة، ولا علاقة لهن بهموم المرأة العراقية بل وغالباً ما تقوم البرلمانيات بتبرير جرائم أحزابهن مثال ذلك دور (سميرة الموسوي) النائبة عن كتلة «الإئتلاف العراقي الموحّد» ورئيسة لجنة المرأة والأسرة والطفولة في فضيحة دار الأيتام، فقد أشرفت الموسوي على كتابة تقرير لجنة المرأة والأسرة والطفولة في مجلس النواب عن سوء المعاملة والاعتداءات الجنسية وإهمال أطفال «دار الحنان» للمعاقين الذين عُثِر عليهم شبه أموات ضحايا الجوع والعطش، وبرّر التقرير حالة الأطفال المخيفة بأنهم كانوا «لا يفضّلون تناول الطعام» وأنهم كانوا عُراة على أرض الدار الجرداء «وموثوقين إلى أرجل الأسرّة التي مُنعوا من النوم فيها بسبب الخوف على حياتهم لأنهم يعانون من حالات غير طبيعية»[١]، ولم يشر التقرير إلى إهمال المسؤولين في توفير الحماية اللازمة للطفل العراقي في ظروف اقتصادية كارثية ازدادت فيها العمالة المبكرة للأطفال والمتسرّبين من

---

[١] "العراق: إجراءات لنقل أطفال فضيحة دار الحنان إلى الولايات المتحدة"، راديو دجلة، ٢١ تموز / يوليو ٢٠٠٧م.

المدارس والأيتام والمهجَّرين قسرياً داخل البلاد وخارجها، كما لا يوجد في مفردات البرلمانيات أو غيرهنّ من الناشطات النسويات المعتمدات في تمويلهن على المؤسسات الأمريكية أو الأجنبية عموماً أي ذكر لانتهاكات وجرائم الاحتلال اليومية، وهو الموقف الذي تصفه الناشطة الحقوقية هناء إبراهيم بأنه مشاركة "في عملية تزييف الوعي التي تحتاجها الرأسمالية المتوحشة منها واللطيفة لعزل القضايا العادلة عن جوهر أبعادها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية"، وتعتبر هناء إبراهيم عدم الحديث عن عنف الاحتلال وجرائمه والاقتصار على الحديث عن "العنف الأسري" و "والتمييز الجندري"، أي النوع الاجتماعي، هو عزل للمرأة وقضاياها قائلة: "في قراءة المشهد العراقي اليوم وحال المرأة فيه يتكشف لنا بالواقع الملموس والدليل القاطع أن عنف الاحتلال ضد المرأة أعادها إلى ما دون درجة الصفر كيف لا والاحتلال بجوهره حالة تدمير وتفكيك وإفساد ومصادرة وإقصاء وسرقة ثروات وحرب ضد وجود الإنسان وسعي للقضاء على أسباب مقاومته؛ ولأن الاحتلال في بنيته لا يقدم خطاباً موضوعياً لدوافعه فإنه "كالطابور الخامس" يعمل بكل آلياته الإعلامية والسياسية على تزييف صورته ليحولها إلى صورة خادعة"[١].

الرئيس أوباما وآمال تغيير السياسة الأمريكية

لقد بنى بعض العراقيين آمالاً حول تغير السياسة الأمريكية تجاه العراق بعد فوز الديمقراطي باراك أوباما برئاسة الولايات المتحدة خاصة وأنه بنى

---

[١] "بمناسبة اليوم العالمي لرفض العنف ضد المرأة: عنف الاحتلال ضد المرأة وأولية المواجهة"، هناء إبراهيم، هيئة إرادة المرأة، ٧ كانون الأول ٢٠٠٨م.
tp://iraqiwomenswill.blogspot.com/2008/12/blog-post_07.html

حملته الانتخابية على سحب القوات الأمريكية من العراق وفق جدولة زمنية محددة، غير أن كل الدلائل تشير إلى أن سياسة أمريكا الخارجية تجاه العراق باقية كما هي، وأن تطبيق "جدولة الانسحاب" خاضع لتفسيرات مطاطية وحسب ثقة الإدارة الأمريكية بوجود "حكومة عراقية" توفر لها رعاية مصالحها وحسب المعاهدات بعيدة الأمد التي قامت حكومة المالكي بتوقيعها مع إدارة بوش؛ لتقيّد الشعب العراقي على مدى عقود مقبلة.

وتعتمد سياسة أمريكا تجاه العراق على تطبيق إدارة أوباما لتلك الاتفاقيات، كما تشير الدلائل إلى أن تعامل إدارة الاحتلال إزاء حقوق الإنسان العراقي لن يتغير كثيراً عن السابق خاصة بعد أن تراجع أوباما عن نشر صور التعذيب في أبو غريب التي قال سابقاً بأنه سيسمح بنشرها إثر تلقيه نصيحة من كبار ضباط الجيش بعدم السماح بنشر الصور "لما قد تثيره من مشاعر الغضب ضد القوات الأمريكية"، ويبلغ عدد الصور ٢٠٠٠ عن ٤٠٠ حالة انتهاك في أبو غريب وستة معتقلات أخرى، وهي "تتضمن صوراً تؤكد وقوع عمليات اغتصاب وانتهاكات جنسية من بينها صور تعرض جندياً أمريكياً وهو يغتصب معتقلة وأخرى لمجموعة جنود يقومون بتعرية فتاة ومترجماً أمريكياً من أصل مصري يغتصب صبياً، بينما تقوم إحدى المجندات الأمريكيات بتصوير فعل الاغتصاب، وتعرض صور أخرى انتهاكات جنسية قام بها جنود أمريكيون مستخدمين عصى وهراوات وأدوات أخرى[١]، ولم تصدر من أي مسؤول أو سياسي عراقي ذكراً كان أم أنثى نأمة صوت عن وجود صور حالات الانتهاك الأربعمائة أو موقف الرئيس أوباما بصدد نشر الصور الدالة على حجم وبشاعة انتهاكات حقوق الإنسان في "العراق الجديد".

---

(١) "صور الانتهاكات في أبو غريب تظهر الاغتصاب"، دنكان غاردام وبول غروشانك، صحيفة الديلي تلغراف، ٢٧ مايس ٢٠٠٩م.

أما بصدد "حقوق المرأة" فلم تتجاوز سياسة أوباما ما قيل وطبق سابقاً من قبل إدارة بوش تجاه المرأة "في العالم الإسلامي" إلا في إضافة ترسيخ بعض البديهيات التي يعتبر مجرد التطرق إليها ومناقشتها انعكاساً للتفكير الأمريكي وخطابه الإمبريالي على غرار "رفض وجهات نظر البعض في الغرب أن المرأة التي يفرض عليها الحجاب تخسر حقها" و"رفض إجبار المرأة على أداء دور معين"[١]، وتواصل إدارة أوباما فصل "حقوق المرأة" في العراق وفلسطين وأفغانستان، وهي البلدان المحتلة من قبل أمريكا وربيبتها إسرائيل، عن قضايا شعبها وطرح الحلول الجزئية المشروطة حسب الدعم المالي للاحتلال.

الخلاصة

إن حقوق المرأة التي تعتبر أمريكا نفسها واحدة من دعاتها الرئيسيين في العالم ويقدم عملاء الاحتلال أنفسهم باعتبارهم من المدافعين عنها أيضاً في "العراق الجديد" قد أثبتت سنوات الاحتلال بأنها إدعاء زائف غرضه تفتيت القضايا وإشغال المرأة بأمور ثانوية لا تمت لحقوق الإنسان بصلة، ولا علاقة لها بأولويات وواقع المرأة البائس تحت الاحتلال، وإذا ما تركنا جانباً القيم الأخلاقية والدينية والمجتمعية التي يتمتع بها المجتمع العراقي وتنص على احترام المرأة كإنسانة وأم وزوجة وأخت وابنة، وتفحصنا مدى تطبيق مقياس الأمم المتحدة الذي تتبناه أمريكا باعتبار أن حقوق المرأة هي حقوق الإنسان وهو مقياس نبيل إن تمّ تطبيقه فعلاً لوجدنا أن الاحتلال الإنجلو أمريكي للعراق قد انتهك كل حق من حقوق الإنسان بدءاً من حق الحياة والصحة

---

[١] خطاب الرئيس الأمريكي باراك أوباما في القاهرة. ٤ حزيران ٢٠٠٩م.

والتعليم وحرية الحركة والمسكن والأمان والحصول على الأساسيات إلى حرية إبداء الرأي، ويتجاهل المنظور الإمبريالي لإدارة الاحتلال عن حقوق المرأة مسألة أساسية بكل المقاييس وهي ارتباط قضية المرأة بقضايا شعبها السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وأن استعادتها لحقوقها الأساسية وكرامتها وشرفها لن تُتحقق بمعزل عن تحرر وطنها من عبودية الاحتلال مهما كانت مسميات الاحتلال زاهية براقة.

تحقيق الديمقراطية الأمريكية في هموم اللاجئة العراقية

سارة علي[1]

أفرز واقع الاحتلال الذي جثم على العراق شعباً وأرضاً حالة تعتبر سابقة من نوعها في تاريخ العراق، بل وحتى تاريخ العالم وهي الهجـرة الجماعيـة لأبناء العراق ونزوحهم داخل وخارج العراق، وتعتبـر هـذه السابقة هـي الأخطر من نوعها ولا تكاد تسبقها إلا التهجير الذي حصل فـي أربعينيـات القرن الماضي للشعب الفلسطيني على أيدي اليهود المحتلين، ولا نبالغ إذا قلنا أن واقع اللجوء العراقي في حاضرنا اليوم أقسى من اللجوء الفلسطيني إذ أن الكثير من دول العالم وشعوبها فتحت أذرعها لاستقبال اللاجـئ واللاجئـة الفلسطينيين، أما فرص العراقي اللاجئ أو اللاجئة فمحدودة والدول التي قبلت باستقباله لا تكاد تتجاوز عدد أصابع اليد الواحدة، ورغم أن الكثيرين من أبناء فلسطين المحتلة تمكنوا من بيع ممتلكاتهم والعيش بها في دول أخـرى، إلا أن العراقي أو العراقية ترك كل شئ خلفه لأن كل شئ استبيح من قبـل المحتـل

---

(1) كاتبة وإعلامية عراقية.

والمليشيات فلجأ إلى دول أخرى لا يحمل إلا النزر اليسير مما تمكن أن يسلم عليه، أما المرأة في العراق والتي جاء لها الاحتلال بواقع ديمقراطي وحرية لم تنلها سابقتها إذ قتل المحتل زوجها ورمّلها ويتّم أطفالها وسلبها أبسط ممتلكاتها ولعلها كانت أوفر حظاً من غيرها إذ لم يستبيح المحتل عرضها وشرفها شأن الكثير من حرائر العراق، وربما اعتقل الزوج وتمّ تهديده بالاعتداء على محارمه مما دفع الكثيرات إلى النزوح داخل العراق هرباً من المحتل والمليشيات، أو تركت العراق بحثاً عن ملاذ آمن لعلها تجده في دول الجوار، أغلب العراقيات اللواتي فقدن أزواجهن هن معرضات للتهديد لجأن إلى دول الجوار وبعض الدول العربية، وتحتل سوريا المرتبة الأولى في لجوء العراقيين يليها الأردن ولبنان ومصر وبعض قليل تمكن من الدخول إلى الدول الخليجية أو الحصول على لجوء في أمريكا الشمالية ودول أوربا، وقد سجلت المفوضية السامية لشؤون اللاجئين التابعة للأمم المتحدة النسب التالية لأعداد العراقيين للاجئين كالتالي:

أكثر من مليون ونصف عراقي في سوريا، وبين (٤٥٠ ألفا و٥٠٠ ألف) في الأردن، و(٢٠٠ ألف) في دول الخليج، و(٥٠ ألف) في لبنان، وبين (٤٠ ألفا و٦٠ ألف) في مصر، و(٦٠ ألف) في إيران، و(١٠ آلاف) في تركيا، وقد سجلت المفوضية السامية من هذا المجموع أكثر من (٢٧٧,٥٠٠) حالة لجوء أو ما يقارب (١٠%) من النسبة المقدرة لعدد السكان العراقيين في المنطقة.

لجان دولية ومؤسسات مختصة رصدت نسبة العراقيين اللاجئين في دول الجوار ومعاناة العراقيين بشكل عام والمرأة العراقية بشكل خاص، ففي دراسة استقصاء أجريت في الأردن من قبل معهد البحوث النرويجية بالتعاون مع الحكومة الأردنية عن نسبة العراقيين المتواجدين في الأردن تبين أن العدد

زاد بنسبة (٧٧%) بعد عام ٢٠٠٣م أي بعد الاحتلال الأمريكي للعراق وأغلب الذين وصلوا على أساس وحدات أسرية أو من النساء اللواتي فقدن المعيل (مابين قتل وخطف واعتقال)، ويبلغ متوسط حجم الأسرة العراقية الواحدة (٤,١) أشخاص ويتكون ثلثي العائلات من أطفال دون سن الثامنة عشر، تعيل النساء (٢٠%) من العائلات التي تكون في الغالب من فئات السكان الأكثر فقراً، يشكل المسلمون السنة ما يزيد على (٦٠%) من اللاجئين في حين يشكل المسلمون الشيعة من (١٧%-١٨%)، والمسيحيون من (١٢%-١٥%)، والطوائف الأخرى بما فيها الصابئة المندائيون واليزيديون (٥%).

ما يهمنا هنا هو وضع العراقية كلاجئة في الأردن والتي تعتبر من الدول التي لم توقع على اتفاقية ١٩٥١م (هذه الاتفاقية تنظم وضع اللاجئ، ومن ضمن الدول المستضيفة للعراقيين وموقعة عليها كل من تركيا وإيران ومصر هي دول وقعت على اتفاقية عام ١٩٥١م رغم أن المفوضية السامية تتولى بصورة منتظمة بموجب ولايتها بتحديد وضع اللاجئ على المستوى الفردي) أما سوريا ولبنان والأردن فليست طرفاً في اتفاقية عام ١٩٥١م، ولا يوجد لديها نظام حماية منظم لحماية العراقيين ومساعدتهم وباستثناء منح تصاريح الإقامة قصيرة المدى لا يستفيد العراقيون من أية خدمات إلا دعم محدود بل يتركون لتدبير حالهم بأنفسهم، وبالتالي تجد عدد كبير من العراقيات أنفسهن غير قادرات على العمل بطريقة قانونية فيقع البعض منهن في حالة فقر تزيد حدته حين تنفذ مواردهن والكثير منهن يحملن مؤهلات دراسية جيدة إلا أن عدم الحصول على تصاريح قانونية للإقامة ومن ثم للعمل يحول دون الحصول على فرصة عمل مع ندرة فرص العمل في دول ترتفع بها نسبة البطالة لأبنائها، ولذا لجأت بعض العراقيات إلى العمل في مهن لا تتناسب مع

الوضع الاجتماعي للمرأة العراقية كأن تكون خادمة أو عاملة نظافة أو جليسة أطفال وكثيرات منهن قمن بتسريب أطفالهن من المدارس لعدم القدرة على دفع مصاريف الدراسة ومستلزماتها أو إلى دفع أطفالهن للعمل (أي عمالة الصغار).

أما وضع اللاجئين العراقيين في سوريا بشكل عام والنساء بشكل خاص فهو وضع مأساوي وهنا لابد أن نتطرق إلى بعض النسب التي تخص اللاجئين العراقيين المتواجدين بسوريا حسب مفوضية اللاجئين التابعة للأمم المتحدة مكتب سوريا والتي تبين فيها أن نسبة الذكور العراقيين في سوريا تصل قرابة (٥٣%) في حين تصل نسبة الإناث إلى (٤٧%) أما نسب المدن في العراق التي حصل فيها تهجير للعراقيين هي بغداد حيث تصل نسبة اللاجئين في سوريا من بغداد إلى (٥٦%) وتأتي بعد ذلك محافظة نينوى إذ تصل النسبة إلى (٧%) من نسبة اللاجئين، أما بالنسبة للمذهب فيشكل أبناء المذهب السني نسبة (٥٨%)، ويأتي بعد ذلك أبناء المذهب الشيعي بنسبة (١٩,٥%)، ثم المسيحيون العراقيون بنسبة (١٤,٥%)، أما عدد النساء اللاجئات اللواتي تعرضن للخطر في العراق وهنّ الآن متواجدات بسوريا فتصل النسبة إلى (٣,٣%) من نسبة مجموع اللاجئين العراقيين وتقصد المفوضية هنا بالخطر أي هنّ تعرضن للاغتصاب أو مهددات بذلك أو تعرضن للاعتقال أو تهددن بذلك أوَ للخطف أو تهددن بذلك مما اضطرهن إلى اللجوء إلى سوريا علماً أن هناك الكثيرات اللواتي لِم يسجلن في مفوضية اللاجئين التابعة للأمم المتحدة؛ لاعتبارات كثيرة، والجدير بالذكر أن تقارير مفوضية اللاجئين تشير إلى أن أكثر من (٢٠%) من نسبة النساء العراقيات اللاجئات بسوريا والأردن هنّ معرضات للخطر في العراق وسبق أن

تعرضن لأحداث عنف أو مهددات بذلك في العراق مما اضطرهن لترك العراق والهجرة إلى الدول لمجاورة.

أما نسبة الأطفال الذين تعرضوا للخطر ولجأوا مع عوائلهم إلى سوريا فتصل النسبة إلى (٤,٤%)، أما الأيتام وذوي الاحتياجات الخاصة فتصل نسبتهم إلى (١٧,٧%)، وما نريد أن نسلط الضوء عليه هنا أن أغلب اللاجئات العراقيات استنفدن مدخراتهن، وبما أن سوريا من الدول التي لم توقع على اتفاقية عام ١٩٥١م لذا فإن تأمين احتياجات اللاجئ العراقي لا تكون بشكل مستمر، وفي نفس الوقت يمنع العراقي من مزاولة العمل بسوريا وهذا الحال ينطبق على النساء والرجال العراقيين اللاجئين بسوريا، وسبق أن بيّنا أن الكثيرات من العراقيات بسوريا هن بدون معيل بسبب الاعتقال أو القتل أو لازال الزوج مجهول المصير بسبب اختطافه في العراق، عند ذلك يصعب توفير المورد العائلي لكثير من العوائل العراقية التي بدون معيل.

تسجل النسب التي وصلت إليها المفوضية أن (٩٨%) من العوائل العراقية بسوريا يستأجرون السكن وأن ما نسبته (٢%) من العراقيين بسوريا يملكون سكناً فإذا كان المعيل لهذه الأسرة هي اللاجئة العراقية فيجب عليها أن تدفع إيجاراً شهرياً – وأقل إيجار بسوريا لا يقل عن المائة دولار – فإذا كانت هي لا تعمل ولا تتوفر لها فرص العمل التي تتناسب معها مع تزايد الطلبات المعيشية والإيجار ومصاريف الأولاد فمن أين يمكن لتلك المرأة أن تسد هذه الاحتياجات المتزايدة، وما هي الخيارات المتاحة لتلك المرأة لكي تتمكن من المواصلة وبما يحفظ لها كرامتها وكرامة أطفالها؟.

ولعلنا إذا أردنا أن نبين أن الخيارات المتاحة للنساء العراقيات المتعلمات وحاصلات على مؤهلات دراسية جامعية تكاد تكون هذه الخيارات لأجل العمل معدومة أو قد تتاح لها فرصة العمل في مجال يختلف تماماً عن مؤهلها

الجامعي أو لا يتناسب مع مكانتها الاجتماعية، هذا بالنسبة للمرأة العراقية اللاجئة المتعلمة، فكيف الحال مع اللواتي لا يملكن أي مؤهل جامعي أو أي خبرات أو أي تحصيل دراسي أو حرفة يتمكن من خلالها من العيش بكرامة ولسداد فقط مستلزمات الحياة الرئيسية، هذه الفئة ومنذ سنة تحديداً بدأت مفوضية اللاجئين التابعة للأمم المتحدة بصرف مبلغ لكل عائلة تكون بدون معيل وليس لديها ابن يبلغ من العمر ١٨ سنة تصرف لهذه العائلة مبلغ حوالي مئة دولار إضافة إلى المواد الغذائية التي تستفيد منها أكثر العوائل العراقية اللاجئة بسوريا، فضلاً عن أن الكثير من تلك العوائل تحصل على مساعدات مقدمة من منظمات ولجان أوربية مرتبطة بالمنظمات الأم في أوربا وأمريكا الشمالية، وبالرغم من أن هذه المساعدات محدودة إلا أن أعداد العراقيين بشكل عام والعراقيات بشكل خاص أعداد كبيرة حيث يتقاطرن أمام أبواب هذه المنظمات لأجل طلب المساعدة ،علماً أن أغلب تلك المنظمات والمؤسسات تعمل لإغراض التنصير للعراقيين ومن يدقق في تلك المؤسسات سواء الموجودة في الأردن أو في سوريا يجد أنها مرتبطة بمؤسسات تنصيرية في الغرب وقد توافدت هذه المؤسسات على الدول الحاضنة للاجئين العراقيين وبدأت تقدم لهم خدمات قل نظيرها إضافة إلى المساعدات المالية والغذائية وتقديم الدورات التأهيلية للعراقيات ما بين تعلم اللغة والإدارة العامة والسكرتارية إضافة إلى مهنة الخياطة والحياكة وفوق ذلك تمنح المتخرجة من الدورة ماكنة خياطة حديثة وعدد من الأقمشة وبكميات كبيرة وعدة خياطة كاملة وكثير من العراقيات يلجأن لتلك المنظمات لأنهن لم يجدن البديل وإن لم يكن هذا الأمر مبرراً، ولأن الحصول على مبلغ المائة دولار الذي تستلمه الأم المسؤولة عن عائلة من قبل مفوضية اللاجئين للأمم المتحدة يذهب إلى

الإيجار ويبقى عليها التزامات أخرى لابد أن تلتزم تلك المرأة بأدائها منها المعيشة وأجور الماء والكهرباء والحالات الصحية الطارئة وغير ذلك.

وكثير من العراقيات عملن بمهن وحرف لم يكن يعملن بها في العراق ولا نستغرب إذا وجدنا طبيبة مثلاً تعمل خيّاطة بمعمل للخياطة؛ لأنها لاجئة ولا يحق لها مزاولة عملها كطبيبة وإذا زاولت مهنتها يصار إلى ترحيلها للعراق، عند ذاك تضطر للعمل بالخفية أو تزاول مهنة كالخياطة وبأجور تقل عن مثيلتها العاملة من ابنة البلد على اعتبار أن صاحب العمل متفضل عليها وتعمل عنده بالرغم من التحذيرات القانونية من منع العراقيين من مزاولة العمل والسبب أن تلك الدول التي لجأ لها العراقيون هي أصلاً تعاني من ارتفاع نسبة البطالة بين أبناء شعبها، فسوريا مثلاً لديها مليون وربع المليون عاطل عن العمل وكذلك الأردن لديها ما يقارب النصف مليون عاطل والحال معروف بمصر وقلة فرص العمل لذلك نجد أن فرصة العمل للعراقي بتلك الدول ضئيلة أو محدودة وهذا الأمر يضيف عبئاً آخر على كاهل اللاجئة العراقية.

ولعل خياراً آخر يطرح أمام العراقية هي الزواج من عربي وهذا الخيار متاح للنساء الغير متزوجات وليس لديهن أطفال وطبعاً فرص نجاح مثل هذه الزيجات قليل جداً لأن الكثيرين يرون أنفسهم متفضلين على المرأة العراقية؛ وبالتالي تكون استمرار حالات هذا الزواج قليلة، ولا ننسى أن نذكر أن البعض من الرجال العرب يتزوج العراقية لمدة قليلة ثم يتركها بعد فترة وجيزة من هذا الزواج، ولقد انتشر بكثرة ما يسمى بزواج نهاية الأسبوع أو الزواج لفترة محددة وإن كان هذا ليس زواجاً شرعياً حيث يتزوج الرجل العربي من العراقية لمدة محدودة ثم يتركها أو قد لا يخبرها بنيته تلك ثم يفاجئها بأن يسافر ويتركها.

وهنا لابد أن نشير إلى أن دولاً كثيرة مرت بمحن ولكن وجدت دولاً أخرى احتضنت أبناء تلك الدولة التي مر أبناؤها بحروب واقتتال لكن الحال مع العراق والعراقيين يكاد يكون صعباً إذ أن اللاجئ العراقي أو العراقية لا يحظى بفرصة الدخول إلى الدول العربية والأجنبية، ولا تكاد تكون فرصة الحصول للدخول إلى أية دولة في العالم متاحة للعراقي لأنهم يدركون أن العراقيين يرغبون في الاستقرار هرباً من الجحيم الذي يعيشه عراق الآن وحتى إن سمحت تلك الدول بإعطاء اللجوء أو الفيزا للعراقيين نجد أن الحكومة العراقية تسعى إلى عقد اتفاقيات مع تلك الدول لأجل إبعاد العراقيين من أرضيها أو أقل شيء هو التضييق عليهم، ومع كل ذلك لا نستغرب لما نعرف عن هجرة نساء مع أولادهن هجرة غير مشروعة إلى دول أوربا بحثاً عن الملاذ الآمن الذي ربما تجده في أوربا وفقدته بالعراق بسبب الاحتلال والعنف الدائر هناك، ورغم مخاطر تلك الهجرة والركوب في البحر والتعرض للموت لكن لازالت الكثير من العراقيات يهاجرن تلك الهجرة مع أولادهن إلى أوربا عن طريق البحر رغم المجازفة الكبيرة في هذا العمل وتفضله على العودة للعراق لأنها تعتبر رجوعها هي وأولادها للعراق انتحاراً، وقسم آخر يهاجر أزواجهن ويبقين هن وأولادهن في دول الجوار بلا معيل أو أي ادخار مادي وربما يموت الزوج في تلك الهجرة غير الشرعية ولا تسمع عنه أية أخبار وتبقى وحدها مع أولادها في تلك الدول وأيضاً رغم مخاطر تلك الهجرة على الرجال العراقيين وتركهم لأسرهم في دول الجوار إلا أنهم يفضلون القيام بتلك المخاطرة على الرجوع إلى العراق.

الخيار الآخر الذي يمكن أن تحصل عليه العراقية اللاجئة في دول الجوار هو فرصة التوطين بأمريكا ودول أوربا بعد أن تنطبق مواصفات التوطين عليها وعلى عائلتها ومواصفات التوطين تلك تخضع حسب الدول الموّطنة،

وهذا الأمر يعني للعراقية الذهاب للمجهول ومجتمع لم تألفه من قبل يختلف اختلافاً جذرياً عن المجتمع الذي نشأت فيه هي وأولادها وربما تحصل على فرصة كريمة للعيش هناك وقد لا تجد هذه الفرصة، فضلاً عن أن أولادها سينخرطون في تلك المجتمعات وقد لا يحافظون على معتقداتهم ودينهم وتقاليدهم إلا ما رحم ربي.

لذا فإن الواقع الذي تعيشه المرأة العراقية اللاجئة واقع مرير كان نتاجاً لما خلّفه الاحتلال الأمريكي لبلدها العراق، وأتى بانعكاسات سيئة للغاية على واقع هذه المرأة ولابد من انتشال المرأة العراقية من ذلك الواقع من قبل دول ومؤسسات عربية إضافة للمؤسسات العراقية المخلصة التي تهدف إلى المساعدة الحقيقية لتلك المرأة وليس استغلالها أو الرياء في مساعدتها لأهداف سياسية معروفة.

تاريخ التعذيب في الولايات المتحدة الأمريكية... ممارسة روتينية منذ نشأتها

نعوم تشومسكي[1]
ترجمة
سيف الجبوري[2]

إن المعلومات التي تسربت في شهر نيسان من العام الحالي من البيت الأبيض حول ممارسات التعذيب كانت بلا شك صدمة مروعة للشعب الأمريكي، كانت هذه المعلومات المسربة عاملاً يضاف إلى عوامل الشعور الساخط لدى الشعب الأمريكي تجاه الإدارة الأمريكية السابقة وخاصةً بعد الشهادة التي ألقتها لجنة القوات المسلحة المكلفة بالتحقيق في ضلوع الإدارة الأمريكية وبأوامر مباشرة بممارسة التعذيب ضد المعتقلين (والتي عُرفت بلجنة تشيني- رامسفيلد) في مجلس الشيوخ الأمريكي حول المحاولات اليائسة التي قام بها رامسفيلد وتشيني لإيجاد صلة أو روابط تجمع بين العراق وتنظيم القاعدة، تلك الروابط التي ثبت بطلانها وتلفيقها لمجرد تبرير الغزو، أحد أعضاء اللجنة كان الرائد "تشارلس بيرني" والمتخصص في علم النفس قال في شهادته: "لقد أضعنا وقتاً طويلاً مركزين في البحث على أي رابط بين تنظيم القاعدة والعراق، ولكن المسؤولين أصيبوا بالإحباط لعدم تمكننا من

---

(1) باحث وناقد اجتماعي وهو مؤلف العديد من المقالات والكتب ومنها (سعي أمريكا للهيمنة على العالم) ٢٠٠٣م، (إساءة استعمال السلطة واغتيال الديمقراطية)٢٠٠٦م.

(2) وحدة الترجمة في مركز الأمة للدراسات والتطوير.

إيجاد تلك الصلة، في الوقت نفسه تعرضنا لضغوط قوية ومستمرة من أجل اللجوء إلى اتخاذ تدابير ووسائل من أجل الحصول على نتائج فورية ومنها أساليب التعذيب"، كما ذكرت وكالة "ماك كلاتشي" نقلاً عن ضابط كبير في الاستخبارات الأمريكية قوله: "إن إدارة بوش قد مارست ضغوطاً على المحققين من أجل تطبيق أساليب تعذيب خاصة مع المعتقلين في محاولة للضغط عليهم وإيجاد صلة بين تنظيم القاعدة وصدام حسين"، كما أثبتت اللجنة (لجنة تشيني– رامسفيلد) بأن "تشيني" الذي كان يشغل منصب نائب الرئيس الأمريكي "جورج بوش" و"دونالد رامسفيلد" الذي كان يشغل منصب وزير الدفاع في نفس تلك الفترة قد أمرا وعبر قنوات رسمية عدداً من المحققين بالضغط على المعتقلين وخاصة المعتقلين الذي كانوا يعدّون صيداً ثميناً لهم واستخدام أقصى أساليب التعذيب من أجل الحصول على أي معلومات تساعد على ربط تنظيم القاعدة بالعراق، وكلما كان المحققون يأتون خالي الوفاض كان رجال رامسفيلد وتشيني يأمرونهم بالضغط أكثر على المعتقلين.

في نفس الوقت الذي تعدّ هذه الشهادة المخزية والفاضحة لخداع الإدارة الأمريكية السابقة تمثل صدمة للشعب الأمريكي، ولكن نستطيع القول أن تلك الممارسات كانت غير مفاجئة، والسبب في ذلك أنه كان من المتوقع أن يكون معتقل مثل "غوانتانامو" مكاناً مثالياً لممارسات التعذيب، إذ لماذا يتم إرسال المعتقلين لمكان أبعد ما يكون عن يد القانون ورقابته؟.

إن واشنطن بهذا النوع من التصرفات تنتهك المعاهدة التي كانت محل خلاف بين كوبا وأمريكا حتى استطاعت الولايات المتحدة إجبار كوبا على قبولها في النهاية، إن الولايات المتحدة تنتهك وبشكل سافر كل بنود تلك المعاهدة وذلك بدواعي أسباب أمنية مشكوك فيها وغير قابلة للتصديق، وبنفس

تلك الدواعي المزعومة أقامت الولايات المتحدة معتقلات ومراكز تحقيق سرية خارج أراضي الولايات المتحدة لتمارس شتى أنواع التعذيب بدون حسيب أو رقيب.

تعود ممارسات التعذيب التي يمكن القول إنها كانت بأوامر رسمية منذ الأيام الأولى لقيام الاتحاد الأمريكي على يد المغامرين القادمين من أوروبا وحتى اليوم، إذ دعا "جورج واشنطن" المغامرين والمستكشفين إلى إيجاد أراضي أخرى وغزوها وضمها إلى الاتحاد مثل "هاييتي" و"الفلبين" وغيرها الكثير.

ليس من الصعب القول أن التعذيب كجريمة وممارسة هو أقل بكثير من جرائم التعدي والإرهاب الدولي المنظّم وعمليات التخريب والخنق الاقتصادي الذي تفرضه الولايات المتحدة الأمريكية على كل من لا يحمل قيمها ومفاهيمها أو بالأحرى كل من يعارض سيطرتها، إن كل تلك الجرائم تلقي بظلالها السوداء على تاريخ الولايات المتحدة شأنها شأن كل القوى الاستعمارية الغاشمة، لكننا ورغم ذلك لا نجد رد الفعل المناسب على تلك الجرائم حتى من أشد معارضي الرئيس السابق "جورج بوش"، كمثال على ذلك كنا نقول: "بأننا أمة الأخلاق والمثل العليا" ولم يسبق لنا قبل جورج بوش "أن حضينا بقائد أو رئيس خان وبشكل مطلق كل ما آمنت به هذه الأمة وناضلت من أجل تحقيقه"[1]، إن أقل ما يمكن قوله أن كل تلك الممارسات التي قام بها الرئيس السابق "جورج بوش" قد أعطت صورة مشوهة عن أمريكا في الخارج وتاريخاً غير مشرف سيحمله أبناء هذه الأمة.

---

[1] الكاتب الأمريكي "بول كروغمان".

يبرز بين الحين والآخر صراع بين "ما ندافع عنه" وبين "ما نقوم به" ولكن هذا الصراع أصبح أكثر صراحة الآن من أي وقت مضى، "هانز مورغانثاو"[1] هو أحد العلماء البارزين والذي أخذ على عاتقه فك رموز وطلاسم هذا الصراع طوّر في إحدى دراساته الكلاسيكية المتأثرة بخيالات المدينة الفاضلة "الكاميلوت" من معيار "الهدف السامي" الأمريكي وهو "تحقيق السلام والحرية في كل الولايات المتحدة الأمريكية وكذلك نشر هذين المفهومين في العالم أجمع، وبناءً على ذلك فإن الساحة التي يفترض على الولايات المتحدة أن تعمل بها لتحقيق تلك الأهداف السامية أصبحت العالم ككل"، ولكن بصفته أحد العلماء الذين يميلون للتشكيك في كل شيء؛ أدرك أن العالم وبسبب جذوره التأريخية سوف يعارض كل أو على الأقل بعض تلك المفاهيم "السامية" الأمريكية.

تركة من الجرائم الفظيعة

لنعد الآن إلى حقيقة فكرة تكوين أمريكا منذ الأيام الأولى، إن العبارة الملهمة "مدينة على التل" التي اخترعها "جون ونثروب" في العام ١٦٣٠م والتي كانت مستوحاة من الإنجيل قد حددت مفهوم الأمة الجديدة "المباركة من الرب"، قبل سنة من ذلك التأريخ قام "جون ونثروب" الذي كان يحكم مستعمرة "باي" والمعروفة اليوم بولاية "ماساتشوستس" بعمل ختم خاص لتلك المستعمرة وهو عبارة عن رسم وجه لهندي أحمر مع ريشة فوق رأسه وعبارة "ساعدونا" تخرج من فمه، وبسبب هذه العبارة قام المستعمرون البريطانيون

---

[1] "هانز مورغانثو" هو أحد العلماء البارزين في الولايات المتحدة الأمريكية وصاحب نظرية الواقعية في العلاقات الدولية.

وتحت غطاء أسباب إنسانية بالاستجابة لنداء المساعدة الذي أطلقه ذلك الهندي الأحمر لإنقاذه من الإلحاد الذي هو فيه.

إن ذلك الختم بالرموز التي حملها يمثل الفكرة الأساسية لنشوء أمريكا والتي تزرع في عقول الأمريكيين اليوم منذ نعومة أظفارهم، وهي نفس المبدأ الذي رسم الخلفية والملامح الحقيقية للقاتل والسفاح "رونالد ريغن" والذي كان يصف نفسه بأنه "حاكم المدينة المضيئة التي تقع على التل" في نفس الوقت الذي كان يقوم بأبشع الجرائم ويتركها كميراث يحمله الشعب الأمريكي من بعده.

إن مصطلح "التدخل لدواعي إنسانية" يتم تحويره دائماً ليتناسب مع المرحلة التأريخية لأي حدث أو مكان يكون لأمريكا رغبة في اقتحامه، وهذه الحقيقة لم تكن خافية على أي من المتتبعين والمؤرخين في الولايات المتحدة، "هنري نوكس" أول وزير للحرب في تأريخ الولايات المتحدة كان قد فسر مقولة "اقتلاع جميع الهنود الحمر من أكثر المناطق سكاناً في كل أنحاء الاتحاد" بقوله "إن اقتلاع الهنود الأصليين من أرض الاتحاد أهم بكثير من مساعدة الشعوب المقهورة في المكسيك وبيرو"، وبعد فترة طويلة من تلك الممارسات الوحشية يأتي اعتراف الولايات المتحدة على لسان أحد أهم مفكريها "جون كوينسي آدامز" بقوله في إحدى كتاباته الشهيرة "لقد كنا في سباق لإبادة السكان الأصليين بأكثر الطرق وحشية، وبسبب هذه الجرائم الوحشية؛ أؤمن بأن الرب سوف يضع هذه الأمة يوماً ما أمام المحاكمة التي أرجو أن تكون عادلة أكثر من المحاكمات التي نصبناها للسكان الأصليين هنا"[١].

---

[١] وليام إيرل ويكس ، جون كوينسي آدامز (الإمبراطورية الأمريكية العالمية) كنتاكي ١٩٩٢م.

إن الاستيطان في الغرب وبصورة لا تقبل الشك قد أظهر مقدار الفردية التي نتعامل بها، إن تلك الفردية قد كرست أيضاً لمفهوم الإمبريالية التي غُرست في نفوس المستكشفين والمغامرين والباحثين عن الثروات السريعة المغطاة بالدماء، كانت حصيلة تلك المفاهيم أن قد دعا السيناتور الأمريكي "هنري كابوت" في عام ١٨٩٨م إلى اجتياح كوبا بقوله: "إن الانتصار والتوسع الإقليمي الذي لا يضاهيه شيء في القرن التاسع عشر يجب أن لا يكبح الآن"، وقد تمّ الانصياع لمثل هذه الدعوات حيث أقرّ مجلس الشيوخ الأمريكي إرسال قوات عسكرية لمنع تحرر كوبا من الاستعمار الإسباني والتي استمرت حتى عام ١٩٥٩م.

بعد نجاح مصطلح "التدخل الإنساني" في كوبا عام ١٨٩٨م كانت الخطوة التالية هي لمصطلح "إحلال البركة الإلهية من خلال نشر الحرية في كل بقاع العالم" وطبق هذا المصطلح في الفلبين (حسب خطة وجدول أعمال الحزب الجمهوري في ذلك الوقت)، وقد روى الناجون من تلك المذابح والممارسات الوحشية والتعذيب الحيواني بأنهم كانوا فرحين وكأن الحياة قد عادت إليهم بعد نقلهم إلى السلطة الفلبينية والتي كانت تمثل نوعاً جديداً من أنظمة الحكم التي يصنعها المستعمر والتي تقوم على أساس إنشاء قوات عسكرية قمعية تقوم بكل الأعمال القذرة بالنيابة عن المستعمر الجديد كما هو الحال اليوم في أفغانستان والعراق[1].

بعد اعتراف الرئيس الأمريكي "باراك أوباما" بممارسات التعذيب التي كانت تجري على يد القوات الأمريكية وقوات الحلفاء والقوات المصنّعة أمريكياً في أفغانستان والعراق كان يمكنه أن يوقف تلك الممارسات ولكنه

---

[1] الفريد ماكوي (أمن الإمبراطورية الأمريكية) ٢٠٠٩م.

اختار أن لا يفعل، إن مبدأ اللامبالاة يعتبر مكوناً للشخصية الأمريكية منذ حروب الإبادة في القرن التاسع عشر ومروراً بحرب فيتنام وحتى حربي أفغانستان والعراق، إلا أن الطريقة القديمة قد ولّت وحلّت مكانها طريقة جديدة ألا وهي التعذيب بالأجر، تتمثل تلك الطريقة بتسليح وتدريب وقيادة قوات معينة من قبل المحتل لتقوم بعمليات التعذيب بدلاً من القوات الأمريكية وبذلك تظهر القوات الأمريكية بمظهر البريء المدافع عن الحقوق الإنسانية متى ما أرادت ذلك، وليس من المستغرب أن ترتبط المساعدات الأمريكية لأي دولة من الدول بقدرة تلك الدول على تهيأة مناخ يقوم على القمع والتعذيب وانتهاك حقوق الإنسان وغيرها من الممارسات التي أدت إلى نشوء علاقة محرمة بين المساعدات الأمريكية وانتهاك حقوق الإنسان[1].

بين بوش وأوباما

بلا شك أن الرئيس السابق "جورج بوش" قد تفوق على كل أسلافه في انتهاك القوانين الدولية والإنسانية فسار خلف بعض الآراء المتطرفة التي كانت تحيط به والتي كانت قد وجدت في عقل بوش الخالي من أي منطق مكاناً مناسباً لها، في نفس الوقت الذي يشدد به الرئيس "أوباما" نفس تعهدات سلفه بالالتزام بالقانون الدولي يبدو أنه تعمد الرجوع إلى بعض أفكار بوش المتطرفة.

ففي القضية الشهيرة (بوميدين ضد بوش) في حزيران/ يونيو ٢٠٠٨م رفضت المحكمة العليا ادعاءات إدارة بوش بأن المعتقلين في "غوانتانامو" لا يخضعون للقوانين الأمريكية الخاصة بالمعتقلين والسجناء، إضافة إلى

[1] تشومسكي وهيرمان (الاقتصاد السياسي لحقوق الإنسان وشبكة الإرهاب الحقيقي) ١٩٧٩م.

ادعاءات تلك الإدارة بحق الولايات المتحدة بخطف وسجن أي شخص تــراه يمثل تهديداً على أمن الولايات المتحدة ومن أي مكان في العالم، ولكن الإدارة السابقة قد بدأت بممارسة لعبة سخيفة وذلك بعد تطبيــق نظــام المحاكمــات الأمريكي على معتقلي غوانتانامو إذ قامت بتحويل عدد كبيــر مــن معتقلــي غوانتانامو إلى قاعدة "باغرام" لتكون حرة في ممارسة أنواع التعذيب ســواءً كان ذلك بأيد أمريكية أم بأيد أخرى.

ومن الجدير بالذكر أن الرئيس "أوبامــا" يعتــزم إعــادة إنــشاء اللجــان العسكرية والتي تعتبر من أشد الانتهاكات التي أوجدتها إدارة الرئيس الــسابق "جورج بوش"، يعود السبب في ذلك أن المسؤولين الذين يعملون على قــضايا المعتقلين في "غوانتانامو" قد يواجهون صعوبات كبيرة في محاكمــة بعــض المعتقلين الذين قد يتسبب التحقيق في تعرضهم للتعذيب إلى إطلاق ســراحهم بحسب قوانين المحاكم الاتحادية الأمريكية، فضلاً عن عدم قبول تلك المحاكم بالأدلة السماعية التي قد تمّ جمعها من قبل وكالات الإستخبارات العسكرية[1].

إن جميع الآراء تؤكد على عدم وجود أي فائدة لعمليات التعذيب التي قــد تقود المعتقل إلى أن يعترف بأي شيء في سبيل التخلص من التعــذيب، وإن عمليات تعذيب المعتقلين في "غوانتانامو" و"أبو غريب" قد تكلــف الولايــات المتحدة المزيد من الخسائر في صفوف قواتها العــسكرية بــسبب عمليــات الانتقام، يقول الرائد في الجيش الأمريكي "ماثيو اليكساندر" (اســم مــستعار) وهو أحد المحققين المخضرمين في العراق والذي قاد عمليات التحقيق التــي أدت إلى معرفة مكان "أبو مصعب الزرقاوي" يقول في حوار له مع المراسل الصحفي "باترك كوكبورن": "أنا أؤمن بأن التعذيب لن يأتي بأي فائدة للمحقق

[1] وليام غلابرسون (إحياء المحاكم العسكرية في غوانتانامو) ٢٠٠٩م.

أو للقضية بشكل عام، بل إن تلك الممارسات تأتي بأحيان عديدة بنتائج عكسية والتي تؤدي دائماً إلى خسائر في صفوف القوات الأمريكية والتـي تجـاوزت في أعدادها أعداد المدنيين الذين قضوا فـي أحـداث ١١ أيلـول/ سـبتمبر ٢٠٠١م، ومن خلال المئات من عمليات الاستجواب استطعت أن استنتج بـأن أغلب المقاتلين الأجانب الذين دخلوا العراق كانت الكثير من مفاهيمهم تـرتبط بممارسات التعذيب التي جرت في "غوانتانامو" و"أبو غريب"، لذلك قد تحـول الكثير من مناهضي القوات الأمريكية إلى قنابل بشرية متحركة تضرب فـي كل مكان وفي أي وقت ويمكنني القول بأن كل ذلك كـان بـسبب إجـراءات التعذيب[١].

بلا شك أن هناك أدلة كثيرة على أن قرارات السماح بالتعذيب التي أقرها رامسفيلد وتشيني قد ساهمت بخلق نوع جديد من الإرهابيين وأحد تلك الدلائل هو عبد الله العجمي الذي عانى شتى أنواع التعذيب في معتقـل غوانتانـامو بتهمة المشاركة في عمليات مسلحة ضد القوات الأمريكية، بعد أربع سـنوات من التعذيب المستمر تمّ إعادته إلى بلده الأصلي "الكويت" ووجـد بعـد ذلـك طريقه إلى العراق، وفي ٨ آذار/ مارس ٢٠٠٨م استطاع الـدخول بـشاحنة مفخخة إلى داخل معسكر مشترك للقوات العراقية والأمريكية وقـام بتفجيـر نفسه وقتل ثلاثة عشر جندياً أمريكياً وعراقياً، وذكرت فـي وقتهـا صـحيفة "واشنطن بوست" على أن تلك الهجمة جاءت بسبب غطرسة الإدارة الأمريكية وسجنها للأبرياء وتعذيبهم بدون أي سبب قانوني أو مسوغ يفرض عليها ذلك.

يمكننا القول بأن مصطلح "الحرب على الإرهاب" الذي جاء به بوش بعـد أحداث ٢٠٠١/٩/١١م كان الغطاء لكل الممارسات والجرائم البـشعة التـي

---

(١) باترك كوكبورن (ممارسات التعذيب تقتل من الأمريكيين أكثر من الـذين قـضوا فـي ٢٠٠١/٩/١١م) صحيفة "الأنبندنت" ٢٠٠٦/٤/٦م.

قامت بها الولايات المتحدة الأمريكية ضد كل شعوب العالم، في أفغانستان والعراق والصومال والسودان وفي كل بقاع العالم فقط لإرضاء النزعة الإجرامية لدى الإدارة الأمريكية السابقة وإشباع الرغبة في ممارسة العنف لدى أفراد الشعب الأمريكي وتوجيهها إلى الخارج بدلاً من بقائها داخل الولايات المتحدة الأمريكية.

إن النظرية القائلة بـ "استثنائية أمريكا" لا أساس لها في الوجود، وإنما هي مرض استوطن في عقول البعض الذين يرون أن على أمريكا قيادة العالم ليكون تحت إمرتها وطوع بنانها، يفرض هذا المصطلح الكثير من التناقضات التي تشبه التناقضات التي عانت منها الإمبراطوريات السابقة، فمثلاً في الوقت نفسه الذي كانت فرنسا تقود راية الثقافة والحرية العالمية وبناء نهضة إنسانية وفق معايير أخلاقية ومثل عليا.. كان وزير الحرب الفرنسي يدعو إلى إبادة الشعب الجزائري وإفراغ الجزائر من الجزائريين، وكذلك كانت الإمبراطورية البريطانية التي كانت تدعو إلى مساعدات حركات التحرر في الهند إلا أن الواقع قد كشف زيف ادعاءاتها من خلال ممارسات القمع والاضطهاد التي كانت تقوم بها بريطانيا في الهند خصوصاً تلك التي كانت في قمع التمرد الهندي عام ١٨٥٧م.

لاشك أن غزو العراق يعدّ من أبشع الجرائم التي قامت بها الولايات المتحدة الأمريكية في التأريخ الحديث، لكن تداعيات هذه الجريمة الإنسانية تؤكد على أن الشعب الأمريكي يعاني من داء فقدان الذاكرة التأريخية وببساطة يمكننا القول بأن ذلك يؤسس للجرائم التي من المنتظر أن تقوم بها الولايات المتحدة الأمريكية في المستقبل.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ۞ وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴾[1]

بيان خاص مشترك
إعلان ثقة وتخويل

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونصلي ونسلم على إمام المجاهدين، سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.. وبعد:

فيعلم أهل الفضل من أبناء العراق إننا ما قمنا بوجه الاحتلال إلا لنلبي داعي الله، بوجوب دفع العدو الصائل، لا نبتغي من ذلك عرضاً من الدنيا، أو متاعاً زائلاً، وكنا نعلم علم اليقين أن طريقنا محفوفة بالمكاره، ومحاطة بالأشواك؛ لأنها السبيل إلى جنان الخلد، ومصاحبة النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وهذه سلعة غالية ثمنها كبير أقله ترك الدنيا ومتاعها الزائل.

وها نحن أولاء يا أمتنا الغالية، بعد تلك الخوالي من السنين الصعاب، التي بها تختبر همم الرجال، وتظهر مقدرتهم على الثبات والمطاولة.. تلك السنين التي أبلى بها أبناء العراق المؤمنين الغيارى بلاءً حسناً، أذاقوا فيه العدو مرّ الهزيمة، جادوا خلالها بأنفسهم وأموالهم، وبكل غالٍ ونفيس، في حين كان غيرهم من المنافقين والمتأولين ينعمون بما يتيح لهم الاحتلال من عرض زائل.

ها نحن أولاء توكلنا على الله في أمر نعتقد أن فيه صلاحاً لديننا ودنيانا وأهلنا، فقررنا ما هو آت:

إننا نحن جبهة الجهاد والتغيير، وعصائب العراق الجهادية، وجيش المجاهدين المرابطين، وجيش الإمام أحمد بن حنبل نعلن الآتي:

---

(1) سورة المائدة: ٥٥ – ٥٦.

١- إعلان ثقتنا بالشيخ الدكتور حارث الضاري (أمين عام هيئة علماء المسلمين في العراق)؛ لما عرفنا فيه من رباطة جأش، وثبات على المبدأ، ومطاولة للأعداء، وصبر على البلاء، وإسناد منقطع النظير للجهاد والمقاومة في العراق، على الرغم مما تعرض ويتعرض له، من ضغوط وتجاوزات؛ ولأننا نعده الحارس الأمين على مبادئ وثوابت الجهاد والمقاومة في العراق، والرجل الشجاع وصاحب الموقف الحق الذي لا يتخلى عنه، ولو كلفه ذلك حياته.

٢- نخوّل الشيخ حارث الضاري بأن يتحدث باسمنا، ويفاوض عنّا في الأمور السياسية ذات الصلة بنا، وأن ينوب عنّا في كل المحافل؛ ليدافع عن دماء الشهداء الزكية، التي سالت على ثرى العراق، والليوث التي أسرت، والأعراض التي انتهكت، والأموال التي هدرت.

وفقك الله لخدمة دينه، وأيدك بتأييده، وسدد خطاك على طريق الحق، وكلنا أمل في أن يجتمع العراقيون الغيارى على أمر رشدٍ، في إطار كبير جامع، يحقق آمالنا في تحرير بلدنا من رجس الكافرين والمنافقين والأدعياء، ويعود العراق حراً مسلماً إلى أحضان أهله من العرب والمسلمين، عزيزاً بدين الإسلام، مرفوع الرأس، ويعود خيمة من العطاء يغني الله به أهله ويأوي إليه كل ملهوف ومحتاج.

والله أكبر وهو مولانا والكافرون لا مولى لهم

الموقعون:

١- جبهة الجهاد والتغيير: (كتائب ثورة العشرين، جيش الراشدين، جيش المسلمين في العراق، الحركة الإسلامية لمجاهدي العراق، سرايا جند الرحمن في العراق، سرايا الدعوة والرباط، كتائب التمكين، كتائب محمد الفاتح، جيش التابعين، جيش الجهاد).

٢- عصائب العراق الجهادية

٣- جيش المجاهدين المرابطين

٤- جيش الإمام أحمد بن حنبل

٨/جمادي الآخرة/١٤٣٠هـ

١/٦/٢٠٠٩م

بيان قبول التخويل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله ولي المتقين، والصلاة والسلام على إمام المجاهـدين محمـد، وعلـى آلـه وأصحابه أجمعين، وبعد:

فيا أيها الإخوة الأعزاء في الفصائل الجهادية، التي أولتنا ثقتهـا، وخولتنـا بتمثيلهـا سياسياً.

السلام عليكم، وعلى كل فصائل المقاومة العراقية الأخرى، التي نعتز بها ونفتخـر، ورحمة الله تعالى وبركاته..

بعد شكري لله تعالى، أقدم شكري لكم على ثقتكم بي، وتخويلكم لي فيما يتعلق الأمـر بكم سياسياً، وعندما يقتضي الأمر ذلك، ونظراً لكون الموافقة على مثل هذا التخويل تعـد من الواجبات الشرعية والوطنية، التي لا يجوز لمثلي العدول عنها، على الرغم مما يترتب على ذلك من أعباء وتبعات، ولا سيما في هذه المرحلة الدقيقة والحساسة من تاريخ بلـدنا وأمتنا؛ فإني أعلن موافقتي على هذا التخويل؛ نزولاً عند رغبة إخـواني فـي الفـصائل الجهادية المباركة التي أولتني ثقتها، والتي أرجو أن يوفقني الله لأن أكون عند حسن ظنها، وأعاهد الله تعالى وأعاهدها، على أن أبذل كل ما بوسعي في هذا المجال، مهما كلفني ذلك من جهد وتضحيات، ولها عليَّ أن لا أقطع أمراً دونها.

أيها الإخوة الأعزاء أوصيكم:

أولاً: بتقوى الله تعالى، والتوكل عليه في كل شؤونكم، قال الله تعـالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾[2].

ثانياً: الالتزام بضوابط الجهاد الشرعي؛ حتى يبارك الله تعالى بجهادكم ويمنحكم معيته التي لابد منها في النصر على الأعداء.

---

(1) سورة الطلاق (٣).

(2) سورة الطلاق (٢-٣).

ثالثاً: التعاون الأخوي مع كل الفصائل الجهادية، التي تسعى لتحرير العراق والمحافظة على وحدته وهويته وخير أبنائه بكل أطيافهم ومكوناتهم، من شماله إلى جنوبه، فأنتم أبناء العراق وأنتم تجاهدون من أجل أهله جميعاً، لا من أجل جزء واحد منه فقط.

رابعاً: المحافظة على أمن العراق واستقراره ليسهم في أمن واستقرار جيرانه والمنطقة كلها، والوعي الكامل بمخططات التخريب والتحريش بين الشعب العراقي وأشقائه.

خامساً: أوصيكم بالصبر والثبات والتحمل وطول النفس، وعدم الالتفات إلى المثبطين والمتساقطين واللاهثين وراء السحاب الخادع، فأنتم وإخوانكم في فصائل المقاومة العراقية الأخرى تمثلون ضمير العراق وضمير الأمة الحي؛ لأنكم تجسدون المشروع الحقيقي والوحيد لتحرير العراق من الاحتلال ومشاريعه الخطيرة، وأخيراً: إن قبولنا هذا التخويل سيكون عوناً لنا بإذن الله تعالى على تحقيق هدفنا في أن يكون العراق لكل أبنائه، بكل مكوناتهم الدينية والمذهبية والعرقية، لا يعاني فيه أحد من تهميش أو إقصاء.

بارك الله فيكم وأيدكم بنصره ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾[1] والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

أخوكم

حارث سليمان الضاري

الأربعاء ١٥/جمادي الآخرة/١٤٣٠هـ

١٠/حزيران/٢٠٠٩م

---

[1] سورة آل عمران (١٢٦).

بيان انضمام لموثق التخويل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾[1]

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خير الخلق أجمعين، وإمام المجاهدين محمد، وعلى آله وصحابته الكرام الطاهرين، وبعد:

فلقد خصنا الله تعالى بخاصة الجهاد في سبيله، وكلفنا جلّ في علاه بمهمة الذود عن دينه وتحرير أرضنا من دنس الاحتلال الغاصب، وقد مضينا بفضل من الله في ذلك وأرخصنا أرواحنا وأموالنا في سبيل الله، وأثخنا مع إخوتنا المجاهدين في العدو الجراح، فصار يجرّ أذيال الخيبة والهزيمة.

واليوم ونحن نشهد الخطوة الجريئة المباركة التي أطلقها الأخوة المجاهدون في (١٣) فصيلاً جهادياً بمنح الشيخ (حارث الضاري) الثقة وتخويله بالتمثيل السياسي لهذه الفصائل، فإننا ولما عرفناه وعهدناه عن الشيخ الجليل والإخوة المجاهدين في الفصائل المباركة، لنعلن تأييدنا وانضمامنا لهذا الموثق والتخويل، الذي خُول به الشيخ الضاري، ونمدّ أيدينا لتشدّ على أيدي إخوتنا وتبارك لهم جهدهم ورأيهم.

والله نسأل أن يجعل في هذا الأمر تأييداً لدينه، ونصراً لجنده، وإحقاقاً للحق، وإبطالاً للباطل، اللهم أنت عضدنا ونصيرنا، اللهم بك نصول، وبك نجول، وبك نقاتل.

﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾[2].

الموقعون

جماعة أرض الرافدين   لواء ديالى الجهادي   سرايا الجنوب الجهادية

---

[1] سورة العنكبوت (٦٩).

[2] سورة الحج (٤٠).



تنويه

تعتذر أسرة تحرير (حضارة) عن السهو الطباعي الذي ورد في العدد السابق في بحث (العلماء في خدمة المجتمع زمن الاحتلال) في الصفحة (٩٦) والذي أشير فيه إلى تأريخ تأسيس هيئة علماء المسلمين في ١٣/٤/٢٠٠٣م والصواب هو ١٤/٤/٢٠٠٣م.

مطابع الأهرام ٦ أكتوبر - التجارية - مصر

مركز الأمة للدراسات والتطوير





قانون النفط والغاز
حقائق وملاحظات

حسين الرشيد

الدور السياسي والإعلامي
لهيئة علماء المسلمين

خالد القيسي



الفيدرالية
الخطر الداهم

عصام سليم

تطلب من

مؤسسة البصائر للطباعة والنشر والتوزيع - بغداد

دار النهضة للطباعة والنشر والتوزيع - سورية - دمشق ص.ب ١١٢٧١ هاتف: ٠٠٩٦٣١١٢٢٢٠٩٥٧

للاستفسار يرجى مراسلتنا على العنوان البريدي editor@hadharamagazine.net